بين العقل والإيمان

الجزء الرابع

كيف نفهم
طبيعة روح الله وأعماله؟

بقلم د. هيرمان بافينك

بين العقل والإيمان

الجزء 4

كيف نفهم طبيعة روح الله وأعماله؟

بقلم د. هيرمان بافنيك

ترجمة: سعيد باز

مراجعة: د. حبيب حكيم

All Rights Reserved
جميع الحقوق محفوظة – الرجاء التقيد
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز إعادة نشر أو طبع هذا الكتاب بأي طريقة طباعية أو إليكترونية أو وضعها على شبكة الإنترنت إلا بإذن خاص ومكتوب من الخدمة العربية للكرازة بالإنجيل.
يمكنك أن تحتفظ بالكتب والمقالات للإستخدام الشخصي فقط وليس بهدف بيعها أو المتاجرة بها بأي طريقة كانت ومهما كانت الأسباب.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المحتويات

تقديم

الفصل الأول: عطية الروح القدس

الفصل الثاني: الدعوة المسيحية

الفصل الثالث: التبرير

الفصل الرابع: التقديس

الفصل الخامس: كنيسة المسيح

الفصل السادس: الحياة الأبدية

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تقديم

عزيزي القارئ:

منذ أن ظهر كتاب "نظام التعليم في علم اللاهوت القويم" عام **1888**، والذي أعيد طبعه كما هو بعنوان "علم اللاهوت النظامي" في السبعينات من هذا القرن، لم يظهر في العربية حتى اليوم كتاب آخر يصلح مرجعاً لاهوتياً لكل من يرغب في دراسة علم اللاهوت من وجهة نظر إنجيلية. لقد ظهرت فعلاً بعض الكتابات، لكننا لا يمكن أن نعتبر أيّاً منها مرجعاً لاهوتياً.

وقد خدم كتاب "نظام التعليم في علم اللاهوت القويم" عدة أجيال وما زالت أجزاء كبيرة منه تصلح مرجعاً لاهوتياً مفيداً. إلا أن من يتصفحه يلمح على الفور أنه يقرأ كتاباً مصوغاً في إطار فكري يعود بالقارئ إلى قرن مضى، سواء من حيث المفردات أو القالب الفكري أو حتى المضمون.

لذلك كانت الحاجة ملحة لأن يتوفر للقارئ العربي ولكل من يرغب في الاستزادة من العلوم اللاهوتية، كتاب يتحدث بلغة العصر في صياغة حديثة ويُعنى بالموضوعات المعاصرة.

ظهر الكتاب الذي بين يديك باللغة الهولندية أوّلاً عام **1909** بعنوان "أعمال الله الرائعة" ثم تُرجم إلى الإنجليزية بعنوان "إيماننا المعقول" ونشر عام **1956** ثم أعيد طبعه عدّة مرات. وها هو قد تُرجم الآن إلى العربية تحت عنوان "بين العقل والإيمان".

وقد قامت دار نشر "مطبوعات الشرق الأوسط" بطباعة الجزء الأول من هذا الكتاب في سنة **1990** تحت عنوان "كيف نفهم إعلان الله؟" وكذلك الجزء الثاني في سنة **1993** تحت عنوان "كيف نفهم طبيعة الله؟" والجزء الثالث في سنة **1994** تحت عنوان "كيف نفهم طبيعة المسيح وأعماله؟" ويختتم الجزء الرابع الذي بين يديك سلسلة كتاب "بين العقل والإيمان".

ورغم أن هذا الكتاب لا يتفاعل مع مؤثرات فكرية كثيرة ظهرت بعد كتابته، فهو يقدّم لنا صياغة لاهوتية أقرب إلى العصر الذي نعيش فيه، والجو الفكري الذي يحيط بنا.

ومؤلف الكتاب عالم اللاهوت الهولندي المرقوق (هيرمان بافينك **Heman Bavinck**) قام بتدريس مادة علم اللاهوت لسنوات طويلة وله عدة مؤلفات لاهوتية حاول أن يُضمّن خلاصتها في الكتاب الذي بين يديك. ويلاحظ القارئ أن الكتاب يشمل دراسة ملتزمة للكتاب المقدس، ولذلك فهو غني بالإشارة إلى الآيات الكتابية التي نرجو أن يُلاحظ أنها ليست دائماً بنصها الحرفي كما هو في الكتاب المقدس، لأن الاقتباسات في كثير من الأحيان اقتباسات تفسيرية وليست حرفية.

نأمل أن تكون هذه السلسلة سبب بركة كبيرة لمجد الله ولخير الإنسانية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الأول

عطية الروح القدس

العمل الأول الذي قام به المسيح بعد ارتفاعه إلى يمين الآب هو إرسال الروح القدس. فبارتفاعه إلى السماء، قَبِلَ شخصياً من الآب، الروح القدس الموعود به في العهد القديم، ولذلك يستطيع الآن أن يسكبه على تلاميذه كما وعدهم (أعمال 2: 33). والروح الذي أعطاه المسيح منبثق من الآب ومُعطى له من قِبَل الآب وموهوبٌ بالتالي للكنيسة (لو 24: 49؛ يوحنا 14: 26).

وإرسال الروح القدس هذا الذي جرى يوم الخمسين هو حدثٌ فريد في تاريخ كنيسة المسيح. فمثله مثل الخلق والتجسد، حدث مرةً واحدة فقط. ولم يسبقه أيُّ مَنحٍ للروح معادل له في الأهمية ولا حق له. وكما أن المسيح عندما حُبِلَ به اتخذ الطبيعة الإنسانية بحيث لن يعود يتخلى عنها أبداً، هكذا اختار الروح القدس الكنيسة في يوم الخمسين مسكناً له وهيكلاً، ولن يعود ينفصل عنها البتة. ويشير الكتاب المقدس بوضوح إلى الأهمية الخاصة لما حدث يوم الخمسين إذ يصفه بأنه "تدفق" أو "انسكابٌ" للروح القدس.

هذا لا يعني بالطبع أن نقول إنه لا ذكر لنشاط الروح القدس بمختلف أوجهه ولا مواهبه قبل يوم الخمسين. فقد سبق لنا أن لاحظنا أن الروح مع الآب والابن هو خالق جميع الأشياء، وأن الروح في مجال الفداء هو محدِثُ الحياة والخلاص جميعاً ومُعطي المواهب والقدرات كلِّها. ولكن هنالك فرقاً بين نشاط الروح القدس وهباته في أيام العهد القديم وبينهما في العهد الجديد. والفرق واضح وجوهري. ويبدو ذلك، أول كل شيء، في حقيقة كون تدبير العهد القديم قد تطلّع دائماً إلى ظهور عبد الرب الذي سيستقر عليه روح الرب بكل ملئه، بوصفه روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب (إش 11: 2). وفي المقام الثاني، يتنبأ العهد القديم نفسه، بالرغم أنه من وجود مواهب ونشاطٌ للروح القدس بصورة ما، إلا أن الروح لن ينسكب على كل بشر – بنين وبنات وشيوخاً وشباباً وعبيداً وإماءً – إلا في الأيام الأخيرة.[1]

وكلتا النبوءتين قد تمّتا في العهد الجديد. يسوع هو المسيح. مسيح الله فائق المجد. أجل، قد حُبِلَ به بالروح القدس، وقد مُسِحَ عند معموديته بالروح القدس. ولكن ليس هذا هو كلّ ما في الأمر، بل إنه قد عاش وعمل في كل حين بذلك الروح أيضاً. به اقتيد إلى البرية (لو 4: 1)، وبه رجع إلى الجليل (4: 14) وبه كُرز بالإنجيل، وشفى المرضى، أخرج الشياطين،[2] وأسلم نفسه للموت (عب 9: 14)، وأُقيم، وتعيّن ابن الله بقوة (رو 1: 4). وعلى مدى الأربعين يوماً التي انقضت في ما بين قيامته وصعوده، أعطى تلاميذه وصايا بالروح القدس.[3] وعند صعوده الذي به أخضع لنفسه جميع أعدائه وأُخضعت له جميع الملائكة والسلاطين والقوات (أف 4: 8؛ 1 بط 3: 22) أخذ الروح القدس بملئه وكل سلطانه. فإذ صعد إلى العلاء، سبي سبياً، أعطى الناس عطايا، وارتفع فوق جميع السماوات لكي يملأ الكل (أف 4: 8 – 10).

نوال المسيح للروح القدس هو امتلاك مطلق بمعنى إن الرسول بولس استطاع أن يقول في (2 كورنثوس 3: 17) إن الرب (أي المسيح بوصفه الرب الممجد) هو الروح. ولا يعني بولس بهذا القول، بطبيعة الحال، أن يلغي التمايز بين الاثنين، لأنه في الآية التالية يعود فيتكلم مباشرة عن الروح (في قوله "الرب الروح"). بل أن الروح القدس قد صار في المسيح إلى كمال الملء، حتى إن المسيح – إذا جاز التعبير – قد تشبّع به كلياً، أو تمثّله تماماً. فبقيامة المسيح وصعوده صار هو "روحاً مُحيياً" (1 كو 15: 45). وله الآن الأرواح السبعة (أي الروح في ملئه كما أنه هو مالك الكواكب السبعة) (رؤ 3: 1). وروح الله هو إذ ذاك روح الابن، روح المسيح، الروح الذي – ليس من حيث الكينونة الإلهية فقط بل على توافق معا وبالنسبة إلى تدبير أزمنة الخلاص أيضاً – ينبثق من عند الآب والابن ويُرسله الابن كما يرسله الآب (يو 14: 26؛ 15: 26؛ 16: 7).

---

[1]- إش 44: 3؛ خر 39: 29؛ يوئيل 2: 28 وما يلي.
[2]- متى 12: 28؛ لو: 4: 18، 19.
[3]- أع 10: 2؛ قارن يو 20: 21، 22.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فعلى أساس طاعته الكاملة حصل المسيح على حرية التصرف المطلق في ما يتعلق بالروح القدس وجميع مواهب ذلك الروح وقواته. فيمكن للمسيح الآن أن يعطي هذا الروح لمن يشاء، وبالكيل الذي يريد، لا على خلافٍ مع مشيئة الآب والروح كليهما، بل وفاقاً لها بالطبع. فإن الابن يُرسل روح الآب (يو **15**: **26**). والآب يرسل الروح باسم الابن (يو **14**: **26**). والروح لا يتكلم من نفسه، بل يتكلم بكل ما يسمعه. فكما مجّد المسيح على الأرض الآب في كل حين، هكذا أيضاً يمجّد الروح بدوره المسيح، فيأخذ منه كل شيء ويخبر تلاميذه (يو **16**: **13**، **14**). وعلى هذا، يضع الروح القدس نفسه في خدمة المسيح بغير حد. وفي الروح القدس وبه يُعطي المسيح للكنيسة مما له ومن بركاته.

فليس بالقوة إذاً ولا بالقدرة يسود المسيح في الملكوت الذي أعطاه إياه الآب. إنه لم يفعل هذا في اتضاعه، ولن يفعله في ارتفاعه. بل يستمر في أداء كامل عمله، النبوي والكهنوتي والملكي، بطريقة روحية من مقامه في السماء. فهو لا يحارب إلا بأسلحة روحية فقط. إنه ملك نعمةٍ وملك قوة، لكنه في كلا الحالين يُجري مُلكه بالروح القدس الذي يستخدم بدوره الكلمة كواسطة نعمة. فبذلك الروح يعلّم ويرشد كنيسته، ويعزيها ويقودها ويسكن فيها. وبذلك الروح عينه يبكّت العالم على خطية، وعلى برّ، وعلى دينونة (يو **16**: **8 – 11**). ولسوف يكون النصر النهائي الذي يحرزه المسيح على جميع أعدائه نصراً للروح القدس.

بعد ارتفاع المسيح إلى يمين الله، يمكن أن يتم الوعد الثاني المبيّن في العهد القديم، إنه يتحدث عن سكب الروح القدس على كل بشر. وكان لابد أولاً أن ينال المسيح ذلك الروح ويخصّصه لنفسه بالتمام، قبل أن يعطيه لكنيسته. فقبل ذلك الحين، أي قبل الصعود، لم يكن الروح القدس قد أعطي بعد، لأن المسيح لم يكن قد مُجِّد بعد (يو **7**: **39**). ولا يعني هذا بالطبع أن الروح القدس لم يكن موجوداً قبل تمجيد المسيح، فإنه يُشار إليه في العهد القديم مراراً وتكراراً. وتُفيدنا الأناجيل أيضاً أن يوحنا المعمدان امتلأ من الروح القدس (لو **1**: **15**)، وأن سمعان أتى به الروح القدس إلى الهيكل (لو **2**: **26**، **27**)، وأن يسوع حُبِل به بالروح القدس وبه مُسِح، وهكذا دواليك. بالإضافة إلى أنه لا يمكن أن يعني ذلك أن التلاميذ لم يكونوا يعلمون قبل يوم الخمسين أن الروح القدس موجود. لأنهم تعلموا خلاف ذلك من العهد القديم ومن المسيح بالذات. حتى تلاميذ يوحنا الذين قالوا لبولس في أفسس إنهم لم يقبلوا الروح القدس ولا سمعوا أنه يوجد (أع **19**: **2**) لا يعقل أن يكون قصدهم أنهم يجهلون كلياً حقيقة وجود الروح القدس. فما قصدوا قوله هو أنهم لم يلاحظوا أي عملٍ غير معتاد للروح القدس، أي حدث يوم الخمسين. لأنهم كانوا يعلمون أن يوحنا المعمدان كان نبياً أرسله الله وأهلّه الروح. لكنهم ظلّوا تلاميذ ليوحنا ولم ينضموا إلى المسيح وجماعته، وهكذا لبثوا خارج نطاق الكنيسة التي قبِلت الروح القدس يوم الخمسين. ففي ذلك اليوم انسكب الروح القدس على نحوٍ لم يسبق له مثيل.

كان العهد القديم قد سبق فعبّر عن هذا الموعد، ويسوع أيضاً اتخذه وأشار إليه مراراً في تعليمه. وسبق يوحنا المعمدان فقال عن المسيح الذي كان آتياً بعده، إنه لن يعمّد بالماء مثله بل بالروح القدس وبالنار المطهِّرة والمحرقة.[1] ووفقاً لهذا التصريح وعد الرب يسوع تلاميذه بأنه بعد ارتفاعه سيرسل إليهم من عند الآب الروح القدس الذي يرشدهم إلى جميع الحق. وبقوله هذا كان يشير صراحة إلى فاصل بين نوعين من نشاط الروح القدس. ذلك أن الروح القدس، بمقتضى نوعٍ واحد، وقد سُكب في قلوب تلاميذ المسيح، يعزّيهم ويرشدهم إلى الحق ويَمكُث معهم إلى الأبد.[2] غير أن روح التعزية والإرشاد هذا لا يُعطى إلا لتلاميذ المسيح. فالعالم لا يستطيع أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه (يو **14**: **17**). وعلى عكس ذلك، يقوم الروح القدس في العالم بنشاطٍ من نوعٍ آخر مختلف: فإذ يسكن في الكنيسة من حيث يمارس تأثيره في العالم، يبكّت العالم على خطية، وعلى برّ، وعلى دينونة، ويحكم عليه بالنسبة إلى هذه الثلاثة جميعاً (يو **16**: **8 – 11**).

وقد أتمّ المسيح وعده لتلاميذه بالمعنى الحصري، أي للرسل، قبل صعوده. فلما ظهر لهم ثانيةً في مساء يوم قيامته، عرّفهم بمهمتهم الرسولية على نحوٍ جليل، إذ نفخ فيهم وقال: اقبلوا الروح القدس؛ من غفرتم خطاياه تُغفر، ومن أمسكتم خطاياه تُمسَك (يو **20**: **22**، **23**). فلأجل القيام بالوظيفة الرسولية التي ينبغي أن يمارسوها آنذاك، كانت تعوزهم عطية الروح الخاصة وقوته. وقد أعطاهم ذلك هو نفسه قبل صعوده. وهذا يمتاز نوعياً عن الانسكاب الذي أعطاه في ما بعد لتلاميذه بالاشتراك مع جميع المؤمنين به.

---

[1]- مت 3: 11؛ يوحنا 3: 11.
[2]- يو 14: 16؛ 15: 26؛ 16: 7.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فالانسكاب التام حدث بعد أربعين يوماً من صعود المسيح (يوم الخمسين). كان اليهود آنئذٍ يعيّدون عيد الحصاد، تذكاراً لإعطائهم الشريعة على جبل سيناء. وكان التلاميذ في أورشليم ينتظرون إتمام وعد المسيح لهم، وهم كلّ حين في الهيكل يسبحون الله ويباركونه (لو 24: 29، 53). ولكنهم الآن لم يكونوا وحدهم. فقد كانوا يواظبون بنفسٍ واحدة على الصلاة والطلبة مع النساء، ومريم أم يسوع، ومع إخوته، ومعهم آخرون كثيرون، إذ كان مجموع الأسماء معاً نحو مئة وعشرين (أع 1: 14، 15؛ 2: 1). وإذ كانوا مجتمعين هكذا، حصل بغتةً وعلى غير توقّع صوتٌ من السماء كصوت هبوب ريحٍ عاصفة، وملأ البيت كله حيث كانوا جالسين جميعاً، وليس فقط المكان الذي كان الرسل فيه، بل ظهرت في الوقت عينه ألسنة منقسمة كأنها من نار، جاءت على كل واحدٍ من المجتمعين هناك واستقرت عليهم أجمعين. وهكذا حصل انسكاب الروح القدس، مصحوباً بهذه العلامات الظاهرة التي تدل على نشاط الروح المطهِّر والمنوِّر. فقد امتلأ الجميع من الروح القدس (أع 2: 4).

ومثل هذا التعبير ورد من قبل أيضاً (خر 31: 3؛ مي 3: 8؛ لو 1: 41). لكن الفرق يكمن في المظهر. فحتى ذلك الحين كان الروح القدس يحل على قلّة من الأشخاص المتفرقين، وبصورة وقتية فقط لأجل غرض معين. غير أنه الآن انسكب على الكنيسة كلِّها بجميع أفرادها، وهو يظل ساكناً فيها وعاملاً باستمرار. وكما ظهر ابن الله أكثر من مرة في أيام العهد القديم لكنه اختار الطبيعة البشرية مسكناً دائماً فقط عندما حُبِل به، فكذلك أيضاً تماماً وُجدت في ما مضى جميع أنواع النشاط والقدرة الخاصة بالروح القدس، إلا أنه في يوم الخمسين فقط اتّخذ الروح القدس الكنيسة مسكنه الذي يستمر في تقديسه وبنيانه والذي لن يغادره البتة. وسُكنى الروح القدس يُعطي كنيسة المسيح كيانها المستقلّ. فلم تعد تلك الكنيسة بعد مقصورة على أمة واحدة ولا محصورةً ضمن حدود أرضٍ معينة، بل إنها الآن تحيا مستقلة بالروح الذي يسكنها وتنتشر على الأرض كلّها. ولم يعد الله يقيم في هيكلٍ أرضي، بل سكناه في الكنيسة، جسد المسيح. ففي ذلك اليوم ولدت هذه الكنيسة باعتبارها كنيسةٍ ذات رسالة تؤديها في العالم كله. فنزول الروح القدس هو النتيجة الحتمية لصعود المسيح والبرهان على حقيقة هذا الصعود. ومثلما قدّس الروح أولاً المسيح بالآلام وكمّله ورفعه إلى أعلى مقام، كذلك هو الآن عاكفٌ بالطريقة نفسها على تكوين جسد المسيح إلى أن يبلغ قامته الكاملة، فيصير هذا الجسد هو ملء ذاك الذي يملأ الكل في الكل.

صاحَب انسكاب الروح هذا، في زمن التلاميذ الأولين، أنواعٌ شتى من القوات والأعمال الخارقة. فما أن امتلئوا من الروح القدس في يوم الخمسين، حتى ابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى، كما أعطاهم الروح أن ينطِقوا (أع 2: 4). وبحسب وصف لوقا، ينبغي لنا أن نحسب هذه الظاهرة معجزة كلام لا معجزة سماع. فقد كان لوقا رفيقاً لبولس ومعاوناً له، وشهد جيداً ظاهرة التكلّم بألسنة كما حدثت في كورنثوس مثلاً. وهو يتكلم عنها في (أعمال 10: 46، 47، 19: 6). فلا شك في أن هذه الظاهرة التي حدثت يوم الخمسين منوطة بالتكلّم بألسنة، وإلا فما كان في وسع بطرس أن يقول إن كرنيليوس وصحبه قد قبلوا الروح القدس كما كان بطرس وسائر التلاميذ قد قبلوه (أعمال 10: 47؛ قارن 11: 17 و 15: 8). غير أنه كان هناك فرق. إذ إن التكلم بألسنة، في (1 كو 14) كما في (أع 10: 46 و 19: 6)، لا تتبعه الصفة "أخرى"، بينما ترد هذه اللفظة صراحةً في (أعمال 2: 4). فحينما كان أفراد الكنيسة في كورنثوس يتكلمون بألسنة، لم يكن من يفهمهم إلا إذا حصلت ترجمة في ما بعد (1 كو 14: 2 وما يلي). ولكن في أورشليم كان التلاميذ يتكلمون بألسنة أخرى قبل أن يأتي الجموع ويسمعوهم. فمن المستبعد أن تكون معجزة سماع قد حصلت (أع 2: 4). ولما سمع الجموع الكلام، فهموا ما كان يُقال، لأن كل واحدٍ سمع التلاميذ بلغته التي نشأ عليها (أع 2: 6، 8). فاللغات الأخرى المشار إليها في الآية الرابعة هي بلا شكٍ اللغات التي تدعوها الآية السادسة لغات السامعين، والتي تسمَّى أيضاً في الآية الثامنة اللغات التي وُلِد فيها السامعون. إذاً، لم تكن تلك أصواتاً بلا معنى نطق بها الرسل، بل كانت ألسنةً "أخرى"، ألسنةً "جديدة" على حدّ قول مرقس في (مر 16: 17)، لغاتٍ لم تكن متوقّعة من جليليّين غير متعلمين (أع 2: 7). وفي تلك اللغات كلِّها أعلن التلاميذ عظائم الله؛ ولاسيّما تلك التي فعلها تعالى في أقرب عهد إليهم بإقامة المسيح وترفيعه (أع 2: 4 ثم 14 وما يلي).

ليس لنا أن نأخذ ما جاء في لوقا عن ذلك كما لو أنه يعني أن تلاميذ المسيح في تلك اللحظة عرفوا جميع اللغات الممكنة على الأرض وصاروا قادرين على التكلّم بها. ولا تعني أقوال لوقا أيضاً أن جميع التلاميذ تكلموا بجميع اللغات الأخرى. حتى إن القصد من وراء معجزة الألسنة هذه لم يكن تمكين التلاميذ من المناداة بالبشارة للغرباء بلغاتهم الخاصة لأن هؤلاء لم يكونوا ليفهموها إلا بهذه الطريقة. فإن الخمسة عشر

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

اسماً الواردة في الآيات 9 – 11 لا تمثل لغاتٍ تماثلها عدداً، بل هي أسماء البلدان التي منها جاء الغرباء إلى أورشليم بمناسبة يوم الخمسين. وكان جميع الغرباء المذكورين قادرين على فهم الآرامية أو اليونانية، بحيث لم تدع الحاجة في هذا المجال إلى جعل الرسل قادرين على التكلم بلغاتٍ جديدة. ولا نجد في العهد الجديد في ما بعد أيضاً أي ذكرٍ لموهبة اللغات الغريبة هذه. حتى إن بولس، رسول الأمم، لا يتكلم عنها شيئاً، مع أنه كان ينبغي بكل تأكيد أن يحصل على هذه الموهبة أكثر من سواه. فقد كان في وسعه أن يتخاطب جيداً مع أهل زمانه بالآرامية واليونانية.

لذلك، كان التكلم بألسنة غريبة، يوم الخمسين، حدثاً فريداً. حقاً أنه كان على علاقة بالتكلم بألسنة كما هو معروفٌ عموماً ومُشار إليه في مواضع أخرى، ولكنه كان تكلماً من نوعٍ خاص وبدرجة أعظم. وقد صنّف بولس ذلك النوع العام والشائع في مرتبة أدنى من التنبؤ أهميةً. غير أن ما حدث في أورشليم كان ربطاً للتكلم بألسنة مع التنبؤ. فقد كان عمل الروح القدس، المسكوب آنذاك أول مرة في ملئه، قوياً جداً حتى إنه سيطر على كامل الوعي وعبّر عن نفسه بنطق أصواتٍ جليّة ميّزها السامعون باعتبارها لغاتهم الخاصة. وهكذا لم يكن غرض هذه المعجزة إعداد التلاميذ بمعرفة لغاتٍ أجنبية، بل بالأحرى – وعلى نحوٍ فائق للعادة – أن يتخلّف انطباعٌ عن الحادثة العظيمة التي حصلت آنئذٍ. وكيف كان ممكناً أن يتم ذلك على نحوٍ أفضل من جعل الكنيسة الصغيرة والحديثة العهد تُعلن عظائم الله بلغاتٍ عديدة؟ فعند الخَلق ترنّمت كواكب الصبح معاً وتهلّل بنو الله جميعاً. وعند ولادة المسيح أشاد جمهور الجند السماوي بمسرّة الله. ويوم ولادة الكنيسة، تُشيد الكنيسة نفسُها بعظائم الله في نغماتٍ شتى.

ومع أن للتكلم بألسنةٍ مكانةً بارزةً بين علامات يوم الخمسين، ينبغي لنا أن نتذكر أن انسكاب الروح في تلك الفترة الأولى تجلّى في عدّة قواتٍ وأعمال فائقة. فكانت عطيّة الروح القدس تُمنح عندما يُقبل أحدهم إلى الإيمان، وأحياناً عند المعمودية (أع 2: 28)، أو عند وضع اليد قبل المعمودية (أع 9: 17) أو بعدها (أع 8: 17؛ 19: 6). لكنها اشتملت عادةً على منح قوةٍ خاصة. وهكذا نقرأ عن إعطاء التلاميذ بالروح القدس جسارةً للتكلم بالكلمة (أع 4: 8، 31)، وقوة إيمانٍ خاصةً (أع 6: 5؛ 11: 24)، وعزاءً وفرحاً (أع 9: 31؛ 13: 52)، وحكمةً (أع 6: 3، 10)، وتكلّماً بألسنة (أع 10: 46؛ 15: 8؛ 19: 6)، ونبوّةً (أع 11: 28؛ 20: 23؛ 21: 11)، ورؤىً وإعلانات،[1] وقدرة عجيبة على الشفاء،[2] وإلى غير ذلك. وعلى غرار الأعمال المعجزية التي أجراها المسيح، فإن هذه القوات غير المعتادة التي ظهرت في الكنيسة سبّبت خوفاً ورعدةً عظيمين،[3] ومن جهةٍ، أثارت هذا القوات جماعة المعارضة فتحركت قلوب الأعداء بالحقد والاضطهاد. لكنها من جهةٍ أخرى أعدّت أيضاً التربة لقبول بذار الإنجيل. وقد كانت ضرورية في ذلك العهد الأول لتُعِد دخول الإيمان المسيحي إلى العالم.

وقد استمرت أعمال الروح غير المعتادة هذه طيلة العصر الرسولي. ونعرف هذا على الخصوص من شهادة الرسول بولس. فقد كان شخصياً موهوباً بمواهب الروح الخاصة وبدعوة غير عادية، أي بإعلانٍ خاصٍ من يسوع المسيح نفسه، أُتي به إلى التوبة على طريق دمشق، ودُعي ليكون رسولاً (أع 9: 3 وما يلي)، وفي ما بعد أيضاً جاءته إعلاناتٌ دورية.[4] وفي قرارة نفسه يعلم أن لديه مواهب العلم والنبوة والتعليم والتكلّم بألسنة (1 كو14: 6، 18). ويُجري آياتٍ وعجائب وأعمالاً تثبت رسوليته (2 كو 12: 12). ويعظ ببرهان الروح والقوة (1 كو 2: 4). والمسيح نفسَه عمل فيه لإطاعة الأمم، بالقول والفعل، بقوة آياتٍ وعجائب، بقوة روح الله (رو 15: 18، 19).

ولكن مع أن بولس كان مدركاً تماماً لوظيفته الرسولية ورفعتها، وناهضاً بأعبائها في كل حينٍ خيرَ إدراك، فقد أيقن أن مواهب الروح لم تُعط له وحده بل أيضاً لجميع المؤمنين. ففي 1 كورنثوس 12: 8 – 10 (قارن رو 6: 8) يذكر بولس عدداً من هذه المواهب، ثم يقول إن هذه كلّها يعملها الروح الواحد عينُه، قاسماً لكل واحدٍ بمفرده كما يشاء. ويقدّر الرسول كل هذه المواهب أسمى تقدير. فالفضل لا يعود إلى المؤمنين أنفسهم، لأن هؤلاء لا يملكون شيئاً إلا وسبق أن أخذوه، ولذلك فلا أساس لديهم على الإطلاق للافتخار بأنفسهم واحتقار الآخرين (1 كو 4:

[1]- أع 7: 55؛ 8: 39؛ 10: 19؛ 13: 2؛ 15: 28؛ 16: 6؛ 20: 22.
[2]- أع 3: 6؛ 5: 5، 12، 15 و 16؛ 8: 7، 13، ومواضع أخرى.
[3]- أع 2: 7، 37، 43؛ 3: 10؛ 4: 13؛ 5: 5، 11، 13، 24.
[4]- أع 16: 6، 7، 9؛ 2 كو 12: 1 – 7؛ غل 2: 2.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

6، 7). وذلك أن جميع هذه المواهب والقدرات يتم إحرازها بالروح الواحد عينه. وهي إتمامٌ للنبوة الموعود بها في العهد القديم (غل 3: 14)، ومن الواجب اعتبارها جميعاً باكوراتٍ تبشّر بحصادٍ وفير وعربوناً لميراثنا السماوي العتيد.[1]

على أن بولس يورد تقييماً لجميع هذه المواهب غير المعتادة يختلف أساساً عما يراه كثيرون من الأفراد في الكنيسة. فقد كان في كورنثوس أشخاصٌ مجّدوا أنفسهم على أساس المواهب التي أُعطيت لهم بإظهار الروح، ونظروا باحتقار إلى الذين تلقّوا مواهب أقل أو لم يتلقوا أية موهبة قط. هؤلاء الأشخاص لم يستخدموا مواهبهم لمنفعة الآخرين، بل عرضوها تباهياً. وقد علّقوا أهميةً خاصة على التكلّم بألسنة، هذه الموهبة الغامضة والمبهمة. إلا أن بولس يشير إلى خطأهم (1 كو 12– 14). فأولاً، يبيّن بولس المعيار الذي به يجب أن تُقاس جميع هذه المواهب. هذا المعيار هو الاعتراف بيسوع المسيح رباً. فلا أحد، وهو يتكلّم بروح الله، يدعو يسوع مرذولاً. والذين يعترفون بيسوع رباً هم وحدهم يبرهنون أنهم يتكلمون بالروح القدس. فالعلامة المميّزة للروح القدس ولكل مواهبه وأعماله إنما هي كونه ملتزماً الاعتراف بيسوع ربّاً (1 كو 12: 3).

وثانياً، يبيّن بولس أن مواهب الروح كلَّها، وإن كانت جميعاً تفي بالمعيار الواحد عينه، هي مع ذلك متنوّعة ومتفاوتة، وهي توهَب لكل واحدٍ بمفرده لا بحسب استحقاقه أو قدره، بل بحسب مشيئة الروح المطلقة (1 كو 12: 4 – 11). ولذلك لا ينبغي أن تكون المواهب مناسبةً أو معطاة أساساً لتمجيد الذات واحتقار الغير. بل بالأحرى ينبغي أن تُمارس المواهب كلُّها، بإخلاصٍ وبرغبة صادقة، لمنفعة الآخرين، لأن جميع المؤمنين أعضاءٌ في جسد واحد، ويحتاج بعضُهم البعض (1 كورنثوس 12: 12 – 30). ولكن إذا استُخدمت المواهب لهذه الغاية، إذا خُصّصت لما يؤول إلى المنفعة (1 كو 12: 7)، أي منفعة الآخرين وفي سبيل بنيان الكنيسة، الأمر الذي جُعلت له (1 كو 14: 12)، فعندئذ يظهر التفاوت بين تلك المواهب، لأن إحداها تكون أنفع من الأخرى لبنيان الكنيسة، وهكذا يستطيع الواحد أن يتحدّث عن مواهب حسنة، ومواهب أحسن. من هنا ينصح الرسول المؤمنين، في (1 كورنثوس 12: 31)، أن يجدّوا فعلاً للمواهب "الحُسنى".

وفي سياق السعي المتواصل إلى المواهب الحُسنى، تبرز المحبة بوصفها الطريق الأفضل. فمن دونها تكون المواهب العظمى بلا قيمة (1 كو 13: 1 – 3). والمحبة تفوقهنّ جميعاً في فضلها (1 كو 13: 4 – 7). فالمحبة تتفوّق على جميع المواهب، لأن جميع المواهب ستبطل يوماً، أما المحبة فأبدية. وبين الفضائل الثلاث، الإيمان والرجاء والمحبة، تبرز المحبة أيضاً بوصفها أعظمهنّ ثباتاً (1 كو 13: 8 – 13). ولذلك ينبغي أن نسعى إليها قبل كل شيء، وإن كان الجدُّ في إثر المواهب الروحية محموداً في حدّ ذاته (1كو 14: 1). ولكن في جدِّنا للمواهب الروحية ينبغي أن نوجّه اهتمامنا نحو تلك المواهب التي تنفع لأجل بنيان الكنيسة والتي نمارسها بالمحبة أكثر من سواها. فمن زاوية النظر هذه، يأتي التنبؤ في منزلة أسمى جداً من التكلم بألسنة. وذلك لأن الذين يتكلمون بألسنة لا يُفهم كلامُهم، ويتكلمون بأسرارٍ مبهمة على السامعين، يتكلمون في الهواء، تاركين الذهن والحكم خارج الحسبان، ولا يأتون بغير المؤمنين إلى الإيمان، بل يخلّفون انطباعاً بأنهم مرضى عقلياً. فإذا وُجد في الكنيسة من له هذه الموهبة، كان عليه أن يستخدمها ضمن حدود وقيود، ويُفضّل أن يُشفع ذلك بالترجمة أو التفسير. فإذ لم يوجد مترجم، فليصمت في الكنيسة! وعلى نقيض ذلك، فإن الذين يتنبأون، أي الذين يذيعون كلمة الله بإعلان الروح القدس، إنما يكلمون الناس ببنيان وتشجيع وتعزية. إنهم يبنون الكنيسة ويربحون غير المؤمنين. فبصرف النظر إذاً عن نوع الموهبة التي يكون الشخص قد نالها، فإن معيار أصالتها هو في الاعتراف بيسوع رباً، وهدفها هو بنيان الكنيسة. وإلهنا ليس إله تشويش بل إله سلام.

هذه المعالجة الجميلة لموضوع المواهب الروحية لم تُؤْتِ ثمارَها لكنيسة كورنثوس وحدها، بل تبقى ذات شأنٍ بالنسبة إلى الكنيسة عموماً على مرّ العصور. لأنه دائماً وأبداً يقوم أشخاص وجماعاتٌ ممن يعلّقون أهمية زائدة على الظواهر غير المألوفة والإعلانات والعجائب تفوق ما يعلقونه على عمل الروح في الولادة الجديدة والاهتداء وتجديد الحياة. فما هو فائقٌ الطبيعة يجذب الانتباه دائماً، أما العادي والطبيعي فلا يكاد أحد يلاحظه. والناس يولعون بالرؤى والإعلانات والظواهر وانخطافات النفس والغلوّ الزائف، فيما يُغمضون أعينَهم دون تقدّم ملكوت الله. أما بولس

[1]- رو 8: 23؛ 2 كو 1: 22؛ 5: 5؛ أف 1: 14؛ 4: 30.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فكان ذا فكرٍ مغاير. فمع تقديره الكثير لمواهب الروح الفائقة، يناشد الإخوة في كورنثوس أن: لا تكونوا أولاداً في أذهانكم، بل كونـــوا أولاداً في الشرّ، وأما في الأذهان فكونوا كاملين (1كو 14: 20).

وهكذا ينقل الرسول مركز الثقل من إعلانات الروح الوقتية والعارضة إلى العمل العادي والثابت الذي ينجزه الروح في الكنيسة دائمـــاً على الصعيدين الديني والأدبي. ومثل هذه الفكرة عن عمل الروح كان قد سبق الإعداد لها في أيام العهد القديم. فآنذاك أيضاً كـــان يُنســـب إلى الروح القدس كلُّ نوعٍ من المواهب والقوات المعجزية، ولكن إذ أتيح للأنبياء وناظمي المزامير أن ينظروا عن كثب في ارتداد بـــني إســـرائيل وفي خبث القلب البشري وخداعه، أعلنوا بأكثر وضوح وقوة أنه لن يصير الشعب شعباً لله بالمعنى الصحيح إلا بتجديد يُجريه فيهم الـــروح القـــدس. فالكوشي لا يقدر أن يغير جلده، ولا النمر رُقطه. هكذا لا يقدر الذين تعودوا الشر أن يصنعوا خيراً (إر 13: 23). فيجب أن يغـــير الله بروحـــه قلوب الناس كي يسلكوا في طرقه ويحفظوا وصاياه وأحكامه. إذ إن روح الرب وحده هو من يهب الحياة الحقيقية روحياً وأدبياً.[1]

وكرازة المسيح في إنجيل يوحنا تؤيد هذا كله. ففي حديث المسيح مع نيقوديموس يوضح أنه لا سبيل إلى ملكوت الله، ولا الإسهام فيـــه، إلا بالولادة الجديدة التي تحدث فقط بالروح القدس (يو 3: 3 – 5). وفي خطابه الوداعي (يو 14 – 16) يعرض بالتفصيل فكرة كون الـــروح الذي سيرسله من عند الآب بعد تمجيده مزمعاً أن يحلّ محله بين التلاميذ. لذلك كان خيراً لهم أن ينطلق عنهم، وإلا فما كان المعزي ليأتيهم. ولكن عندما يذهب هو نفسُه إلى الآب، عندئذ يقدر أن يرسل الروح إليهم، وقد أرسله فعلاً. ذلك لأن صعود المسيح إلى الآب سيكون هو البيّنة علـــى أنه قد أتمّ على أكمل وجهٍ العمل الذي كان ينبغي أن يُنجزه على الأرض. وعندئذٍ يستطيع أن يجلس في مكانه عن يمين الآب، وله أن يقوم بعملـــه كرئيس كهنة وشفيع لأجل الكنيسة على الأرض، طالباً من الآب كل ما تحتاج إليه الكنيسة. بعبارة أخرى، يستطيع عندئذٍ أن يطلـــب مـــن الآب ويرسل الروح القدس بكل ملئه إلى تلاميذه. إذ ذاك يحتلّ هذا الروح مكانه في ما بينهم، ومن بعد يكون الروح هو معزّيهم ومرشدهم، وشـــفيعهم ونصيرهم.

ولن يتكبد التلاميذ في ذلك أية خسارة. ذلك أنه لما كان المسيح شخصياً على الأرض، كان يدخل ويخرج مع تلاميذه حقاً، ولكن كـــان بينهم تنافرٌ وسوءُ فهمٍ غير أن الروح الذي سيأتيهم ما كان ليظل واقفاً خارجهم أو إلى جانبهم، بل يمكث معهم ويكون فيهم. وقد كانـــت إقامـــة المسيح على الأرض إلى حين، أما الروح الذي سوف يرسله فما كان ليتركهم، بل يمكث معهم إلى الأبد. في الواقع أن المسيح نفسه سيأتي إلـــيهم ثانيةً في ذلك الروح. إنه لا يتركهم يتامى، بل يعود إليهم، ويضم نفسَه إليهم في الروح بطريقة كانت متعذرة من قبل. عندئذٍ يرونه مـــن جديـــد، ويحيون كما هو حيّ، ويعترفون أن المسيح في الآب، وأنهم هم فيه وأنه هو فيهم. وفي المسيح يأتي الآب إليهم. وبالروح يأتي كلاهمـــا. إذ إن الآب والابن معاً يأتيان إلى التلاميذ ويصنعان لنفسهما منـــزلاً فيهم بالروح. ذلك هو إذاً ما يُنجزه الروح القدس في المقـــام الأول: شـــركةٌ بـــين الآب والابن من جهة، وبين التلاميذ من جهةٍ أخرى – شركةٌ لم يوجَد مثلُها من قبل.

وعندما يسهم التلاميذ في هذه الشركة ويحيون بها، عندما يثبّتون في المسيح كالغصن في الكرمة، حينما يصيرون أحباء لا عبيداً في ما بعد، فعندئذٍ، الروح عينُه الذي جعلهم يشتركون في هذه الشركة سوف يرشدهم في المستقبل إلى جميع الحق باعتباره هو روحَ الحق. لن يقتصـــر علـــى تذكيرهم بما قاله لهم المسيح وعلَّمهم إياه شخصياً، بل سيشهد لهم دائماً عن المسيح. سيقول ما سمعه من المسيح وما قبله منه، بل يخبرهم بأمورٍ آتية أيضاً. ولن تقتصر شركة التلاميذ مع المسيح والآب فقط، بل سيُدركون أيضاً أن لهم هذه الشركة. فلسوف يُنوّر الروح القدس بصـــائرهم في مـــا يتعلق بالمسيح، وبكونه واحداً مع الآب، وبعلاقتهم بالآب والابن معاً. أما القصد النهائي فهو أن يكون جميع المؤمنين واحداً – على حدّ مـــا قالـــه المسيح بالحرف الواحد – "كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرســـلتني" (يـــو 17: 21 ومـــا يلي).

[1]- مز 51: 12، 13؛ إش 32: 15؛ حز 36: 27.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لما انسكب الروح القدس يوم الخمسين، كان من الطبيعي في تلك الفترة الأولى أن تجذب الانتباه تلك الظواهر الخارقة والتي بها تبدّى سكب الروح هكذا بكلٍّ غنى. ولكن لا يجوز لنا لذلك السبب أن نغضّ الطرف عن الحقيقة الأخرى، والأهمِّ بكثير جداً في الواقع، ألا وهي أن التلاميذ، بعطيّة الروح القدس، اتحدوا – بأوثق طريقة – في كنيسةٍ واحدةٍ مستقلة مقدسة. فقد كان المسيح هو الرب والمخلِّص لتلك الكنيسة، وجميع المؤمنين واظبوا بثباتٍ وتعاونٍ على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات (أع **2**: **42**). وهكذا تحققت، ولفترة في الكنيسة بأورشليم، الوحدة التي سبق أن تكلّم المسيح عنها. ولما حلّ في ما بعد محلّ حماسة المحبة الأولى موقفٌ قلبيٌّ وعقليٌّ أكثر اتصافاً بالهدوء، ولما تكاثرت الكنائس في أماكن أخرى وبين شعوب أخرى، ثم لما حدث لاحقاً قرن الانشقاق والانقسام من كل صنفٍ في الكنيسة المسيحية، اتخذت الوحدة التي تربط جميع المؤمنين صورةً مختلفةً وصارت أقلَّ حيوية وعمقاً، بل باتت في بعض الأحيان ضعيفةً جداً أو أوهى من أن تُلاحَظ. ولكن علينا ألا ننسى، في خضمّ جميع الفروقات والخلافات، أن وحدة الكنيسة في الجوهر ما تزال قائمةً حتى اليوم. ولسوف تصير في المستقبل ظاهرةً على نحوٍ أمجد مما كانت عليه في أورشليم خلال تلك الفترة القصيرة.

والرسول بولس، بين جميع الرسل، هو أكثر من يرفع أمام أبصارنا موضوع وحدة الكنيسة، وهو الذي يتمسك بهذه الوحدة شخصياً رغم كل انشقاقٍ كان له شاهد عيان حتى في تلك الأيام الأولى. فالكنيسة جسدٌ واحدٌ كلُّ عضو فيه يحتاج إلى الآخر، وينبغي لأعضائه أن يخدموا بعضهم بعضاً (رو **12**: **4**؛ **1** كو **12**: **12** وما يلي). هذه هي حقيقة، لأن الكنيسة هي جسد المسيح.[1] فإن جذور وحدة الكنيسة ضاربةٌ في تربة الشركة مع المسيح وطالعةٌ منها. والمسيح هو رأس كلِّ مؤمن، وكلِّ كنيسة محلية، كما أنه رأس الكنيسة العامة. وجميع المؤمنين هم خليقة جديدة خلقها الله في المسيح لأعمالٍ صالحة قد سبق الله فأعدها لكي يسلكوا فيها (**2**كو **5**: **17**؛ أف **2**: **10**). والمسيح يسكن فيهم، وهم يحيون ويتحركون ويوجَدون في المسيح: إذ المسيح حياتُهم.[2] وترد العبارة "في المسيح" (أو "في الرب" و"فيه") أكثر من مئة وخمسين مرةً في العهد الجديد. وهي تدلُّ على أن المسيح ليس هو مصدر الحياة الروحية فقط، بل إنه أيضاً يسكن هكذا في المؤمن بصورة دائمة ومباشرة. هذه الوحدة قريبةٌ قُربَ ما بين حجر الزاوية والبناء، أو الرجل والمرأة، أو الرأس والجسم، أو الكرمة والأغصان. والمؤمنون هم في المسيح كما أن جميع الأشياء هي في الله بفضل الخلق والعناية. إنهم يحيون فيه كما يحيا السمك في الماء، والطير في الهواء، والإنسان في مهنته، والعالِم في دراسته. وهم معه مصلوبون وأموات ومدفونون، ومُقامون أحياءً وجالسون عن يمين الله ومُمجَّدون.[3] وقد لبسوا المسيح وشابهوا صورته، ويُظهِرون في جسدهم آلام المسيح وحياته، وهم مملوؤون (مكمّلون) فيه. وبعبارة أخرى، إن المسيح هو الكلُّ في الكل.[4] بالنسبة لهم.

وقد صارت هذه العلاقة الوثيقة ممكنة بفضل حقيقة كون المسيح، بالروح القدس، يشارك المؤمن في نفسه. فلأن المسيح بآلامه وموته أحرز الروح وكلَّ مواهبه وقواته على أكمل وجه بحيث يمكن أن يُدعى – المسيح نفسه – "الروح" (**2**كو **3**: **17**)، فلذلك أيضاً اكتسب الحق بأن يُعطي الروح لمن يشاء. وهكذا صار روح الله هو روح المسيح، روح الابن، روح الرب.[5] فقبول المرء ذلك الروح يعني قبوله المسيح، لأن من ليس له روح المسيح لا ينتمي إلى المسيح وليس من خاصته (رو **8**: **9** – **10**). وكما أعطى الله المسيحَ للعالم، كذلك يُعطي المسيحُ نفسَه للكنيسة بالروح. والمؤمنون هم روحٌ واحد في المسيح (**1**كو **6**: **17**). وهم هياكل الروح القدس الذي به يسكن الله فيهم (**1**كو **3**: **16** و **17**؛ **6**: **19**). إنهم في الروح، وفيه يعترفون ويسلكون ويصلّون ويفرحون.[6] وهم روحيون، يفهمون ويحكمون في أمور الروح (رو **8**: **2**؛ **1**كو **2**: **14**). كما أنهم ينقادون بروح الله دائماً، وفي رفقته إلى يوم الفداء.[7] ولهم جميعاً بذلك الروح قدومٌ إلى الآب وهم مبنيّون معاً على أساس الرسل والأنبياء مسكناً لله بالروح (أف **2**: **18**، **22**).

---

[1]- رو 12: 5؛ أف 1: 23؛ كو 1: 24.
[2]- رو 6: 11؛ 8: 1، 10؛ 2كو 13: 5؛ غل 2: 20؛ في 1: 21؛ كو 3: 4.
[3]- رو 6: 4 وما يلي؛ غل 2: 20؛ 6: 14؛ أف 2: 6؛ كو 2: 12، 20؛ 3: 3.
[4]- رو 13: 14؛ 2كو 4: 11؛ غل 4: 19؛ كو 1: 24؛ 2: 10؛ 3: 11.
[5]- رو 8: 9؛ 1كو 2: 16؛ 2كو 3: 18؛ غل 4: 6؛ في 1: 19.
[6]- رو 8: 4، 9، 15؛ 14: 17؛ 1كو 12: 3.
[7]- رو 8: 15، 16؛ 2كو 1: 22؛ أف 1: 13؛ 4: 30.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بمثل هذه العبارات تتحدث الكلمة المقدسة عن تلك الوحدة العجيبة الكائنة بين المسيح والكنيسة، وقد بات يُشار إليها فيما بعد بتعبير "الاتحاد السري". ونحن بالحقيقة لا نستطيع أن نفهم هذه الوحدة في عمقها وأُلفتها الوثيقة. فهي تسمو جداً عن أفكارنا. ومن الواجب حتماً أن نميز، من حيث الطبيعة والنوع، بين هذه الوحدة الكائنة في ما بين أقانيم اللاهوت الثلاثة، لأن جميع هذه الأقانيم تتشارك في الكينونة الإلهية الواحدة بعينها، وأنه من الجوهري تماماً، أن يبقي المسيح والمؤمنون، كل متميزاً عن الآخر. حقاً إن وحدة المسيح والكنيسة تُقارن أكثر من مرة بالوحدة الكائنة بين المسيح والآب.[1] ولكن المسيح في تلك الأوقات لا يتحدث عن نفسه من حيث كونُه ابن الله الوحيد، بل باعتباره الوسيط الذي سيُرفَّع إلى يمين الله والذي بواسطته سيُتِمُّ الآب مسرّته. فكما أن الآب اختار خاصته في المسيح قبل تأسيس العالم (أف 1: 4) نجد نعمته التي فيها جعلهم مقبولين عنده في المحبوب (أف 1: 6، 7؛ أع 20: 28)، هكذا أيضاً يجمعهم في المسيح كياناً واحداً (أف 1: 10). فالآب حال في المسيح باعتباره الوسيط، وبذلك يُقدِّم ذاته وبركاته إلى الكنيسة.

وبمثلما العلاقة بين الآب والوسيط وثيقةٌ وغير منفصمة، كذلك أيضاً هي العلاقة بين المسيح والمؤمنين به. ففي قوتها الداخلية تفوقُ كلَّ اتحاد يمكن أن يتواجد بين الخلائق، بل أيضاً تلك العلاقة بين الله والعالم الذي تراه. فإذ تتميز هذه الوحدة، من جهة، عن التمازج الذي يقول به معتقدو وحدة الوجود، فهي من الجهة الأخرى تفوقُ جداً التجاوُرَ الذي يقول به معتقدو الربوبية (التأليه الطبيعي)، كما تسمو على كل علاقة تعاقدية. ويعلّمنا الكتاب المقدس بعض ما يتعلق بطبيعتها إذ يشبّهها بالعلاقة بين الكرمة والأغصان، ورأس الجسم وأعضائه، والرجل وزوجته. إنها علاقةٌ توحّد كلياً وأبدياً بين المسيح كاملاً وكنيسته بجميع أفرادها في عمق كيانهم وجوهر شخصيتهم. علاقةٌ بدأت في الأزل إذ أعلن ابن الله استعداده للوساطة، ثم كان لها وجودُها الموضوعي في تمام الزمان إذ اتّخذ المسيح الطبيعة البشرية فدخل في شركةٍ مع شعبه وأسلم نفسه للموت لأجل خاصته. وتتحقق هذه الوحدة بالفعل شخصياً في كلِّ مؤمنٍ بمفرده حينما يأتي الروح القدس إلى داخله ويدمجه في جسد المسيح، وعندما يعترف هو بدوره بهذه الوحدة مع المسيح ويمارسها.

وتصطحبُ الشركةُ مع المسيح المشاركة في جميع بركاته وخيراته. فلا مشاركة لنا في خيرات المسيح ما لم نشترك في شخصه، لأن خيراته لا تنفصل عن شخصه. ولو كانت الخيرات التي يهبُها المسيح عطايا مادية، لكان ذلك معقولاً إلى حدٍّ ما. فقد يُعطينا أحدهم ماله وأملاكه دون أن يعطينا نفسه. غير أن الخيرات التي يهبها المسيح هي روحية بنوعها. فقوامُها، قبل كل شيء، نعمته ورحمته ومحبته، وهذه عطايا شخصيةٌ تماماً في نوعها، ولا تُفصل عن شخص المسيح. وكنز النِّعم لا يوجد في أي مكانٍ على الأرض – لا في يد بابا أو كاهنٍ مثلاً، ولا في كنيسةٍ أو "سرٍّ مقدس". فهو لا يوجد إلا في شخص المسيح إنه هو ذلك الكنز. ففيه يلتفت الله إلينا بوجهه الكريم المُحِب، وفي ذلك خلاصُنا كاملاً.

وعلى عكس ذلك، فلا شركة مع شخص المسيح دون مشاركة في كنوزه وخيراته. والعلاقة بين الآب والمسيح، في هذا المجال أيضاً، هي الأساس والمثال للعلاقة بين المسيح والكنيسة. فالآب أعطى نفسه للابن، وبالتحديد أيضاً للابن بوصفه الوسيط بين الله والناس. ولم يحتفظ الآب لنفسه بشيء، بل أعطى الابن كل شيء. فكلُّ شيء قد دُفع إليه من لدن الآب (مت 11: 27؛ يو 3: 35). وكلُّ ما للآب فهو له (يو 16: 15؛ 17: 10). والآب والمسيح واحد؛ فالآب فيه وهو في الآب (يو 10: 38؛ 17: 21 – 23). وهكذا المسيح بدوره يُعطي نفسه وكل بركاته للكنيسة بالروح القدس (يو 16: 13 – 15). وهو لا يُبقي لنفسه شيئاً. وكم أن ملء اللاهوت يحلُّ جسدياً (كو 1: 19؛ 2: 9)، فكذلك هو أيضاً يكمِّل الكنيسة لتبلغ قياس قامة ملئه، حتى تُملأ إلى كلِّ ملء الله.[2] فالمسيح هو الكلُّ في الكلِّ (كو 3: 11).

إنه ملءٌ ننالُه في المسيح، ملءٌ إلهي، ملء نعمةٍ وحق، ملءٌ لا ينفد البتة يهب نعمةً فوق نعمة (يو 1: 14، 16). هذا الملء يحلُّ في المسيح نفسه، في شخصه، في طبيعته الإلهية وفي طبيعته الإنسانية، خلال حالة اتضاعه وحالة ارتفاعه. إن في تجسده ملء نعمة: فإنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح، إنه من أجلكم افتقر، وهو الغني، لكي تغتنوا أنتم بفقره (2كو 8: 9). وفي حياته وموته ملءُ نعمة: لأنه في أيام جسده تعلّم الطاعة مما تألم به، وإذ كُمِّل صار لجميع الذين يطيعونه مصدر خلاصٍ أبدي (عب 5: 7 – 9). وفي قيامته ملءُ نعمة: لأنه بالقيامة تبرهن أنه ابن الله بقوة،

[1]- يو 10: 38؛ 14: 11، 20؛ 17: 21 – 23.
[2]- أف 1: 23؛ 3: 19؛ 4: 13، 16.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وقد ولدنا ثانيةً لرجاء حي (رو 1: 4؛ 1بط 1: 3). وفي صعوده ملأ نعمة: إذ بها سبي سبياً وأعطي الناس عطايا (أف 4: 8). وفي شفاعته ملأ نعمة: لأنه يقدر أن يخلِّص إلى التمام جميع الذين يتقدمون بواسطته إلى الله (عب 7: 25). إن فيه ملء نعمةٍ الغفران والولادة الجديدة والعزاء والحفظ والقيادة والتقديس والتمجيد. يا له من نهر نعمة في طوله وعرضه وعمقه، يحمل المؤمنين من البداية إلى النهاية، حتى الأبدية! إنه ملءٌ يعطي نعمةً فوق نعمةٍ، ونعمةً بدل نعمةٍ، مدعماً كل نعمةٍ بنعمةٍ أخرى في الحال، مبدِّلاً هذه بتلك على نحوٍ متواصل. فلا انقطاع في نهر النعمة ولا توقُّف. وكلُّ ما يأتي الكنيسة في المسيح إنما هو النعمة، كل النعمة، ولا شيءَ غير النعمة.

يحسن بنا إذاً أن نُجمِل جميع الخيرات التي يهبها المسيح، في الشركة معه، تحت لفظةٍ واحدة هي "النعمة". هذا الاسم الواحد يشتمل على ملء بركاتٍ غنية لا يُمكن سبر غورها. وقد سبق لنا أن ذكرنا، في الجزء الثالث من السلسلة، المصالحة التي أتمّها المسيح مع الآب بقربان نفسه الوافي. ففي المسيح، وضع الله غضبه جانباً ووقف موقف نعمة تجاه العالم (2كو 5: 19). والشخص الذي يقبل هذه المصالحة بإيمان قلبيّ، تفيض عليه جملة بركات، هي في الواقع الخلاص بالذات. وتذكر الكلمة المقدسة كثيراً من هذه البركات: الدعوة، التجديد، الإيمان، التبرير، غفران الخطايا، التبنّي، التحرر من الناموس، حرية الروح، الرجاء، المحبة، السلام، الفرح، الابتهاج، التعزية، التقديس، الحفظ، الثبات، التمجيد، وغيرها. حتى إن سردها الإجمالي متعذِّر، لأنها تشتمل على كلّ ما صدر من ملء المسيح، وسوف يصدر، للكنيسة ككُلّ ولكلّ مؤمن بمفرده، على مر جميع العصور وفي جميع الأحوال، في السرّاء والضرّاء، في الحياة والممات، في ما قبل القبر ما وراءه ومدى الأبدية.

ولما كانت هذه البركات كثيرة جداً وغنية، فمن المستحيل أن نفيها حقَّها من التأمل والشرح. ويصعب جداً أن نجري لها مسحاً شاملاً. وهنالك أيضاً مجازفة في معالجة هذه البركات بترتيب تسلسلي وفي تصنيف كلٍّ واحدةٍ منها في مكانها من سياقها جميعاً. وتبعاً لهذا، يختلف التصنيف كثيراً بين لاهوتيّ وآخر. إلا أننا نستطيع عموماً أن نحدِّد ثلاث مجموعات رئيسية من البركات أو الخيرات. فأولاً، هنالك مجموعة الخيرات التي تُعِدُّ الإنسان لعهد النعمة وتُدخله فيه، وتُعطيه القدرة كي يقبل، من جانبه، بركات ذلك العهد ويمتلكها شخصياً. تلك هي بركات الدعوة والتجديد (بمعناه الحصري) والإيمان والتوبة. ثم، إن المجموعة الثانية تشتمل على تلك البركات التي تبدّل وضع الإنسان في نظر الله، وتحرِّره من الخطية، وتجدِّد ذهنه بالتالي. هذه البركات هي – على الخصوص – التبرير، مغفرة الخطايا، التبني، شهادة الروح القدس مع أرواحنا، التحرر من الناموس، حرية الروح، السلام، الفرح. وثانياً، لدينا مجموعة ثالثة من الخيرات، وهي تُحدِث تغييراً في حال الإنسان، وتفتديه من وصمة الخطيَّة، وتجدِّده حسب صورة الله. إلى هذه المجموعة ينتمي التجديد (بالمعنى الواسع)، والموت مع المسيح والقيامة معه، والاهتداء المستمر، والسلوك في الروح، والحفظ والثبات حتى النهاية. جميع البركات تكمل وتكتمل في المجد السماوي والخلاص الأبدي الذي أعدّه الله لخاصته. وسنخصص لهذا الموضوع فصلاً مستقلاً في نهاية هذه الأبحاث المتعلِّقة بالإيمان المسيحي.

وقبل ما نبدي لكل واحدة اهتماماً خاصاً من هذه المجموعات، ينبغي لنا أن نُلاحظ أن هذه الخيرات جميعاً، مثلها مثل شخص المسيح بالذات، لا يمكن أن تُمنح إلا بالروح القدس وحده. وقد لاحظنا فيما سبق أن الآب هو في المسيح، وأنه في المسيح لا غير يلتفت إلينا بوجهه الكريم، وأنه فيه فقط يأتي الآب إلينا ويصنع له منزلاً عندنا. إنما المسيحُ هو كذلك أيضاً في الروح القدس، وهو لا يأتي إلينا إلا بالروح القدس فقط، ويريد أن يأتي إلينا فعلاً. وتُضفى على الروح صفة "القُدُس" بالتحديد لأن له بالآب والابن علاقةً خاصةً، وهو يجعل لنا – تبعاً لذلك – علاقةً خاصةً بالآب والابن كليهما. لذا ينبغي لنا ألا نفترض أننا نستطيع أن نحصل على الشركة مع الآب ومع المسيح بأية طريقة أخرى، مهما كانت، ما خلا الحصول عليها بالروح القدس فقط. فليتجنّب الإثم كلُّ من يُسمِّي اسم المسيح (2تي 2: 19).

فبحسب كلمة الله المقدسة أن الروح القدس هو العامل والمنفِّذ في التجديد والإيمان (يو 3: 5؛ 1كو 12: 4). فهو يبرّرنا ويؤتينا أن ندرك ذلك، ويشهد لحقيقة تبنّي الله إيانا أولاداً له.[1] وهو يسكب محبة الله في قلوبنا، ويعطينا سلاماً وفرحاً، ويحررنا من الناموس، ومن الجسد، ومن الخطية والموت.[2] وهو المعزي والنصير الذي يحمل قضيتنا، ويحمينا ويسندنا، الذي لا يتركنا كما تركنا المسيح بحسب الجسد، بل يبقى معنا

[1]- رو 8: 15؛ 1كو 6: 11؛ غل 4: 6.
[2]- رو 5: 5؛ 8: 2؛ 14: 17.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

دائماً معزياً ومصلّياً فينا.[1] وهو ليس باعث الحياة الروحية فحسب، بل أيضاً حافظُها ومرشدها في كل حين: إنه ناموسُها وقانونها (رو 8: 2، 14؛ غل 5: 18). إنه يجدّد تلك الحياة ويقدّسها، ويجعلها تُثمر وتكون مرضيةً عند الله.[2] وحياة المسيحي بجملتها سلوكٌ في الروح (رو 8: 4 وما يلي؛ غل 5: 16، 25). والروح هو الذي يجمع المؤمنين كلَّهم في جسدٍ واحد، ويبنيهم هيكلاً واحداً، مسكناً لله (أف 2: 18 – 22؛ 4: 3، 4). وهو ضامن الميراث السماوي،[3] ومن سيُجري ذات يومٍ قيامة المؤمنين وتمجيدهم (رو 8: 11؛ 1كو 15: 44).

وبعبارة أخرى، إن المسيح وجميع خيراته، ومحبة الآب ونعمة الابن، لا تصير من نصيبنا إلا في شركة الروح القدس لا سواه.

[1]- يو 14: 16؛ أع 9: 31؛ رو 8: 26.
[2]- رو 15: 13، 16؛ غل 5: 23؛ 2تس 2: 13؛ تي 3: 5؛ 1بط 1: 2.
[3]- 2كو 1: 22؛ 5: 5؛ أف 1: 13؛ 4: 30.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الثاني

الدعوة المسيحية

لكي يشملنا المسيح إلى شركة شخصه وبركاته، فإنه يجعلنا شركاء ليس فقط في الروح القدس الذي سكبه على الكنيسة وأسكنه فيها، بل أيضاً في الكلمة التي أعطاها إياها لتعليمها وإرشادها. وقد أقام المسيح بين الاثنين ارتباطاً من شأنه أن يجعلهما كليهما معاً نافعين في مجال ممارسته لوظائفه النبوية والكهنوتية والملكية. ولكن الحصول على فكرة صحيحة عن هذه العلاقة، أو تعريفها بوضوحٍ، ليست مهمةً سهلة. ولقد كانت على الدوام آراء مختلفة حول العلاقة بين الكلمة والروح، ولا تزال حتى الزمان الحاضر مزاعم مختلفة تسير جنباً إلى جنب.

فهناك، من جهة، أولئك الذين يعتبرون الكرازة بالكلمة كافيةً في حدِّ ذاتها ولا يُنصفون عمل الروح القدس. أولئك هم أتباع بيلاجيوس الذين تمسكوا بهذه البدعة قديماً وحديثاً. إنهم ينظرون إلى المسيحية باعتبارها مجرد عقيدة، ولا يرون في المسيح إلا مثالاً أعلى، ويتخذون الإنجيل كأنه ناموس جديدٌ ليس إلا. ويعتقدون أن الخطية قد أضعفت الإنسان فعلاً، إلا أنه ليس بميتٍ روحياً. فعندهم أنه ما يزال محتفظاً بحرية الإرادة، وأن الكرازة بالإنجيل وافية بالغرض، في حدّ ذاتها، ما دام الإنسان راغباً فيها، لتأتي به إلى حيث يقتدي بمثال المسيح في العمل والسلوك. ولا يشعرون بأنه من الضروري أن يكون للروح القدس أيُّ تأثيرٍ لإحياء الإنسان. ومن ثم ينكرون شخصية الروح القدس ولاهوته ويهاجمونهما. وهم يرون أن الروح القدس، في أفضل الحالات، هو قوةٌ تنطلق من الله، أو بأكثر تحديدٍ من شخص المسيح، وتُنشئ نوعاً من النزعة الأخلاقية والقصد المثالي في الكنيسة.

وهنالك، من جهة أخرى، من يتبنون فكراً آخر مختلفاً جداً. وهم يُدعَون غيورون ولا مناقضون ومتعصبون، وهم يتحدثون كثيراً عن الروح، ويقلِّلون من أهمية دور الكلمة في التجديد. هؤلاء يرون أن كلمة الله المقدسة أو الكرازة بالإنجيل ليست هي الحقيقة الروحية في ذاتها، بل مجرد رمزٍ لها أو إشارة دالة عليها. فالكلمة في حدّ ذاتها ليست إلا حرفاً ميتاً لا يستطيع اختراق قلب الإنسان وغرس مبدأ الحياة الجديدة فيه. ولا يمكن، في أفضل الحالات، أن يكون للكلمة إلا تأثير فتح الذهن. لكنها لا تُعطي قوة أو قدرة تستطيع أن تغير القلب وتجدِّده. فذلك لا يمكن أن يحدث، وهو لا يحدث فعلاً، إلا بالروح القدس الذي يتغلغل مباشرةً ورأساً من الله إلى الكيان الداخلي للإنسان ويجعله يتمتع بالحقيقة التي ليست الكلمة إلا مجرد رمز لها. وعليه، فالإنسان الروحي يولد من الله مباشرةً ويتعلم منه رأساً. هذا وحده يفهم المكتوب، وينفذ من وراء الحرف إلى لبّ الكلمة وجوهرها. وبينما يستفيد هذا الإنسان الروحي من الكلمة حيناً كشعارٍ ومبدأٍ هادٍ، لا تكون هي مصدر معرفته الدينية، لأنه يتعلم ذاتياً من روح الله وينمو تدريجياً فيتجاوز المكتوب. وإذ يُعتِق الروح قلب الإنسان أكثر فأكثر من سلطان الكلمة، يتقدم قلب الإنسان كذلك ليصير أكثر استقلالاً عن شخص المسيح وعن المسيحية التاريخية بمجملها. ففي الطور الأكثر تقدماً إذاً، تتحول الصوفية فتصير عقلانية. ذلك أنه عندما ينفصل عمل الروح الداخلي عن الكلمة المقدسة، عندئذٍ يفقد صفته الخاصة ولا يعود يمكن تمييزه عن عمل روح الله عموماً في عقل الإنسان وضميره. والله، بالطبيعة، يسكن بروحه في كل إنسانٍ، وفقاً لهذا المذهب، كما أن الإنسان منذ ولادته له الكلمة الداخلية مكتوبة على قلبه. ولم يُدخل المسيح على هذا الواقع إلا تعديلاً طفيفاً. فإن شيئاً ما هو حقٌ لا لأنه مكتوب في الكتاب المقدس بل لأنه حقٌ في ذاته. والمسيحية هي الدين الطبيعي الأصلي. إنها قديمةٌ قِدَم العالم، وهي تكمن بجوهرها في أساس جميع الديانات التاريخية. وهكذا تتحول الصوفية، دائماً ومرةً بعد مرة، إلى عقلانية، ثم ترتدُّ العقلانية فتعود صوفيةً دورياً.

وقد حاولت الكنيسة المسيحية دائماً أن تتجنب مثل هذه البدع، محافظةً على العلاقة المتبادلة بين كلمة الله وروحه. لكن الكنيسة في عملها هذا اتّبعت، مع ذلك، في إقرارات الإيمان المتعددة لديها، سبلاً شتى. فالكنيسة الكاثوليكية مثلاً لا ترى في الكلمة المقدسة وفي التقليد الكنسي واسطة نعمة فاعلة بل مجرد مصدر للحق. والإدراك العقلي لهذا الحق يُدعى إيماناً. ولكن لأن هذا الإيمان لا يعدو كونه تصديقاً، فهو غير كافٍ للخلاص، وليس له بالتالي إلا دورٌ تمهيدي لبلوغ هذه الغاية. أما النعمة المخلِّصة الحقيقية فهي تُمنح أول مرة في القربان المقدس، وهكذا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تعترف الكنيسة في روما بعمل الروح القدس، قبل كل شيء، في تأسيس الكنيسة واستمرارها، بوظائفها المتعلقة بالتعليم والرعاية وخدمة المذبح؛ ثم تُمنح هذه النعمة تالياً في ما يناله المؤمنون، بواسطة الأسرار المقدسة، من نِعمٍ وفضائل وهبات.

في مواجهة هذه المحاولة لفصل عمل الروح الخلاصي عن كلمة الله ووصله بالقربان المقدس فقط، وقف الإصلاح بكل ثبات وعناد. فلم يكتف بأن ردّ الاعتبار للكلمة المقدس بوصفها مصدر الحق الوحيد والواضح والوافي، ومحك التقليد، بل قدرتها أيضاً باعتبارها واسطة نعمة وأعاد إليها مرتبتها المتفوقة على الأسرار المقدسة. ووفقاً لذلك رأى الإصلاح أنه مضطرٌّ إلى إنعام النظر في العلاقة بين الكلمة والروح. وقد اضطُر إلى ذلك بالأحرى لأن البدع القديمة انتعشت ووجدت لها أنصاراً يدافعون عنها بقوة. فبينما انكفأ السوسيانيون إلى تعاليم آريوس وبيلاجيوس، فاعتبروا الإنجيل ناموساً جديداً واستبعدوا أية حاجةٍ إلى عملٍ خاصٍّ من الروح القدس، سلك الأنابابتيون (معيدو العِماد) من جديد سبيل الصوفية، فعظَّموا شأن الكلمة الباطنة وتحدثوا عن الكتاب المقدس باعتباره حرفاً ميتاً ورمزاً خاوياً.

وقد اقتضى الأمر بذل جهد وفير للعودة إلى سواء السبيل. وسلكت الكنيستان اللوثرية والمصلحة سبلاً مختلفة. فقد وحّد اللوثريون بين الكلمة والروح معاً إلى حد المجازفة بجعلهما واحداً وفقدان التمييز بينهما. بل إنهم بلغوا حدّ حصر نعمة الروح المخلِّصة في الكلمة والسماح بأنه يدخل الإنسان من خلال الكلمة. ولما كانت الكلمة المقدسة قد برزت إلى الوجود بفعل الروح القدس، فإن ذلك الروح قد جعل قوته المجدِّدة مستقرةً في الكلمة، وداعاً إياها هناك – إذا صح التعبير – كما في إناء. وكما أن للخبز قوةً غذائيةً طبيعية داخلية، فكهذا الكلمة المقدسة استلمت من الروح الذي أوجدها قوةً روحية لخلاص الإنسان كامنةً فيه. فينبغي إذاً أن نسلِّم بأن الكلمة المقدسة ليس لها فقط قدرةٌ على تنوير الذهن والتأثير أدبياً في الإرادة، بل إن لها أيضاً بفضل فاعلية الروح القدس الكامنة فيها، قدرةً داخلية مخلِّصة ومجددة للقلب. حتى إن الروح القدس لا يعمل البتة بأية طريقة سوى عمله من خلال الكلمة.

أما الكنائس المُصلحة فلم تتقبل هذا الرأي على علاّته، لأن مبدأها في هذه المسألة أيضاً كان يقضي بأن المحدود لا يمكن أن يستوعب اللامحدود ويدركه. وبالتالي، فإن الكلمة والروح لهما أن يكونا على علاقةٍ وثيقة جداً، لكنهما أيضاً يظلاّن متمايزين. فالروح يستطيع أن يعمل بدون الكلمة، وهو يعمل أحياناً. وعندما يقترن الروح بالكلمة، فإنه يفعل ذلك بسبب اختياره الحرّ. فبحسب مسرته الصالحة فعلاً يعمل في العادة بارتباط مع الكلمة، وحيث تكون الكلمة حاضرة ويُكرز بها، أي في فَلَك عهد النعمة، في شركة الكنيسة. إلا أنه، حتى في هذه الحالة، لا يكون – كما ارتأى اللوثريون – مقيماً في الكلمة المقدسة أو الكلمة المكروز بها، بل في الكنيسة باعتبارها جسد المسيح الحي. ولا يعمل الروح أيضاً من خلال الكلمة كما لو كانت مركبة قوته. لكنه إذ يقرن عمله بعمل الكلمة، يتغلغل هو شخصياً إلى داخل قلب الإنسان ويجدِّده للحياة الأبدية.

إذا شئنا أن نفهم العلاقة بين الكلمة والروح فهماً صحيحاً، فعلينا الانطلاق من هذه الحقيقة: أن الله يستخدم الكلمة كواسطة، ليس فقط في تقديم المسيح وخيراته لنا، بل أيضاً في جميع أعمال الله في العالم. فالكلمة، في الكتاب المقدس، ليست صوتاً فارغاً ولا رمزاً بلا معنى، بل هي دائماً ذاتُ قوةٍ وحياة. إذ لها في ذاتها بعضٌ من شخصية المتكلم ونفسه، ولذلك فهي لا ترجع فارغةً البتة، بل تُحدث أثرها دائماً.

قال الله فكان، وهو أمر صار (مز **33**: **9**). وكلمته لا ترجع إليه فارغة بل تنجح في ما أُرسلت له (إش **55**: **11**). وبكلمته أوجد في البدء كل شيء من العدم (تك **1**: **3** وما يلي؛ قارن مز **33**: **6**)، وبكلمة قدرته يحمل كل شيء معاً (عب **1**: **3**). ولهذه الكلمة قدرة خلاّقة وضابطة لأن الله يتكلم في الابن (يو **1**: **3**؛ كو **1**: **15**؛ عب **1**: **2**) وبالروح القدس (مز **33**: **6**؛ **104**: **30**)، وهو تعالى في هذين معاً – إن صحّ التعبير – يُعطي ذاته لخلائقه. ففي جميع الخلائق صوتٌ من الله؛ وهي جميعاً تستقر على أقوال قد نطق الله بها. وكُلّها مدينة لكلمة الله فهم يقرون بفضلها في وجودهم وبقائهم.

غير أن هذه الآراء التي ضمّنها الله في العالم، لا تفهمها جميع خلائقه، بل قاصرة على الخلائق العاقلة، أي الإنسان فقط. وذلك لأن الإنسان مخلوق على صورة الله، فهو نفسه يستطيع أن يفكر ويتكلم، وأن يستوعب بإدراكه أفكار الله المودعة في خليقته، وأن يجعلها مِلكَه روحياً،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وأن يعبّر عنها من ثم بكلامه هو. ولما خرج الإنسان أولاً كاملاً من بين يدي خالقه، كان يقدر أن يفهم كلام الله الذي أتاه داخلياً في الناموس الأدبي المكتوب على لوح قلبه، والذي أتاه خارجياً في النهي الذي أُضيف إلى الناموس الأدبي. آنذاك وصل الله مع الإنسان إلى حيث لم يصل مع أي مخلوقٍ آخر. فقد دخل في عهدٍ معه، وأدخله في شركةٍ معه، وطلب منه أن يسلك في طرقه بوعيٍ واختيار. وقد كان الناموس الأدبي هو المضمون والإعلان، القاعدة والمبدأ، لعلاقة العهد الأصلية التي أسسها الله مع الإنسان المخلوق حديثاً.

ولكن الإنسان، بعصيانه بمحض إرادته كسر ذلك العهد، ففقد القوة الروحية لحفظ قانون الله وإحراز الحياة الأبدية بالتالي. غير أن الله، من جانبه، لم يترك الخليقة ولا تخلّى عن البشرية كلياً. ومع أنه يُمكن القول عن الأمم، أي الوثنيين، إن الله قد أسلمهم – بالمقارنة مع شعب العهد القديم – إلى طرقهم الخاصة، فإنه يستمر في إظهار ذاته لهم بقدرته ولاهوته، ولا يترك نفسه بدون شاهدٍ بينهم، ويحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم، لكي يطلبوا الرب لعلّهم يتلمّسونه فيجدوه.

فهناك إذاً كلامٌ من الله ما يزال ينطلق إلى كلِّ إنسان. وقد أقرّ أصحاب العقيدة المُصلحة بهذا الواقع، إذ تحدثوا عن "دعوة مادية" يمكن العثور عليها أيضاً خارج نطاق العالم المسيحي، وهي من امتياز جميع البشر والأمم. فالأمم لا يشاركون في الدعوة من خلال كلمة الإنجيل، إلا أن هذا لا يعني أنهم لا يتلقّون أية دعوة على الإطلاق. ذلك أن الله يكلّمهم أيضاً، في الطبيعة (رو 1: 20) والتاريخ (أع 17: 26) والعقل (يو 1: 9) وبالضمير (رو 2: 14، 15). حقاً أن هذه الدعوة غير كافية للخلاص، إذ لا عِلمَ فيها بالمسيح، وهو الطريق الوحيد إلى الآب والاسم الوحيد المُعطى تحت السماء للخلاص (يو 14: 6؛ أع 4: 12)، غير أنها مع ذلك ذات قيمة عظيمة ولا يمكن التقليل من شأنها.

ربما لا تكون هذه الدعوة التي يُصدرها الله لجميع البشر في نعمته الشاملة، رغم كل شيء إذاعةً للإنجيل، غير أنها بالتوكيد إعلانٌ للناموس. ومع أن الإنسان، بسبب كونه مظلم الفكر، يُخطئ غالباً في تصورها وتأويلها وتطبيقها، فإنها رغم ذلك تتضمن – مادياً وجوهرياً – الناموس الأدبي عينَه الذي أعطاه الله للإنسان أصلاً وكتبه على قلبه. وعليه، فإن تلك الدعوة، بصرف النظر عن مدى ما أصابها من فساد ومسخٍ، ما تزل مع كل هذا تُرسي المطلب القاضي بأن يحب الإنسان الله فوق كل شيء وأن يحب قريبه كنفسه. صحيحٌ أن الأمم (غير المؤمنين) لا يملكون الناموس بذلك الشكل الكامل الذي به أعطاه الله لبني إسرائيل فيما بعد، غير أنهم يعملون بأمور الناموس رغم ذلك. فإنهم، في جميع أفكارهم وأعمالهم، ينقادون بقوانين أخلاقية، وبذلك يبرهنون أن أمور الناموس هذه مكتوبة في قلوبهم وأنهم يشعرون بأنهم ملزَمون بها في ضمائرهم (رو 2: 14، 15).

وعليه، فإن الارتباط بين الله والإنسان لم ينقطع أبداً رغم الخطية. فالله لا يترك الإنسان لنفسه، والإنسان لا يمكنه أن يتخلى عن الله. بل إنه، عوضَ ذلك، يظلُّ داخل مجال إعلان الله وتحت قيود ناموسه تعالى. سيظل الله يتكلم إلى الإنسان، في الطبيعة والتاريخ، في العقل والضمير، في البركات والأحكام، في إرشادات الحياة واختبارات النفس. بوساطة هذا الكلام الغني والقوي، يُبقي الله في الإنسان وعيه بمسؤوليته. إنه يدعه يجاهد ليحيا حياةً دينية وخُلُقية، ويجعله يشعر باتهامه والحكم عليه من قِبَل ضميره بعد تعديه. وما يربط الإنسان بالله وإعلانه ليس إكراهاً من الخارج بل التزامٌ أدبيٌ من الداخل. إنه شهادةٌ من روح الله في الإنسان الساقط ما تزال تُسمع ذاتها بحثّه على الصلاح. فإن في الإنسان أيضاً عملاً لروح الله، بمقدار ما فيه صوتٌ من الله عامٌّ وإنارةٌ بالكلمة (اللوغوس) عامةٌ. بذلك الروح يُقيم الله في كل مخلوق، وبه نحيا ونتحرك ونوجد (أع 17: 28). فالدعوة "المادية" العامة ليست فقط خارجية وموضوعية، بكونها في الطبيعة والتاريخ كما في العقل والضمير تُبصِّر الإنسان بإعلان الله وناموسه على الخصوص؛ بل إن لها أيضاً جانباً داخلياً وذاتياً، بكونها تُلزِم أدبياً كل شخصٍ بمفرده بذلك الإعلان، تجعله ملتزماً – في اقتناعه الخاص – أن يقوم بواجب العمل بناموس الله.

من الواضح طبعاً أن الله لا يُجدِّد الإنسان ويخلِّصه بإعلان الناموس هذا، لأن الناموس يعجز عن هذا في كونه ضعيفاً بالجسد (رو 8: 3). ولكن الله بهذه الواسطة يكبح جماح الخطية ويقمع الأهواء، ويقيِّد فيضان الإثم. فبها يصبح ممكناً وجود مجتمع بشري وعدالة مدنية، وهذان بدورهما يشقان الطريق إلى تمدّنٍ أسمى وحضارة أغنى وازدهارٍ للفنون والعلوم. فبالحقيقة إن الأرض ما تزال ملآنة من خيرات الله. إن الرب صالحٌ

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

نحو الجميع، ومراحمه هي على كل أعماله. فهو يُشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويُمطر على الأبرار والظالمين. وهو لا يترك نفسه بلا شاهد، بل يصنع خيراً ويرزقنا من السماء أمطاراً وأزمنة مثمرة، مالئاً قلوبنا طعاماً وسروراً.[1]

وينبغي لنا التمييز بين شهادة الله هذه العامة أو مخاطبته التي تأتينا عبر الطبيعة والضمير، وبين تلك الدعوة الخاصة التي تحتوي عليها كلمة الإنجيل والتي هي موجهة إلى جميع الذين يعيشون ضمن حدود الدائرة المسيحية. على أن الدعوة العامة لا تهملها هذه الدعوة الخاصة ولا تلغيها، بل بالأحرى تحتويها وتقويها. وهذا تبرهنه حقيقة كون الكتاب المقدس الذي هو كلمة الإعلان الخاص يعترف بالإعلان العام في الطبيعة والتاريخ، ويؤيده، وينقيه من جميع ما يشوبه. فإن كون السماوات تحدّث بمجد الله والفلك يُخبر بعمل يديه (مز **19**: **1**)، وكون أمور الله غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مدركةً بالمصنوعات (رو **1**: **20**)، وكون عمل الناموس مكتوباً في قلوب البشر (رو **2**: **15**)، ذلك كلُّه إنما هو شيءٌ يفهمه المسيحي المتعلم من المكتوب أكثر مما يفهمه الإنسان الذي يحيا فقط بنور العقل.

حتى إن ثمة بيّنةً أقوى على استمرار دور الإعلان العام قائمة في حقيقة كون الناموس الأدبي، الذي لم يكن الأمم يعرفونه إلا بصورة غير كاملة وغير واضحة، قد أُعلن بكل وضوحٍ من قِبَل الله على جبل سيناء وقُدِّم إلى شعبه باعتباره قانون الحياة. ولما جاء المسيح إلى العالم، لم ينقض هذا الناموس بل كمّله (مت **5**: **17**)، أولاً في شخصه وحياته، ومن ثم أيضاً في حياة جميع الذين يسيرون على خُطاه ويسلكون في الروح.[2] وبمقتضى هذا المثال، جعلت الكنيسة المسيحية، في اعترافها وكرازتها وتعليمها، مكاناً للناموس كما للإنجيل أيضاً.

إن الناموس والإنجيل هما الجزءان المكوِّنان لكلمة الله. ومع أن كل منهما يتميز عن الآخر، فهما لا ينفصلان البتة، بل يصحب أحدهما الآخر على مدى الكتاب المقدس كلِّه، من بداية الإعلان إلى نهايته. فالتمييز بين الناموس والإنجيل إذاً هو تمييز يختلف تماماً عن ذاك الذي بين كل من العهد القديم والعهد الجديد. هذا التمييز يختلط حتى لا يكاد يظهر عند جميع الذين يرون في الناموس إنجيلاً غير كامل، وفي الإنجيل ناموساً مكمَّلاً. ولكن كِلا التمييزين يختلف أحدهما عن الآخر بالتبادل، ومن الواجب بالتالي أن نبقي على اختلافهما واضحاً. ذلك أن العهدين القديم والجديد هما تسميتان لمجموعتي الأسفار المقدسة الموافقتين لهذين التدبيرين. غير أن التمييز بين الناموس والنعمة يضعنا على صعيد مختلف تماماً، فهاتان التسميتان لا تدلان على تدبيرين لعهد النعمة الواحد بعينه، بل على عهدين متخالفين كلياً. إذ إن الناموس ينتمي في الواقع إلى ما يُسمى "عهد الأعمال" الذي حصل مع الإنسان الأول ووعده بالحياة الأبدية عن طريق الطاعة الكاملة. أما الإنجيل فهو إعلان "عهد النعمة" الذي عُرف لأول مرة بعد سقوط الإنسان والذي يعطيه الحياة الأبدية بالنعمة عن طريق الإيمان بالمسيح.

على أن عهد النعمة ليس نبذاً ولا نقضاً لعهد الأعمال، بل بالأحرى إتمامٌ له.فالفارق بين الاثنين قائم أساساً في كون المسيح يُتِمُّ عوضاً عنا تلك المطالب التي يحمّلنا الله مسؤوليتها بموجب عهد الأعمال. ومن هنا فإن عهد النعمة، وإن كان في حدّ ذاته نعمةً صرفاً، يستطيع من أول الطريق أن يضع تحت خدمته ناموس عهد الأعمال، وأن يتّحد بذلك الناموس ويصل به – بواسطة روح المسيح – إلى الاكتمال في المؤمنين. فالناموس يحتفظ بمكانه في عهد النعمة، لا لكي نحاول أن نكسب الحياة الأبدية عن طريق حفظه، لأن الناموس لا يستطيع أن يفعل هذا بسبب ضعف الجسد، بل لأجل غرضين: الأول، لكي ندرك بواسطته معرفة خطيتنا وذنبنا، وشقائنا وعجزنا، ولكي نلجأ إلى نعمة الله في المسيح بعد الإحساس بالذنب ويعترينا الخزي (رو **7**: **7**؛ غل **3**: **24**). أما الغرض الثاني، فباعتبار أننا متنا مع المسيح وقمنا معه، نسلك في جدّة الحياة، وهكذا نكمل برَّ الناموس (رو **6**: **4**؛ **8**: **4**).

إذاً، لا مكان في المسيحية للتناقض، أو احتقار الناموس وخرقه. وينبغي أن يتماشى الناموس والإنجيل، كما في الكتاب المقدس كذلك أيضاً في الكرازة والتعليم، وفي العقيدة والحياة. فهما عنصران، لا يُستغنى عنهما وحقيقيان، يكوّنان كلمة الله الواحدة الكاملة. ورغم ذلك، فإن الخلط بين الاثنين أمرٌ رديءٌ كالفصل بينهما كلياً. والناموسية الجديدة، التي تجعل من الإنجيل ناموساً جديداً، لا تقلّ ضلالاً عن إهمال الناموس.

[1]- مز 104: 24؛ 145: 7؛ مت 5: 45؛ أع 14: 17.
[2]- رو 3: 31؛ 8: 3؛ 11: 8 – 10؛ غل 5: 14.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فالناموس والنعمة يختلف أحدهما عن الآخر لا في الدرجة بل في النوع. إنهما يختلفان كما يختلف الطلب عن العطية، والوصية عن الوعد، والسؤال عن العرض. صحيحٌ أن الناموس، شأنه شأن الإنجيل، يشتمل على مشيئة الله، وأنه مقدس وعادل وصالح وروحي،[1] إلا أنه صار عاجزاً بسبب الخطية، وهو لا يبرِّر الخطية بل يضاعفها، ويُثير الغضب، ويجلب القضاء والموت.[2] وفي المقابل هذا يقوم الإنجيل الذي مضمونه المسيح (رو 1: 3؛ أف 3: 6)، والذي لا يأتي إلا بالنعمة والمصالحة والغفران والبرّ والسلام والحياة الأبدية.[3] فإن ما يطلبه الناموس منا نناله في الإنجيل مجاناً.

وما دام الناموس والإنجيل متمايزين على هذا النحو، يترتّب على ذلك أن الدعوة العامة التي تأتي جميع البشر في الطبيعة والضمير، والدعوة الخاصة التي تبلغ كلَّ من يعيش في العالم المسيحي، هما أيضاً، يتخالفان لا في الدرجة بل في الجوهر والنوع. فليس الفرق كامناً في حقيقة كون المسيحية تقدم لنا ناموساً أفضل وأكمل من ذاك المعروف عند الأمم، بل بالأحرى في كونها تُعلِن شيئاً جديداً، إذ تأتينا بالإنجيل، وفي ذلك الإنجيل تعرّفنا بشخص المسيح. فليس في الناموس وحده، بل في إنجيل نعمة الله على الخصوص، يمكن التمايز بين الوثنية والمسيحية؛ بين الإعلان العام والإعلان الخاص؛ بين الدعوة التي تأتي كلَّ إنسان وتلك التي يتشارك في المسيحيون وحدهم. والدعوة العامة الموجهة إلى جميع البشر غير مُعبَّرٍ عنها بكلمةٍ من الله حرفية وواضحة لا لبس فيها ولا غموض، بل هي متضمنةٌ بصورةٍ مكنونةٍ في الإعلان الذي يُعطيه الله أيضاً للأمم في أعمال يديه، وفي عقلهم وضميرهم بالذات، وهي شيءٌ يجب أن يُستخلص من هذه الأمور بالبحث والتفكير. ولكن لحظة حاول الوثنيون أن يتقصّوا ويفكروا، وقعوا في الضلال سواءٌ من حيث الدين أو من حيث الأخلاق. فخارج نطاق الإعلان الخاص، مع أن الناس عرفوا الله، لم يمجدوه ولا شكروه، بل حمقوا في تصوراتهم، وأظلم قلبُهم، وتردّوا في مهاوي الوثنية والفساد الأخلاقي بكل صنوفهما (رو 1: 21 وما يلي).

وقد تبيّن أن الإعلان في الطبيعة، والدعوة في العقل والضمير بالتالي، ليسا وافيين. ولذلك، ففي الإعلان الخاص لا يتكلم الله بعد من خلال طبيعة المخلوقات، بل يستخدم الكلمة الحرفية الفريدة التي يستعملها الإنسان بوصفها التعبير الأسمى والأفضل عن أفكاره. وقد كان استخدام الكلمة هذا في الإعلان الخاص ضرورياً أيضاً لسبب آخر. فالطبيعة، خارج الإنسان كما داخله، تبقى هي إياها دائماً. فما زالت السماوات الآن تحدّث بمجد الله على النحو عينه الذي كانت تفعل هذا به منذ ألف سنة أو عدة آلاف من السنين. وما زال الإنسان، رغم كلِّ تطوره وتمدُّنه، هو إياه في جوهره وطبيعته، في قلبه وضميره، كما كان تماماً أقدمُ أسلافه.

ولكن الإعلان الخاص غير متضمن في نظام الطبيعة. فقد برز إلى الوجود على مدى الطريق التاريخي، في تاريخ استمر قروناً، ومركز الدائرة فيه شخصية المسيح التاريخية. فلا تقدر الطبيعة أن تخلِّصنا؛ بل يقدر على ذلك فقط شخصٌ عاقل. ولكننا، بحسب خطة الله، لا نستطيع البتة أن نتوصل إلى معرفة أي شيءٍ يتعلق بأحداث التاريخ وأشخاصه – وهذه كما نعلم ليست معنا دائماً كما هي أمور الطبيعة بل تأتي وتمضي وتظهر وتختفي – إلا بواسطة الكلمة، سواءٌ كانت الكلمة المنطوقة أو المكتوبة، وسواء دوِّنت في أحرف أو في إشارات أخرى. ويترتب على طبيعة الإعلان التاريخي الخاص أن يتخذ الكلمة وسيلة للتعبير كي يُعرف من جيلٍ إلى جيل ومن مكان إلى آخر. فالدعوة العامة تأتي عن طريق الطبيعة، والدعوة الخاصة عن طريق الكلمة. والأولى لها الناموس على الخصوص مضموناً، أما مضمون الثانية فهو الإنجيل على الخصوص.

بدأ الإنجيل أول طريقه في الفردوس. فهنالك أعلنه الله أول مرة، ثم كان للآباء والأنبياء أن يذيعوه، ودبّر له الله أن يُمثَّل في الذبائح وسائر طقوس الناموس، ثم تممه أخيراً في ابنه الوحيد. وليس هذا هو كلَّ شيء. فقد أمر الله بتدوين كلمة الإنجيل كتابياً في أسفار العهد القديم والعهد الجديد، ثم عهد به من بَعدُ إلى الكنيسة لحفظه وإذاعته وشرحه وحمايته وزرعه في كلِّ مكان ، لكي يصير معلوماً عند جميع الخلائق.

ويوم تلقّت الكنيسة هذه المهمة وبدأت بتنفيذها، يومذاك بالذات حصل انسكاب الروح القدس. وبطريقة معكوسة، فساعة جعل الروح القدس الكنيسة مسكنه الخاص، ساعتئذٍ بالذات كانت للكنيسة بداءتُها باعتبارها جماعةً مستقلة تضم جميع المؤمنين، وحاملةً لكلمة الإنجيل، وعمود

[1]- رو 2: 18، 20؛ 7: 12، 14؛ 12: 10.
[2]- رو 3: 20؛ 4: 15؛ 5: 20؛ 7: 5؛ 8: 9، 13؛ 2كو 3:6 وما يلي؛ غل 3: 10، 13، 19.
[3]- أع 2: 38؛ 20: 34؛ رو 3: 21 – 26؛ 4: 3 – 8؛ 5: 1، 2؛ ومواضع أخرى.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الحق وقاعدتها. ومع أن كلمة الله وروحه كانا متحدين قبل ذلك الحين بطريقة تمهيدية، فإنهما في يوم الخمسين اتحدا كلياً على نحوٍ حاسم. وهما يعملان معاً في خدمة المسيح الذي هو ملك الكنيسة ورب الروح، من ما تصوِّره لنا الكلمة ومن ما نناله نعطاه نصيباً لنا بواسطة الروح. فالحق والنعمة يسيران معاً لأن المسيح مملوء منهما كليهما (يو 1: 14).

والدعوة التي تأتينا بواسطة الكلمة أسمى جداً من تلك التي تأتي عبر الطبيعة. فبينما تُتيح الأخيرة للإنسان أن يسمع فقط صوت الناموس، وترفع أمامه المطلب القائل: "افعل هذا فتحيا"، تنطلق الأولى – أي الدعوة بالكلمة – من المسيح، ولها نعمة الله مضموناً، وتقدّم للإنسان مجاناً أشهى الخيرات، ألا وهي غفران الخطايا والحياة الأبدية عن طريق الإيمان والتوبة. وإذا تأمل المرء مضمون هذه الدعوة، يراوده حيناً الأمل بأن جميع الناس حالما يسمعونها سيقبلونها بفرح وابتهاج يغمران القلب. فأيُّ شيءٍ يُعقل أن يعترض به مخلوق بشري خاطئ وسائر نحو الفساد على بشارة تطمئنه إلى نعمة الله وتبتغي إعطاءه خلاصاً كاملاً دون أي جهد من قِبَله، ما خلا قبول هذه البُشرى بإيمانٍ طفولي؟

غير أن الحقيقة تُطلعنا على ما يختلف عن هذا كثيراً. فعلى مدى العصور يوجد فاصل بين الذين يعبدون الله ويخدمونه وأولئك الذي لا يعبدونه ولا يخدمونه. ففي عائلة آدم، سار قايين وهابيل كلٌّ في طريقه. والجنس البشري قبل الطوفان انقسم إلى نسل شيث ونسل قايين. واستمر هذا الانقسام بعد الطوفان في ذرية سام وذرية أخويه. وقد شهدت عائلات الآباء هذا الانقسام ظاهراً في اسحق وإسماعيل، وفي يعقوب وعيسو، ولاحقاً في بني إسرائيل وباقي الشعوب. حتى إن شعب العهد لم يكن هو جميع إسرائيل المنحدرين جسدياً من إبراهيم، بل أولاد الموعد حُسبوا نسلاً (رو 9: 6 – 8). وفي أيام العهد الجديد تطالعنا الحقيقة عينُها. فكثيرون يُدعَون ولكن قليلين يُختارون (مت 22: 14). وليس ثمة تباين حاد بين الكنيسة والعالم فقط، بل إن في الكنيسة نفسها آلافاً هم بالحقيقة سامعون للكلمة لكنهم غير عاملين بها (يع 1: 22). حتى لو رفض المرء المسيحية بجملتها، فهو لا يستطيع التخلص من هذا التباين. إذ كان في كل مكانٍ – ويبقى – الصالحون والأشرار، والأبرار والظالمون. فهنالك تباين في الطبقة والوضع، في الموهبة والقوة، في الغنى والكرامة، إلا أن بين البشر فارقاً أعمق بعد، فارقاً ذا طبيعة دينية وأدبية.

هذا التباين في الواقع واضح للعيان وله طبيعة خطيرة بحيث ينبغي أن يتنبه له كلُّ إنسان. ولكن كثيرين في كل زمان حاولوا أن يفسروا هذه اللامساواة الأدبية، تماماً كما حاولوا تفسير فوارق أخرى بين البشر، على أساس الإرادة الحرة التي أُعطيت لهم. فهم يذهبون إلى أن إرادة الإنسان، رغم الخطية، ظلت حرة، وأنها بقيت قادرة على فعل الصلاح. وإلا، فإنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان، وإن أضعفتها لحد ما، اكتسبت مع ذلك قوةً كافية تجعلها قادرة على قبول دعوة الإنجيل، وذلك من خلال استنارتها العامة بالكلمة (اللوغوس، يو 1: 9)، أو بنعمة الروح القدس الممنوحة قبل المعمودية أو عِندها.

هذا الشرح غير مقبول، حتى في ذاته وبمعزلٍ عن تعليم الكلمة المقدسة. فبحسب هذا التعليل، ليس الله هو الذي يجعل فرقاً بين الناس، بل البشر أنفسهم. ولكن ما دام الله هو هو، فإن مشورته تهيمن على كل شيء، وهو خالق السماوات والأرض، وبعنايته يعتني بجميع خلائقه ويسودهم. فمن غير المعقول أن نفترض أن يسود الطبيعة كلَّها ويتحكم في دقائق كلِّ شيء، ومع ذلك يستثني من مشورته مسألة التباين الروحي أو اللامساواة بين البشر، تاركاً لهذه الحادثة العظيمة الكلّية الشمول أن تدبر نفسها بنفسها، متحكمة في المصائر الأبدية، متخلياً عنها للاختيار البشري. فأيُّ من يعتقد هذا الفكر يقوِّض، من حيث المبدأ، فكرة مشورة الله وسيادة عنايته، ويسحب كامل التاريخ البشري إلى خارج متناول يد الله، ويجعل مستقبل هذا التاريخ شيئاً لا يمكن التنبؤ به بسلبه نهايته وغايته، وينسب إلى الله موقفاً خاملاً يتسم بالانتظار ويتضارب مع كينونته وأعماله.

وعلى كون هذا التمايز الروحي بين البشر هو الأهم، فهو ليس التباين الوحيد بينهم. فبين الخلائق أنواعٌ شتى من التفاوت والتباين، ولاسيما بين الذين خصّهم الله بعطية العقل. إذ يختلف البشر في الطبقة والوضع، وفي الجنس والعمر، وفي قدرات العقل وقوى الجسد. كما يختلفون أيضاً في كونهم قد ولدوا داخل نطاق النصرانية أو خارجه، فيستطيعون أن يسمعوا دعوة الإنجيل أولاً. وجميع هذه الفروق لا يمكن تفسيرها أو تبريرها بقرارات البشر أو مواقفهم، لأن الفروق تسبق هذه القرارات والمواقف وتؤثر فيها بقوةٍ إلى حدٍّ بعيد. ولكن إذا كان المرء لا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يرغب في أن يقنع بكون مسرة الله الصالحة هي المحدِّدة لذلك، وإذا ظلّ يبحث عن الحل في اختلاف مواقف البشر، فلابد له من اللجوء إلى افتراضاتٍ يتعذّر الدفاع عنها. فاللوثريون مثلاً لم يشاؤوا الإقرار بتقدير الله المهيمن في كون إنسانٍ ما يولد تحت ضوء الإنجيل، وإنسانٍ آخر يولد بعيداً عنه، ورأوا أن دعوة الكلمة أُبلغت إلى جميع البشر في زمن آدم ونوح والرسل (استندوا أساساً على رومية 10: 18 وكولوسي 1: 23)، ولكن البشر عادوا ففقدوها بسبب غلطتهم هم فقط. وعلى هذا المنوال عينه نُسجت الفكرة التي ترد عند أوريجينوس والتي يتشارك فيها أيضاً كثيرون في الأزمنة الحديثة، ومفادها أن النفوس البشرية خُلِقت في الأصل متساوية وفي وقت واحد، ولكنها بحسب تباين سلوكها في وجودها السابق كان نصيبها على الأرض أجسادٌ متخالفة.

وجميع الافتراضات المماثلة لما سبق تزيد صعوبات المسألة ولا تُسهم بشيءٍ في حلها. ففي هذا المجال أيضاً، لا راحة للإنسان ما لم يسترح في قلب الله الأبوي ويُقرّ بالأساس الأعمق للتباين بين الخلائق في كونه عائداً إلى مشورة الله المطلقة والتي لا يُسبر غورها. فأنصبة البشر المتباينة فيما يتعلق بالدعوتين العامة والخاصة لا يستقر أساسُها في تفوق شعبٍ على آخر، أو في الاستفادة من نور الطبيعة على نحو أفضل، بل في مسرة الله الصالحة المطلقة السيادة وفي محبته التي لا نستحقُّها (قوانين دورت، ج 3، ف 4، ص 7). والأمر نفسه ينطبق على اللا مساواة الروحية التي تحصل بين الذين يسمعون صوت الإنجيل بقلبٍ مؤمن والذين يحتقرونه ويختارون المضيّ في طريقهم الخاص فليس الإنسان، بل الله، هو من يجعل الفرق هنا. والدعوة التي يوصلها الله إلى إنسانٍ، تختلف عن تلك التي يوصلها إلى آخر. وفي ما يخصُّ الدعوة بالكلمة، يميز الكتاب أيضاً بين دعوةٍ خارجية وأخرى داخلية.

ولكن قبل أن نبين الأسس الوافية التي يرتكز عليها هذا التمييز، علينا أن نشدد على واقع كونه غير مقصود به البتة، بطريقة أو بأخرى، أن يجرد الدعوة الخارجية، كما يُقال، من قوتها وقيمتها.

ففي المقام الأول، ينبغي التصريح بأن هذه الدعوة من جانب الله تبقى جدية وحسنة النية. إذ إن جميع المدعوين بالبشارة، مدعوون دعوةً فعالة، لأن الله يقول في كلمته، بجدية وإخلاص، ما الذي يسرُّه – أي أن يُقبل المدعوون إليه. وهو تعالى، بكل تأكيد، يعد جميع الذي يُقبلون إليه براحةٍ لنفوسهم وبالحياة الأبدية (قوانين دورت، ج 3، ف 4، ص 8). والذين يُقرّون بالتمييز بين الدعوة الخارجية والدعوة الداخلية ما يزالون يَعزون إلى الأولى القوة والأهمية اللتين يرى رافضو هذا التمييز أنهما تابعتان للدعوة بكاملها. والمقرّون بالتمييز لا يضعون البشر في وضعٍ أقلّ إرضاءً من ذاك الذي يرى الرافضون أن البشر فيه فعلاً. فإن كلمة الإنجيل التي بها تُبلَّغ الدعوة الخارجية ليست حرفاً ميتاً، بل هي قوة الله للخلاص لكل من يؤمن (رو 1: 8)، وهي حية وفعالة وأمضى من كل سيف ذي حدّين (عب 4: 12)، وهي واسطة الولادة الثانية (1بط 1: 23). إنها بعينها الكلمة التي يستخدمها الله في الدعوة الداخلية، وهي ليست في ذاتها معزولة عن التأثير الكلي للروح القدس. فهذا الروح ليس فقط يشهد في قلوب المؤمنين بأنهم أولاد الله (رو 8: 16)، بل إنه أيضاً ينفذ إلى ضمائر الذين يبكّتهم على خطية وبرّ ودينونة. إذاً لم يكن كالفن مخطئاً لما تحدّث عن مستوى أدنى لعمل الروح القدس يصحب الدعوة الخارجية.

وتبعاً لذلك، فإن رفض الدعوة الخارجية لا يتم البتة دون تحمّل عواقبه. فالذين يحتقرون الإنجيل لا يمكنهم أن يتذرّعوا بعجزهم، لأنهم لا يرفضونه لأنهم عاجزون. فلو كان ذلك، لاستطاعوا اللجوء إلى نعمة الله التي تمنحهم الخلاص. لكنهم بالأحرى يرفضون الإنجيل لأنهم يشعرون شعوراً قوياً بأنهم قادرون على تخليص نفوسهم، ولأنهم يبتغون أن يخلصوا بغير نعمة الله. فكون الكثيرين ممن يُدعون بواسطة الإنجيل لا يُقبلون ولا يتوبون، ليس هو خطأ الإنجيل ولا المسيح المقدَّم لهم فيه، ولا الله الذي يدعوهم به والذي يمنح المدعوين أيضاً بركاتٍ عديدة. بل إن الخطأ يكمن بالأحرى في أولئك المدعوين الذين لا يقبل بعضُهم كلمة الحياة لكونهم غير مبالين. وآخرون يقبلون الكلمة دون أن يُدخلوها في قرارة قلوبهم، وبالتالي يرتدّون بعد فرحهم الوجيز المقترن بالإيمان الوقتي. كما أن آخرين يخنقون الكلمة بأشواك هموم الحياة ومباهج العالم فلا يُثمرون. ذلك هو تعليم المخلِّص في مثل الزارع والبذار (قوانين دورت، ج 3، ف 4، ص 9).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وفي المقام الثالث، ليست هذه الدعوة الخارجية بلا نتائج. إذ يمكن القول عموماً إن الله يتمم مقصده بواسطتها. فعن كلمة هذه الدعوة الخارجية أيضاً يمكن القول إنها لا ترجع خائبة بل تعمل ما يسرّه وتنجح في ما يرسلها لأجله (إش 55: 11). بها يؤكد الله حقه على خلائقه ويصون كرامة اسمه. ثم إن المسألة ليست على الإطلاق، لا هنا ولا هناك، كيف يستجيب الناس لهذه الدعوة الخارجية. فبين الوثنيين تفاوتٌ كبير في ردود الفعل تجاه دعوة الطبيعة. حتى إن سقراط وأفلاطون، مثلاً، ينبغي ألا يوضعا في مصفٍّ واحدٍ مع كاليفولا ونيرون. وهكذا، ليس هو شيئاً واحداً على الإطلاق أن يلقى الإنجيل هزءاً وتجديفاً من جهة، أو قبولاً بإيمانٍ تاريخي أو وقتي من جهة أخرى. صحيح أن بين هذين النوعين من الإيمان والإيمان القلبي المخلِّص فرقاً جوهرياً. ولكن ذلك لا يعني مساواتهما بعدم الإيمان الكلي. بل إنهما، على النقيض، من ثمار نعمة الله العامة، ويحملان معهما عدة بركات وقتية. فهما يضعان الناس تحت التزامٍ تجاه الحق، ويصدانهم عن ارتكاب كثير من الخطايا الرهيبة، ويجعلانهم يحيون حياة احتشام واحترام، ويسهمان بغنىً في تكوين المجتمع المسيحي، وهو بالغ الأهمية بالنسبة إلى حياة البشرية وتأثير الكنيسة.

أضف إلى هذا أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن دعوة الله هذه الخارجية غالباً ما يستخدمها الله وسيلة لتهيئة عمل النعمة في قلوب خاصته. فليس هنالك بالحقيقة نعمة تحضيرية، بمعنى أن الدعوة الخارجية تتدرّج فتصير هي الدعوة الداخلية دون حدوث تغيير، أو أن الإنسان الطبيعي ينمو تدريجياً فيصير ابناً لله. وكما أنه ليس في الطبيعة نفسها فليس في النعمة أيضاً انتقالٌ تدريجيٌّ من الموت إلى الحياة أو من الظلمة إلى النور. ولكن هنالك شيئاً من قبيل النعمة التحضيرية أو الإعدادية إذا كان المقصود أن الله، مجري كل نعمة، هو أيضاً خالق الطبيعة، وهو يُرسي بين النعمة والطبيعة رباط اتصالٍ يحافظ عليه دائماً من بَعد. وفي تنفيذه لمشورة الفداء يسير على الخط الذي كان قد رسمه في عمل الخلق والعناية. فكما أنشأ لدى زكا رغبةً في أن يرى يسوع (لو 19: 3)، وكما أحدث تجاوباً لدى الجمهور الذي سمع بطرس (أع 2: 37)، كذلك تماماً يعتني بخاصته ويوجّههم بطريقة تُعِدُّهم للساعة التي فيها يُمجِّد نعمته فيهم، وهو نفسُه يقتادهم بيده القديرة لبلوغ ذلك الوقت.

على أنه بصرف النظر عن قوة هذه الدعوة الخارجية وقيمتها، فهي ليست في ذاتها كافيةً لتغيير قلب الإنسان وحِمْله فعلاً على قبول الإنجيل للخلاص. إنما ينبغي أن نفهم عدم كفاية الدعوة الخارجية على هذا النحو فهماً صحيحاً. فالإنجيل الذي تذيعه لا ينقصه شيء من حيث كونه بشارة، لأنه يشتمل على كامل مشورة الفداء ، ويعرض أمام أنظارنا المسيح بكل بركاته، ولا يحتاج إلى بسط مضمونه. وليس هذا الإنجيل بحرفٍ جامد يجب أن يُحييه الروح، ولا بكلامٍ مجرد أو رمزٍ بلا قيمة تعوزه العلاقة الواقعية بالحقيقة التي يُشير إليها. فمع أن بولس يقول عن الخادم إنه ليس شيئاً (1كو 3: 7)، لأنه يمكن أن يخلفه، أو قد يُغفَل كلياً، فهو لا يقول هذا عن الإنجيل. بل على النقيض، فالإنجيل هو قوة الله للخلاص (رو 1: 16؛ 1كو 15: 2)، وهو ليس كلمة بشر بل كلمة الله، الحية والفعالة،[1] وبمعنىً ما يقوم بعمله دائماً، إذ إنه إن لم يكن رائحةً تؤدي إلى الحياة يكون رائحةً تؤدي إلى الموت (2كو 2: 16). والمسيح الذي هو مضمون الإنجيل لا يدع أحداً في حالة حياد: فهو قد أتى إلى العالم بأزمة، أو دينونة، أو فاصل (يو 3: 19؛ 9: 39)، وبكلمته التي تصل إلى لبّ كيان الإنسان يُظهر أفكار القلب ونياته (لو 2: 35؛ عب 4: 12). قد صار المسيح صخرة عثرة للذين يرفضونه كصخرة ملجأ، وجهالةً للذين يرفضونه باعتباره الحكمة، وهو يُعلن سقوط الذين لا يؤمنون به قيامةً لهم.[2]

ولكن هذا التأثير المزدوج لكلمة الإنجيل يبرهن بدقة على أن اختلاف النتيجة لدى الذين يقبلون الكلمة ولدى الذين يرفضونها لا يمكن تفسيره بلغة تلك الكلمة وحدها، ولا بلغة الدعوة الخارجية أيضاً. صحيحٌ أن كلمة الإنجيل، بصرف النظر عمّن يحملها وإلى من، هي دائماً كلمةٌ من الله، حيةٌ وفعالة. ولكن التعبير "كلمة الله" لا يتضمن المعنى نفسه دائماً في الكتاب المقدس بأي حال من الأحوال. فحيناً يعني قوة الله التي يخلق بها العالم ويعتني به.[3] وحيناً يعني الإعلان الخاص الذي به يُعلن الله للأنبياء شيئاً ما (إر 1: 2، 4؛ 2: 1؛ ومواضع أخرى). وهو يُستعمَل عدة مرات للدلالة على مضمون الإعلان أو فحواه، بصرف النظر عن كونه يتعلق بالناموس أو بالإنجيل (خر 20: 1، لو 5: 1؛ ومواضع أخرى). وفي الحالة الأخيرة تبقى الكلمة هي كلمة الله بالحقيقة من حيث معناها، ولكنها ليست منطوقة من قبل الله مباشرة ورأساً كما هو شأن الكلمة الحاصلة

[1]- يو 6: 63؛ عب 5: 12؛ 1بط 1: 25.
[2]- لو 2: 34؛ 1كو 1: 18؛ 1بط 2: 7.
[3]- تك 1: 3؛ مز 33: 6؛ مت 4: 4؛ عب 1: 3.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في الخلق والعناية. بل إنها بالأحرى تأخذ شكل الكلمة البشرية، إذ يُمكن للكائنات البشرية أن يتكلموا بها ويكتبوها، وهكذا يصير لها – إن صح التعبير – وجودٌ مستقل. وبهذا المعنى أيضاً تبقى بالطبع من حيث مضمونها كلمةً حية وفعالة، غير أنها تشترك أيضاً في خصائص الكلمات البشرية، وبذلك لا تُحدث إلا تأثيراً أدبياً. إنما لا ينبغي التقليل من شأن التأثير الأدبي. فهو أقوى بكثير من مجرد الإرشاد العقلاني، إذ إن كلمة الإنجيل ليست فقط مصدر لمعرفتنا بالله والشؤون الإلهية بل هي أيضاً واسطة نعمة.

ولكن مثل هذا النشاط الذي يؤديه الإنجيل على المستوى العقلاني والديني الأدبي ليس كافياً. كان يكفي لو أن الإنسان لم يسقط، أو لو أنه لم يفقد بسقوطه حريته الأدبية. ولكن الكتاب يشهد، والحياة تؤكد كلَّ يوم، أن ذهن الإنسان مظلم (أف 4: 18؛ 5: 8)، وإنه مقيَّد في إرادته كعبد للخطية (يو 8: 34؛ رو 6: 20)، وأنه ميت بالذنوب والخطايا (أف 2: 1، 2). ولذلك فهو لا يقدر أن يرى ملكوت الله (يو 3: 3)، ولا يستطيع أن يقبل أو يفهم ما يتعلق بروح الله (1كو 2: 14)، ولا يقدر أن يخضع لناموس الله (رو 8: 7)، كما لا يستطيع في نفسه ومن تلقاء ذاته أن يتصور الخير أو يعمله (يو 15: 5؛ 2كو 3: 5). فالإنجيل موجَّه يقيناً إلى الإنسان، ولكنه ليس مفصَّلاً على قياسه، أي ليس حسب رغباته وأفكاره (غل 1: 11). لهذا السبب يرفض الإنسان الإنجيل ويقاومه إذا تُرك يسلك سبُلَه الخاصة.

ولكن غنى نعمة الله يكمن في كونه تعالى، رغم هذا كلِّه، يُضفي عمل الروح على الدعوة بالكلمة لجميع الذين اختارهم للحياة الأبدية. وقد كان الروح القدس في العهد القديم هو مُنشئ الحياة الروحية ومرشدها (مز 51: 12؛ 143: 10). غير أنه موعودٌ به هناك بصورة خاصة باعتباره من سيتولى في أيام العهد الجديد تعليم جميع الناس، ومن سيُعطى قلباً جديداً ويكتب عليه شريعة الرب.[1] لهذه الغاية أيضاً سكب الروح يوم الخمسين. ومع الرسل وبهم كان سيشهد للمسيح ويسكن في الكنيسة أيضاً لكي يجدِّدها (يو 3: 5)، ويقودها إلى الاعتراف بالمسيح رباً (1كو 12: 3)، ويعزيها ويرشدها، ويمكث معها إلى الأبد.[2] وبالعمل خارج الكنيسة، يخترق الروح العالم ويبكّته على خطية وبرّ ودينونة (يو 16: 8 – 11).

إن عمل الفداء هو عمل الله، عمله وحده – لا موضوعياً وحسب بل ذاتياً أيضاً. فليس لمن يشاء ولا لمن يسعى، بل لله الذي يرحم (رو 9: 16). هنالك دعوة خارجية تصل إلى الكثيرين (مت 22: 14)، ولكن توجد أيضاً دعوةٌ داخلية فعلية هي نتيجةٌ للاختيار (رو 8: 28 – 30). فالله لا يُعطي الإنجيل فقط، بل أيضاً يُجري الكرازة به في قوة وبالروح القدس (1كو 2: 4؛ 1تس 1: 5، 6)، وهو نفسُه من يُنمي (1كو 3: 6 – 9). هو يفتح القلب (أع 16: 14) ويُنير الذهن (أف 1: 18؛ كو 1: 9 – 11) ويطوّع الإرادة (أع 9: 6)، ويُنشئ الإرادة والعمل معاً في سبيل مسرّته (في 2: 13).

ولا ينبغي أن تُعزى حقيقة كون المدعوين على هذا النحو يُقبلون إلى المسيح ويتجددون، إلى الاستحقاق البشري، وكأن الإنسان بإرادته الحرة قادر على تمييز ذاته عن الآخرين. بل يجب أن تُعزى هذه الحقيقة إلى الله الذي كما اختار خاصته في المسيح قبل الزمان في الأزل يدعوهم أيضاً في الزمن بقوة وفعالية، ويمنحهم إيماناً وتوبة، وإذ يُنقذهم من سلطان الظلمة ينقلهم إلى ملكوت ابنه الحبيب، لكي يُخبروا بفضائله هو الذي دعاهم من الظلمة إلى نوره العجيب ولكيلا يفتخروا بأنفسهم بل بالرب، على حدِّ ما تشهد به الكتابات الرسولية باستمرار (قوانين دورت، ج 3، ف 4، ص 10).

أما طبيعة هذه الدعوة الداخلية فهي تظهر في الكلمة المقدسة بطرق شتى. صحيح أن هذا التعبير بالذات غير وارد في الكلمة، ولكن الحقيقة التي يعبّر عنها يُشار إليها مراراً وتكراراً. حتى الطبيعة تقدم لنا إيضاحاً لما يحدث في دائرة النعمة. إذ إن الخلق يسلّط ضوءاً على الفداء، مثلما يسلِّط الفداء بدوره ضوءاً على الخلق. وقد أوضح المسيح طبيعة ملكوت السماوات وخصائصه وقوانينه بأمثال مستمدة من الطبيعة والحياة اليومية. وفي مَثَل الزارع خصوصاً أظهر المسيح التأثيرات المتباينة لكلمة الإنجيل في قلوب الناس.

---

[1]- إش 32: 15؛ إر 31: 33؛ 32: 39؛ حز 11: 19؛ 36: 26؛ يؤ 2: 8.
[2]- يو 14: 16؛ رو 8: 14؛ أف 4: 30.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يسري في دائرة الطبيعة قانونٌ مؤداه أنه لكي يحوز الإنسان علماً أو معرفةً بأمرٍ معين ينبغي أن تكون له علاقة معينة بذلك الأمر الذي يريد أن يراه أو يعرفه. فإذا ابتغى المرء رؤية شيءٍ ما فلابد من وجود غرضٍ بالطبع، ولكن من الضروري أن توجد أيضاً عين منفتحة، فضلاً عن وجود ضوء يخدم هذا وذاك. وإذا شاء المرء أن يسمع، فلابد من توافر شيءٍ آخر غير الموجات الهوائية والأصوات – لابد من وجود أذن مفتوحة لاستقبال الصوت. وإذا شاء الإنسان أن يفهم الأغراض التي يدركها بحواسه، فهو يحتاج أيضاً إلى لبٍّ واعٍ. إذاً، يجب أن نكون على علاقة بالشيء الذي نراه حتى نستوعبه ونحوزه كملك روحي لنا. فلا الأعمى يُبصر ولا الأصم يسمع، ولكن اللامبالي أيضاً لا يستطيع أن يفهم. فالشخص الذي تعوزه الأذن الموسيقية لا يستوعب الأنغام، والذي يعوزه الذوق الفني لا يتمتع بقصيدة أو, لوحة. إذاً، لابد من قيام علاقة ما، رابطة تناغم، بين الإنسان والعالم الخارجي، كي يصل إلى العلم أو المعرفة.

وفي دائرة الطبيعة، تظل تلك العلاقة كامنة بالقوة على العموم. حقاً إن الخطية أيضاً قد خلّفت آثارها في هذا المجال، بحيث إن الأعمى والأصم والأبله، وسواهم من المنكوبين، ليس لهم شيء من تلك العلاقة، وجميع البشر قد ضعُفت لديهم نفس العلاقة أو تشوشت. ولكن يمكن القول بصورة عامة إن الله جعل تلك العلاقة تستمر في دائرة الطبيعة. فما زال في وسع الإنسان أن يرى ويسمع، ويشعر ويفكر، ويعرف ويتعلم.

ولكن في دائرة الروح انفصمت هذه العلاقة كلياً من جراء الخطية. فإن تصورات قلب الإنسان شريرة منذ حداثته (تك 8: 21). والثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف، وشعب الرب لا يفهم (إش 1: 3). وجيل البشر يشبه أولاداً جالسين في الأسواق، ينادون إلى أصحابهم، قائلين: زمَّرنا لكم فلم ترقصوا، نُحنا لكم فلم تلطموا (مت 11: 16، 17). وهذا الشعب ليس له أعين تُبصر، ولا آذن تسمع، ولا قلوب تفهم (إش 6: 9؛ مت 13: 14، 15). حتى إن البشر، لما أعلن الله لهم ذاته في الطبيعة، لم يعرفوه ولا شكروه (رو 1: 21)؛ وعندما يعلن لهم ذاته في الإنجيل، لا يفهمون أمور روح الله، ويعثرون بجهالة الصليب، ويرفسون المناخس.[1] فالإنسان بالطبيعة ميتٌ بالنسبة إلى الله وإعلانه وجميع الأمور الروحية والسماوية. إنه لا يبالي بها ولا يهتم، ويفتكر فقط في الأرضيات، ولا يُسَرُّ بمعرفة طرق الرب. ذلك أن العلاقة بين الله والإنسان قد انفصمت. فليس بينهما بعد شركةٌ روحية ولا بينهما وحده فيها بعد.

ولذلك فإن الدعوة الداخلية عامةً تقوم على حقيقة كونها تسترد رباط العلاقة، وتوصل ثانية ما بين الإنسان والله روحياً حتى يُصغي الإنسان إلى كلمة الله ويفهمها. وعمل الروح القدس هذا في ما يتعلق بالدعوة الداخلية يطلق عليها الكتاب المقدس "الإعلان". فلما اعترف بطرس في نواحي قيصرية فيلبس بيسوع أنه المسيح ابن الله الحي، قال له المخلِّص: طوبى لك يا سمعان بن يونا، لأن لحماً ودماً لم يُعلن لك، بل أبي الذي في السماء (مت 16: 17). وهكذا أيضاً يشهد الرسول بولس أنه عند تجديده سر الله أن يُعلن ابنه فيه (غل 1: 16). هذا الإعلان لا يُشير إلى ظهور المسيح موضوعياً. فإنه حينما اعترف بطرس بيسوع أنه المسيح، كان المخلص قد عاش على الأرض وعمل عدة سنين، وقد أعلن غير مرة أنه هو المسيح (مثلاً، مت 11: 5 وما يلي)، واعترف به آخرون بهذه الصفة (مت 8: 29؛ 14: 33). ولكن لم يكن قد تمّ من قبل الاعتراف بيسوع على هذا النحو الواضح والحاسم أنه المسيح ابن الله، ولذلك يقول ما يفيد أن إعلاناً ذاتياً في قلب بطرس وذهنه كان هو الأمر الوحيد الذي جعله يعترف هذا الاعتراف الجريء القاطع. ذلك أن الله نفسه أنار الرسول داخلياً حتى رأى آنذاك في المسيح ما لم يسبق له أن رآه فيه بمثل ذلك الوضوح.

بكلمة أخرى، يتكون الإعلان المشار إليه في هذه الآيات من استنارة داخلية. ففي عالم الطبيعة، وُهبت أعيننا نوراً من الشمس، وهي بدورها تُنير الجسد كُلَّه، كما يُنير المصباح البيت (مت 6: 23). والذهن والعقل يُنيرهما في الإنسان ذلك الكلمة الذي كان عند الله، والذي كوّن كل شيء، من كان نور الناس وما يزال يُنير كل إنسانٍ في هذا العالم (يو 1: 1 – 9). وبسبب إنارة الذهن هذه، يستطيع الإنسان أن يتنبّه إلى العالم ويتفحصه ويعرفه. وهكذا، فإن حكمة الإنسان تنوّر وجهه (أم 8: 1).

[1]- أع 9: 5؛ 1كو 1: 23؛ 2: 14.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كذلك أيضاً توجد استنارة في عالم الروح. وقد سبق المرنَّم في أيام العهد القديم فصلّى طالباً إياها، إذ قال: اكشف عن عيني فأرى عجائب من شريعتك (مز 119: 18). وفي العهد الجديد، يتحدث بولس عن إعلان (غل 1: 16) وفي موضع آخر عن إنارة شارك فيها. فإن الله، خالق النور، قد أشرق أيضاً في قلب بولس، حتى يتمكن – بوصفه رسولاً وبواسطة الكرازة – من أن يجعل مجد الله يشعُّ على الآخرين، وأن يأتي بهم تالياً إلى معرفة هذا المجد (2كو 4: 6؛ قارن أف 3: 9).

وفي غير موضع يوصف عمل الروح القدس هذا على صعيد الدعوة الداخلية بأنه فتحُ الرب يسوع للقلب (أع 16: 14) أو للذهن (لو 24: 45)، حتى تُفهم كلمة الله وتُقبل على حقيقتها. ويُوصف هذا العمل أيضاً بصورة النمو الذي يعطيه الله للكلمة التي كرز بها الرسل (1كو 3: 5 – 9). لأن الرسل ليسوا إلا خداماً، عاملين مع الله، آلات بين يديه، بحيث إنهم ليسوا هم الذين يعملون بالحقيقة، بل نعمة الله التي معهم (1كو 15: 10). إنهم بالحقيقة لا شيء ولكن الله هو الكل، لأنه هو من يُعطي لبذرة الكلمة نموها، وعليه فالكنيسة كلُّها هي فلاحته وبناؤه. ويقيناً أن القدرة اللازمة لإحياء خاطئ ميت هي خارج طاقة أي مخلوق، ملاكاً كان أو رسولاً. فالقوة اللازمة لهذا ليست شيئاً أقل من القوة الإلهية القادرة على كل شيء، القوة نفسها التي أقامت المسيح من بين الأموات.

نعلم أن الرسول بولس يصلي لأجل مؤمني أفسس لكي يُعطيهم الله بعد روح الحكمة والإعلان، حتى يعرفوه ويُنير لهم عيون أذهانهم (أي بصائرهم). وهكذا يتسنى لهم أن يعرفوا، أولاً: أيُّ رجاءٍ عجيب وتوقّع مجيد يمنح الله للذين دعاهم؛ وثانياً: أيُّ ميراثٍ غنيٍّ بالمجد ينتظرهم في المستقبل؛ ثالثاً: أية عظمة فائقة لا تُقاس لقدرته التي يُبديها نحو المؤمنين من بداية دعوتهم، وطوال حياتهم، حتى المجد النهائي. ويستطيعون أن يكوّنوا فكرةً ما عن عظمة قدرة الله بأن يقيسوها بما عمله في المسيح إذ أقامه من بين الأموات وأجلسه عالياً جداً، فوق كل رياسة وسلطان، عن يمينه تعالى في السماء. ففي دعوة المؤمنين وتجديدهم وحفظهم وتمجيدهم، تظهر جلياً قدرة الله نفسُها التي ظهرت في قيامة المسيح وصعوده وتمجيده (أف 1: 15 وما يلي).

فبحسب ما جاء في الكتب المقدس إذاً، تعترف الكنيسة المُصلحة بأنه عندما يُجري الله مسرته في المختارين ويُنشئ فيهم التوبة الحقيقية، لا يدبر فقط أمر الكرازة لهم بالإنجيل خارجياً، كما أنه لا يُنير فقط بكل قوة أذهانهم بعمل الروح القدس، كي يفهموا ويميزوا بحق ما هو لروح الله، بل إنه أيضاً ينفذ إلى الإنسان الباطن بالعمل الفعال للروح المحيي نفسه هذا العمل، على حدّ تعبير الاعتراف عينه، هو عمل فائق الحد بجملته، عملٌ قوي جداً لكنه في الوقت نفسه عملٌ لطيف وعجيب وغامض ولا يُعبَّر عنه. إنه، بحسب شهادة كلمة الله المقدسة (المُعطاة، كما لا يفوتنا من قبل المصدر الإلهي عينه الذي يُتمُّ هذا العمل أو التأثير)، لا يقلُّ قوة عن القدرة التي تجلَّت في الخلق أو في إقامة الأموات (قوانين دورت، ج 3، ف 4، ص 12).

والتغيير الذي يُحدثه عمل الروح القدس في الإنسان هذا يُعرف بالتجديد. وهذه الكلمة ليست من كلمات الكتاب المقدس أصلاً، ولم ترد فيه لفظاً، بل إنها استُخدمت منذ أقدم الأزمنة في ديانة الهنود للدلالة على التغيير الذي يعتقدون أن النفس تجتازه عند الموت. فيُذكر أن النفس، بحسب الديانة الهندية، لا تحيا بعد الموت في حال انفصال، بل تدخل للحال جسداً آخر، سواء كان جسد إنسان أو حيوان أو نبات، تبعاً لتصرفها في أثناء تجسّدها السابق. وعندهم أن كل ولادة تنتهي إلى الموت، ولكن كلَّ موت يُفضي أيضاً إلى ولادة أخرى. وهكذا يكون كلُّ كائن بشري خاضعاً لسلسلة مستمرة من "الولادات الجديدة" على مدى القرون، حيث تتخذ النفس الواحدة تجسدات جديدة. وبحسب البوذية، لا يوجد عتق من هذا القانون الرهيب ومن كل معاناة للألم في العالم إلا حينما يعلم الإنسان في ذاته كيف يسكّن التوق إلى الوجود، وحينما يعمل على إبادة الذات، أو على الأقل على تحييد وعيه، وذلك بواسطة أعمال التقشف بجميع أنواعه. هذا الاعتقاد بوجود "ولادات جديدة" قديم جداً في الشرق، وما زال كثيرون حتى اليوم يرون فيه حكمة سامية.

غير أن الكتاب المقدس يتحدث عن تجديد البشر بمعنى آخر مختلف تماماً. وقد وردت اللفظة "تجديد" في العهد الجديد في موضعين أصلاً: مرة في (متى 19: 28)، حيث يشير المسيح إلى تجديد العالم الذي سيسبق إقامة الملكوت المجيد؛ وأخرى في (تيطس 3: 5)، حيث يقول بولس إن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الله خلصنا لا بأعمال برّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس. ومن الصعب أن نجزم هنا هل يفكر بولس في المعمودية كعلامة أو ختم للولادة الثانية أو هو يُشبّه بركات الولادة الثانية وتجديد الروح القدس بعملية استحمام يشرع فيها المؤمنون. ومهما كانت حقيقة الأمر، فإن العبارة المعطوفة "تجديد الروح القدس" تثبت أن التجديد ينطوي على تغيير روحي أدبي يحصل في المؤمن عند اهتدائه. وقرينة الكلام تؤيد هذا الفكر، إذ تفيدنا أن المؤمنين كانوا قبلاً أغبياء، غير طائعين، ضالين، مستعبدين لشهوات ولذات مختلفة، عائشين في الخبث والحسد، إلى ما هنالك (تي 3: 3)، غير أنهم قد خُلِّصوا إذ وُلدوا ثانية وتجددوا، وصاروا ورثة حسب رجاء الحياة الأبدية (الآيات 4 – 7). وعلى ذلك يُحرَّضون على ممارسة الأعمال الحسنة (الآية 8)، ما داموا تحديداً قد حصلوا بالولادة الثانية والتجديد على القدرة والرغبة للقيام بمثل هذه الأعمال.

غير أنه، وإن كان اسم "التجديد" في الأصل لا يرد في العهد الجديد إلا مرتين، يُشار إلى هذه الحقيقة عينها بكلمات وصور مختلفة. حتى أن العهد القديم ينبّه بني إسرائيل إلى ضرورة عدم الافتخار بعلامة الختان الخارجية ويشير عليهم بوجوب أن يختنوا غُزلة قلوبهم ولا يعودوا يُصلِّبون رقابهم (تث 10: 16). ويَعد العهد القديم أيضاً بأن الرب إلههم سوف يختن قلوبهم وقلوب نسلهم لكي يُحبوا الرب إلههم من كل قلوبهم ومن كل نفوسهم (تث 30: 6). وقد تحقق هذا الوعد لقديسي العهد القديم جزئياً، لكنه سوف يلقى إتماماً أوفى في المستقبل، يوم يعمل عهداً جديداً مع شعبه، ويسكب روحه على الجميع، ويُعطيهم قلب لحمٍ بدل قلب الحجر، ويكتب نواميسه على قلوبهم.[1]

ولما حان ذلك المستقبل واقترب ملكوت السماء، ظهر يوحنا المعمدان يكرز بالتوبة شرطاً لدخول الملكوت. وكان شعب إسرائيل، رغم امتيازاته الخارجية، فاسداً كلياً. فعلى الرغم من ختانه، احتاج إلى المعمودية، معمودية التوبة لأجل مغفرة الخطايا، معمودية يُغطَّس فيها الإنسان كلُّه لكي يخرج إنساناً جديداً يحيا حياة جديدة (مت 3: 2 وما يلي). وقد تولى المسيح الكرازة عينها بالتوبة والإيمان، وقبل هو نفسه المعمودية وطلبها من جميع الذين أرادوا أن يكونوا تلاميذاً له (مر 1: 14، 15؛ يو 4: 1، 2). وكلُّ من أراد أن يدخل الملكوت عليه أن يقطع كل علاقة له بسيرة حياته السابقة، أن يخسر نفسه (مت 10: 39)، وأن يتخلى عن كل شيء (لو 14: 33)، وأن يحمل صليبه ويتبع الرب (مت 10: 38)، وأن يصير مثل ولدٍ (مت 18: 3)، وأن يرجع إلى الآب معترفاً بالخطية (لو 15: 18)، وأن يدخل إلى الحياة الأبدية من الباب الضيق والطريق الكرب (مت 7: 14). وكلُّ من يريد أن يفعل ذلك، يعطيه الله نفسُه قدرة على فعله، لأن البشر أشرار (مت 7: 11). ومن قلوبهم لا تخرج إلا الشرور (مت 15: 19). فإنهم لا يجتنون ثمراً جيداً من شجرة رديئة (مت 7 : 17). إذاً، إن شئنا الحصول على ثمرٍ جيد، فلابد أولاً من جعل الشجرة جيدة، ولا يقدر أن يعمل هذا إلا الله وحده (مت 19: 26). فالذين يغرسهم الآب السماوي غرساً هم أولاد الله ومواطنو ملكوت السماء (مت 15: 13) وهم الذين أعلنهم الابن للآب، والآب للابن (مت 11: 27؛ 16: 17). ومع أنهم كانوا من قبل أمواتاً بالروح، فلهم الآن نصيب في الحياة الحقيقية وهم ينتظرون الحياة الأبدية (مت 8: 22؛ لوقا 15: 24؛ 18: 30).

في جميع تعاليم المسيح هذه كما تعرضها لنا روايات الأناجيل الثلاثة الأول، لا ترد كلمة "التجديد"، غير أن الحقيقة ذاتها معلنة بوضوح. وعليه، فعندما يقول الرب يسوع في مقابلته لنيقوديموس إنه لا يقدر أحد أن يرى ويدخل ملكوت الله ما لم يولد ثانيةً (من فوق) من الماء والروح (يو 3: 3 – 8)، عندئذٍ لا تتعارض شهادته مع شهادة الأناجيل الأخرى. بل إنه بالأحرى في تعليمه هذا لنيقوديموس يلخّص بإيجاز ووضوح ما كان قد عرضه في مواضع أخرى علناً وبأكثر تفصيل. ونحن نعلم أن نيقوديموس كان شخصاً مرموقاً، معلّماً عند بني إسرائيل، وعضواً في مجلس السنهدريم. وكان قد سمع بمعجزات المسيح، ولذلك حسبه معلّماً مرسلاً من عند الله. لكنه لم يكن متيقناً في ذهنه فظلّ في شكٍّ من أمره. وهكذا قصد إلى يسوع ليلاً – لئلا يُثير ريبة اليهود وعداءهم – لعله يتيقن بمقابلة سرية ما إذا كان يسوع هو المسيح فعلاً. وعليه، يستهلُّ نيقوديموس المحادثة بإظهار اقتناعه بأن يسوع هو معلمٌ جاء من لدن الله وأعطاه الله القدرة على القيام بأعماله العجيبة التي يعملها. ويبدو أنه أراد أن يُنيط بذلك سؤالاً عما ينبغي أن يعمله الإنسان ليدخل ملكوت السماء. ولكن المسيح لم يمهله حتى يطرح السؤال، بل أجابه في الحال: الحق الحق أقول

[1]- إر 24: 7؛ 31: 13 – 34؛ 32: 39؛ حز 11: 19؛ 36: 26 – 28، يؤ 2: 28؛ ومواضع أخرى.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لك، إن كان أحد لا يولد (ثانيةً) من فوق، لا يقدر أن يرى ملكوت الله. وهكذا ينـزع المسيح، بإيماءةٍ واحدة، من نيقوديموس كلَّ اعتبارٍ للاستحقاق البشري ولحفظ الناموس على طريقة الفريسيين سبيلاً إلى دخول الملكوت.

من هنا لا يتكلم المسيح حرفياً عن ولادة "ثانية" من جديد، بل عن ولادة "من فوق". فالتشديد لا يقع على حقيقة كون الإنسان يحتاج إلى ولادة ثانية لدخول الملكوت، وإن كان التجديد يمكن أن يُحدَّد هكذا بصورة طبيعية للغاية. ولكن الرب يسوع يريد أن يؤكد لنيقوديموس على الحقيقة القائمة في أنه لا سبيل للإنسان إلى دخول الملكوت إلا إذا وُلد "من فوق" (ع 3)، من الماء والروح القدس (ع 5)، من الروح (ع 8). هذه الولادة هي على نقيض الولادة الجسدية، لأن المولود من الجسد هو جسد (ع 6). إنها ولادةٌ ليست من الدم، ولا من مشيئة الجسد، ولا من مشيئة الإنسان، بل من الله (يو 1: 13). من هنا كونُها أمراً لا يُدرك مصدرُه واتجاهه، إلا أنها ممكنة رغم ذلك لأنها ولادةٌ من الروح (ع 8). فبعد ما قال المسيح أولاً بوجه إجمالي إنها ولادةٌ من ماء وروح (وكلتاهما في الأصل غير معرَّفتين) (ع 5) يتحدث بالتحديد في الآيتين 7، 8 عن الروح (بالتعريف هذه المرة)، والغاية أن يُبيِّن أن هذا الروح، لكونه روح الله، يقدر أن يُحدِث عملية الميلاد الثاني العظيمة هذه. وإذ يذكر المسيح الماء (ع 5) لا يقصد المعمودية بالدرجة الأولى، بل إنه بالأحرى يُشير إلى طبيعة الولادة من فوق. فهي ولادةٌ لها صفةُ التجديد والتطهير – وصورة هذين حاصلةٌ في الماء (حز 36: 25). وهي ولادة تُوجِد حياة روحية جديدة، الأمر الذي تحققه الولادة من فوق لأنها ولادة من الروح القدس، أي من الله نفسه (ع 6 – 8).

هذا، وفي العهد الجديد فصولٌ أخرى تُلقي أضواءً كاشفة على هذا التعليم الأساسي من تعاليم المسيح. فالتجديد هو عملٌ يُجريه الله. إذ منه يُولد المؤمنون (يو 1: 13؛ 1يو 3: 9؛ 5: 18). وهو الذي يدعوهم فعلاً (رو 8: 30). وهو يُحييهم (أف 2: 1)، ويلدهم (يع 1: 18)، ويُجدِّدهم (1بط 1: 2). لكنه لا يمنح هذه البركة إلا بالاشتراك مع المسيح الذي أعطاه خاصته (يو 6: 37، 39)، ويجذبهم إليه (يو 6: 44)، ويدمجهم فيه (رو 6: 4؛ أف 2: 1؛ غل 2: 20). وهو يُجري ذلك بواسطة عطية الروح القدس الذي ينفذ إلى قلب الإنسان، والذي هو مُبدئ الحياة الجديدة.[1] والمؤمنون، بفضل ولادتهم من الله هم عملُه، مخلوقين في المسيح (أف 2: 10)، وفلاحته وبناءه (1كو 3: 9)، وخليقةٌ جديدة (2كو 5: 17). فالتجديد ليس عملاً من صنع القوة البشرية، ولا حصيلة تطور طويل وتدريجي للحياة الطبيعية، بل هو بالأحرى تغيير كلّي لنمط الوجود العتيق وخلقٌ أوليٌّ لحياةٍ روحية جديدة. إنه موت الإنسان العتيق وقيامة الجديد (رو 6: 3 وما يلي).

ومع هذا، فإن التجديد ليس في المقابل خَلْقاً ثانياً من العدم، كالخَلْق الأول، بل هو خلقٌ من جديد للإنسان الذي نال حياته الأولى بولادته من أبويه. ففي التجديد، يبقى الإنسان في جوهره هو الشخص نفسه والذات نفسها والشخصية نفسها. ويقول بولس عن نفسه أنه قد صُلِبَ مع المسيح وأنه ليس هو من يحيا فيما بعد بل إن المسيح يحيا فيه. لكنه يُردف فيقول: الحياة التي أحياها الآن في الجسد إنما أحياها بإيمان ابن الله (غل 2: 20). فإن ذاته قد ماتت ودُفنت مع المسيح، إلا أنها أيضاً أُقيمت في الحال مع المسيح. إنها لم تُمحق ولم تحلّ محلَّها ذاتٌ أخرى، بل قد وُلدت ثانية وجُدِّدت. وعلى هذا النحو أيضاً يقول بولس عن مؤمنين معينين في كورنثوس إنهم كانوا قبلاً زناةً وعبدة أوثان وفاسقين وما إلى ذلك لكنَّهم غُسلوا وقُدِّسوا وبُرِّروا باسم الرب يسوع وبروح إلهنا (1كو 6: 9 – 11). إذاً، لا يقضي التجديد على استمرارية الكائن البشري ووحدته وتماسكه، بل بالأحرى يُحدث في هذه تغييراً مهماً على نحوٍ هائل.

هذا التغيير روحيٌّ في طبيعته. فما يُولد من الروح هو روح (يو 3: 6). إنه يحيا بفضل الروح ويسلك حسب الروح. فالتجديد يغرس في داخل الإنسان مبدأ حياةٍ جديدة، مبدأ يُنشئه الروح القدس بقدرةٍ خلاّقة على ارتباط بقيامة المسيح الذي منه يتلقّى كل شيء (1بط 1: 3). فهو يزرع بذرةً في القلب (1بط 1: 23) ينبت منها شخصٌ جديدٌ كلياً. وعلى نحوٍ غامض وسرّي جداً ينطلق التجديد ويتركز في لبّ الشخصية الإنسانية، في ذاتية الإنسان إن صحّ التعبير (غل 2: 20)، لكنه من هناك ينتشر ليشمل جميع قدرات الشخص: ذهنه (رو 12: 2؛ 1كو 2: 12؛ أف 4: 23)، وقلبه (عب 8: 10؛ 10: 16؛ 1بط 3: 4)، وإرادته (رو 7: 15 – 21)، ورغباته وميوله (رو 7: 22)، وروحه ونفسه

[1]- يو 3: 3، 5، 8؛ 6: 63؛ رو 8: 9؛ 1كو 12: 3؛ 1بط 1: 2.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وجسده (1تس 5: 23؛ رو 6: 19). فإنه يُولد إنسانٌ كامل، وإن يكن غير بالغٍ بعد، وعليه أن يُصارع خطايا الجسد بكلِّ أنواعها (غل 5: 17)، إلا أنه يرغب في أن يسلك في جدّة الروح (رو 6: 4؛ 7: 6).

فبحسب الإنسان الجديد يُخلق المؤمنون من جديد على صورة المسيح في البرّ والقداسة الحقيقيَّين.[1] إنهم ليسوا بعد على صورة الإنسان العتيق، آدم الأول، بل تظهر فيهم صورة الإنسان الثاني، الرب من السماء (1كو 15: 48، 49). وقد صُلبوا للعالم، ولم يعودوا يحيون هم، بل يحيون في ذاك الذي مات لأجلهم وقام (2كو 5: 15؛ غل 2: 20؛ 6: 14). لقد نالوا مركزاً مختلفاً لكلٍّ أفكارهم وأعمالهم، لأنهم يحيون ويتحركون ويُوجدون في المسيح، وقد لبسوه بالمعمودية كثوب، وتظهر فيهم هيئته، وهم في كل حين يتغيرون أكثر فأكثر إلى تلك الصورة عينها، من مجدٍ إلى مجد، كما من الرب الروح.[2] وبهذه الشركة مع المسيح هم أولاد الآب السماوي، يُحبون الله والأخوة، وسيكونون مثله يوماً لأنهم سيرونه كما هو (1يو 3: 2؛ 5: 2؛ وآيات أخر). على هذا النحو الغني والمجيد يتكلم الكتاب المقدس عن التجديد، وهو لا يفعل ذلك بالدرجة الأولى لكي نُدرك هذا التعليم على حقيقته خير إدراك، بل بالأحرى كي نشترك شخصياً في هذه البركة العظيمة من بركات نعمة الله ونتعلم كيف نسلك كأولادٍ لله في هذا العالم الشرير. فيا لها من قوةٍ تصدر عن الكنيسة إن هي لم تكتفِ بتدوين صورة المسيح في اعترافها بل تعرضها أيضاً في الحياة العملية التي يحياها كلٌّ من فيها!

إنها لحقيقةٌ أكيدة أن الشجرة تُعرف من ثمارها. فالشجرة الجيدة تثمر ثمراً جيداً، والإنسان الصالح يُخرج أموراً صالحة من كنز قلبه الصالح (مت 7: 17؛ 12: 33، 35). وما دام التجديد يغرس في القلب مبدأ حياة جديداً، فينبغي أن يظهر ذلك – ولا بد أن يظهر فعلاً – في الأعمال التي تنبثق من تلك الحياة الروحية. وفي طليعة هذه الأعمال اثنان: الإيمان، من جانب الذهن؛ والتوبة، من جانب الإرادة.

وعلى العموم، فإن الإيمان – كما هو متعارفٌ عليه أيضاً في أمور الحياة – هو قبول شهادة ما. فإننا نؤمن بشيءٍ ما، أو نصدقه، عندما لا نكون قد رأينا ذلك الشيء بأمّ العين أو قد أدركناه ولكننا نتيقن منه رغم ذلك لأن شخصاً آخر موضع ثقة قد أطلعنا عليه، إما شفاهاً وإما كتابةً، إما ماضياً وإما حاضراً. هذا المعنى الأساسي للكلمة يظلُّ قائماً أيضاً عندما ننقلها إلى الدائرة الدينية، ومن الواجب أن نحتفظ بهذا المعنى، لأننا لا نعرف شيئاً عن مضمون الإنجيل الكامل، وعن شخص المسيح وعمله، سوى ما تلقيناه بشهادة الرسل. فبكلامهم فقط يمكننا أن نؤمن بالمسيح (يو 17: 20). وعن طريق الشركة مع الرسل نصل إلى الشركة مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح (1يو 1: 3).

على أن كلمة "الإيمان" حين تُستعمل في الدائرة الدينية، وتُطلق في الكلمة المقدسة بالتحديد على الطريق المُفضي إلى ملكوت السماء، يتعدل معناها على نحوٍ ذي شأنٍ ومغزى بفضل هذا الاستعمال الخاص. قد يقبل المرء الإنجيل أيضاً قبولُه لشهادةٍ تتعلق بشخصٍ أو حدثٍ تاريخي، ولكن ذلك ليس قبولاً للإنجيل باعتباره الإنجيل، وفي تلك الحال لا يكون الإيمان الذي به يقبل ذلك الشخص الإنجيل هو الإيمان الحقيقي. وطالما شهد اختبار جميع الأنبياء والوعّاظ والرسل وخدّام الكلمة في الكنيسة وفي العالم الوثني – نعم، واختبار المسيح نفسه – أن الكلمة لم تجد قبولاً لدى الكثيرين ولم يكن لها تأثيرٌ فيهم. من صدّق خبرنا، ولمن استُعلنت ذراع الرب؟ فالناس الذين يسمعون بشارة الإنجيل يقفون منها مواقف ذهنيةً متباينة جداً، ويتخذون إزاءها مواقع تختلف كثيراً.

وقد بيّن المسيح هذه المواقف والمواقع المتفاوتة في المثل الذي ضربه عن الزارع. فعند بعضهم، تقع بذار الإيمان على الممرات الواقعة على تخوم الحقل فتأتي الطيور وتلتهمها، وهؤلاء هم غير المكترثين، غير المتجاوبين، المتبلّدون، من يسمعون الكلمة لكنَّهم يصغون إليها كشأنٍ لا يعنيهم البتة. لا يهتمون بها شخصياً أدنى اهتمام، ويفترضون أنها غير موجَّهة إليهم. فالكلمة لا تقع داخل حقل قلوبهم، بل على جوانبه، على الممرات القاسية المطروقة. بل إنهم بالحقيقة غالباً ما لا يُبقونها في الذاكرة. فكأنها تدخل من أذن لتخرج من الأخرى. ولا تكاد تمضي لحظات قلائل حتى

[1]- رو 8: 29؛ أف 4: 24؛ كو 3: 10.
[2]- 2كو 3: 18؛ غل 3: 27؛ 4: 19.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تكون حالُهم كأنهم لم يسمعوها من قبل. وإذا الكلمة تُطرد خارج أذهانهن بفعل الطيور التي تمثّل كل نوعٍ من أفكار المناقضة والاستخفاف وعدم الإيمان والتجديف، تلك التي يستخدمها الشرير وسائل بيده. هؤلاء يسمعون الكلمة لكنَّهم لا يفهمون معناها (مت **13**: **4**، **19**).

وعند آخرين، تقع بذار الكلمة على الأماكن المُحجِرة حيث لا يكون لها تربةٌ عميقة بما يكفي. فتنبت البذار حالاً، لأن ليس لها عمقُ أرض، ولكن عندما تُشرق الشمس، تذوي وتجف لأنها بلا جذور. هؤلاء هُم السطحيون، السريعو التأثر، المتقلّبون. إنهم لا يسمعون الكلمة فقط، بل يقبلونها حالاً بفرح. إذ تستهويهم البشارة لجمالها وسمّوها أو بساطتها وعذوبتها، وتخلّف لديهم أيضاً انطباعاً ما. يتأثرون بها وتتحرك مشاعرهم، ويرون فيها نوعاً من القوة، ونتيجةً لذلك يتخذون كل نوعٍ من العزائم الحسنة. غير أنهم لا يدعون الحق يؤثر فيهم تأثيراً عميقاً ويضرب جذوره في أعماق قلوبهم، بل يُحلّونه في مخيلتهم، في عقولهم وأفهامهم دون أن يفتحوا له أعماق كيانهم. فتكون على السطح طبقة رقيقة من التربة تقع فيها الكلمة، ولكنَّ كل شيء تحتها باردٌ وجامد وقاسٍ كالصخر. من هنا لا يقدر هؤلاء أن يتحملوا الضيق والتجارب التي تأتي عليهم، ولا الاضطهاد والمِحَن. فإذا حدث ذلك، عثروا وسقطوا. ويكون إيمانهم إلى حين (مت **13**: **5**، **6**، **20**، **21**).

وآخرون تسقط الكلمة عندهم بين الشوك، فيطلع الشوك مع البذار (لو **8**: **7**) ويخنقها، فتصير بلا ثمر. هؤلاء هم سامعو الكلمة ذوو التفكير الدنيوي، فقلوبهم ملأى بالأشواك، غاصّة بهموم الحياة وتجارب الغنى، وقد ابتلعتهم هموم العالم أو تجاربه. إنهم يسمعون الكلمة، ويقبلونها أيضاً. فأحياناً تنفذ الكلمة من خلال هذه الهموم والمسرات العالمية وتصل قلوبهم. وتراودهم حيناً فكرة بأنه ربما يكون أفضل لهم لو قطعوا علاقتهم بالعالم وطلبوا ملكوت الله. وأحياناً يستبدُّ بهم الخوف من الدينونة. ولكن حالما توشك البذرة أن تُفرِخ، تطلع الأشواك، أي هموم العالم وشهواته، وتخنق ولادة الحياة الجديدة. فهؤلاء الأشخاص لا يبلغون البتة نقطة ترْك كلِّ شيء وحَمْل صليبهم وإتباع المسيح. إذ إن قوة العالم تغلبهم دائماً (مت **13**: **7**، **22**).

وعلى هذا كلِّه، يوجد تصديقٌ أو قبولٌ لبشارة الإنجيل لكنه ليس، هو الإيمان الحقيقي. صحيحٌ أن هنالك اللا مبالين المتعالين الذين، شأنهم شأن بيلاطس الذين ينظرون إلى البشارة بابتسامة سخرية (يو **18**: **38**). وهنالك أيضاً أولئك الذين مثلُهم مثل الفريسيين المتكبرين واليونانيين الحكماء، الذين يجدون في الصليب عثرةً وجهالة، ويهاجمونه بعداء سافر ووحشية عنيفة.[1] ولكن هناك قوم مؤمنون لا يبلغون حد الاعتراف لأنهم يحبون تمجيد الناس لهم أكثر من مجد الله (يو **12**: **42**، **43**). فطوال حياتهم، حتى ساعة مماتهم، يظلُّون سامعين للكلمة غير عاملين بها.[2] وكسمعان السامري، يقبلون الإنجيل للعجائب والمعجزات العظيمة التي تجري بواسطته (أع **8**: **13** وما يلي). وكأغريباس، يتأثرون عند نقطة معينة في حياتهم ويقتنعون بضرورة أن يصيروا مسيحيين (أع **26**: **27**، **28**). وكديماس، قد يخدمون الإنجيل سنين ثم يعودون لمحبة العالم الحاضر (2تي **4**: **10**). فالإيمان على أنواع شتى: إيمانٌ وقتي، وإيمان تاريخي، وإيمان "عجائبي" – أي إيمان تثيره الآيات والمعجزات، وهذه كلُّها تحمل اسم الإيمان، لكنها ليست إيماناً بمعناه الحقيقي. وأصحاب مثل هذا الإيمان لهم صورة التقوى لكنهم يُنكرون قوتها (2تي **3**: **5**).

أما الإيمان الحق، الإيمان الذي يخلص، فيتميز عن سائر هذه الأنواع بثلاث نواحٍ. ففي المقام الأول، لهذا الإيمان مصدر مختلف. إن الإيمان التاريخي والإيمان الوقتي والإيمان العجائبي ليسوا خطأً في حد ذاتهم. فجميعهم أفضل من عدم الإيمان الكلي والعداء السافر. ولهم أيضاً نفع مؤقت. لكنهم من هبات نعمة الله العامة فحسب، وهم يوهبون أيضاً للإنسان الطبيعي. إلا أن الإيمان الخلاصي هو عطية من الله، مثل الخلاص بجملته (أف **2**: **8**). إنه عطية من عطايا نعمة الله الخاصة (في **1**: **29**) ونتيجة للاختيار (أع **13**: **48**؛ رو **8**: **30**؛ أف **1**: **5**). وهو عمل من أعمال الروح القدس (1كو **12**: **3**) وثمرٌ من ثمار التوبة (يو **1**: **12**، **13**).

إن المولودين ولادة طبيعية فحسب، ينتمون إلى العالم، وهم من أسفل ويحبون الظلمة أكثر من النور، ولا يفهمون الكلمة. إلا أن التجديد يعلّل سبب استجابة قومٍ لدعوة الإنجيل وقبولهم المسيح (يو **1**: **12**، **13**). فهؤلاء وُلدوا من الله، وهم من الحق، وقد اقتادهم الآب إلى المسيح،

[1]- مت 12: 24؛ يو 8: 22؛ 1كو 1: 23.
[2]- يو 1: 11؛ 3: 3؛ 3: 19، 20؛ 6: 44؛ 8: 47؛ 1كو 2: 14؛ وآيات أخر.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وهم يسمعون صوته ويفهمون كلامه ويتبعونه.[1] والروح القدس الذي وُلدوا منه يشهد مع أرواحهم أنهم أولاد الله (رو 8: 16) ويجعلهم ينطقون بالاعتراف بأن المسيح هو ربهم (1كو 12: 3).

ثم إن الإيمان الخلاصي، في المقام الثاني، وبفضل مصدره هذا، ينبغي أن يتميز عن سائر الأنواع بجوهره أيضاً. لاشك أن فيه عنصر معرفة، لأنه معني بشهادة تتناول أموراً غير منظورة وأبدية لم نرها نحن بأعيننا ولا يمكن أن نراها. ولا قِبَل لهذا الإيمان بأن يبني الحق فقط على الحياة المجدَّدة ولا على الاختبار الديني الذاتي والمشاعر الشخصية. ذلك أن المؤمنين، وإن كانوا قد نالوا مسحة الروح القدس من القدوس – أي المسيح – ويعلمون كل شيء (1يو 2: 20)، يدينون للمسيح تحديداً بفضل ذلك الروح، ويظلون ملتزمين التقيّد بكلمة الحق التي سمعوها معاً على أساس الرسل والأنبياء (أف 2: 20).

غير أن المعرفة المختصة بالإيمان الخلاصي هي من نوع خاص. فهي ليست معرفة نظرية بحتة يتولى أمرها العقل والذاكرة فقط وتبقي الإنسان في ما عدا ذلك جامداً وغير مبالٍ. إنها لا تقوم على المستوى الواحد عينه مع المعرفة الحاصلة في العلم عن طريق البحث والتفكير، كما لا ينبغي أن تعادل بتصديق خبر تاريخي يتعلق بأمر وقع في الماضي. فالمعرفة الإيمانية معرفة عملية، معرفة قلبية أكثر منها عقلية، معرفة عميقة يُعنى بها الشخص نفسَه بكلِّ جوارحه، إذ إنها تتعلق بشيءٍ يهمُّ النفس في لُبِّ جوهرها – شيءٌ يتناول وجودي وحياتي ونفسي وخلاصي. إذاً الإيمان تصديق، وقبول، ومعرفة لشهادة تبلغ الإنسان ولكنه قبولٌ لتلك الشهادة بتطبيقها على الذات – قبولٌ لكلمة خبرٍ من الله لا ككلمة بشر بل باعتبارها كلمة الله (1تس 2: 13). إنه تصديقي في قرارة نفسي لبشارة الإنجيل بوصفها رسالة يبعثها الله إليّ شخصياً.

وفي المقام الثالث، ترتبط بما تقدم حقيقة كون الإيمان الخلاصي مختلفاً عن غيره من حيث الغرض. فالإيمان التاريخي يتوقف عند الخبر الخارجي ولا ينفذ إلى ما دونه. والإيمان الوقتي يرى في الخبر جمالاً ما يبتهج به، لكنه في الحقيقة يرفض التسليم بمضمونه ومعناه الحقيقي. كذلك يتعلق الإيمان العجائبي بالآيات والعجائب، لكنه لا يبالي أساساً بالرب الذي يُجريها. على أنه عندما نقبل البشارة بقلبٍ صادق ككلمةٍ يعطينا الله إياها شخصياً لا يمكن أن هذا الإيمان الخلاصي يتركنا خاوين وبلا ثمر. فلو أن شخصاً مسافراً علم أن أسرته في خطرٍ عظيم لكان لا يتابع سفرته بكل هدوء على أكثر احتمال. كذلك تماماً لا يُحتمل أن من يؤمن بالبشارة حقاً ويرى ضرورة الاستجابة لها شخصياً، ويدرك بالتالي أنه مذنبٌ وهالك وأنه لا فداء في المسيح يسوع وحده، يظلُّ مع ذلك بارداً ولا مبالياً تجاهها. فالإيمان الصادق، على النقيض، يبدأ سريعاً في العمل في أولئك الذين يقبلونه. وهو لا يدعهم يستريحون بل يدفعهم نحو المسيح باطّراد. فإيمان كهذا لا يقنع بمجرد الخبر الموضوعي، بل ينفذ إلى داخل الإنسان الذي يتبلّغ الخبر.

هكذا كانت الحال في العهد القديم أيضاً. فالقديسون الذين يظهرون أمامنا هناك هم دائماً مشغولون وعاملون مع الله نفسه. أحياناً، يُدعى ذلك إيماناً[2] ولكن فعل الإيمان هذا ليس مجرد اقتناع عقلي بأن الله موجود، بل هو الاتكال على الله بكل النفس والسلوك بمقتضى كلمته. من هنا تُستعمل ألفاظ مختلفة للتعبير عن هذا الإيمان. فيقال دائماً عن القديسين إنهم يتكلون على الله، ويلجأون إليه، ويرجونه، ويخافونه، ويتوقعون كل شيء من عنده، وينتظرون، ويستندون إليه، ويطلبونه. وهكذا الحال أيضاً في العهد الجديد. فالرسل الذين أطلعونا على حقيقة الإيمان، ليسوا كتّاب تاريخ بمعنى الكلمة المألوف، بل هم عاشوا في شركة مع المسيح ومنها تكلموا عما خبروه. والإيمان هو قبول المسيح، لا مجرد الشهادة المتعلقة به كما قدمها الرسل. إنه قبول للمسيح شخصياً (يو 1: 12). وهو يتضمن لبس المرء للمسيح كما يلبس ثوباً (غل 3: 27)، كما يتضمن أيضاً موت الإنسان مع المسيح والقيامة معه (رو 6: 4)، والحياة في الشركة معه (غل 2: 20)، والثبات فيه بوصفه الكرمة الحقيقية. إلى غير ذلك فالله، في المسيح، وهو أبو القديسين، وهم بنوه وبناته (2كو 6: 18).

[1]- يو 3: 3، 5؛ 6: 44؛ 8: 47؛ 10: 5، 27.

[2]- تك 15: 6؛ خر 14: 31؛ 2أخ 20: 20؛ إش 28: 16؛ حب 2: 4.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وباختصار، فإن الإيمان الخلاصي ليس مجرد معرفة معينة وقناعة راسخة ويقين ثابت فيما يتعلق بالشهادة النبوية والرسولية باعتبارها كلمة الله، بل هو في الوقت عينه ثقة وطيدة، كما لشخص في آخر، بالمسيح نفسه باعتباره ملء النعمة والحق المُعلَنين فيه من قبل الله. والأمران مرتبطان أحدهما بالآخر ارتباطاً لا تنفصم عراه. فبغير معرفة، لا إمكانية لثقة ولا اتكال. إذ كيف نثق بشخص لا نعرفه؟ وبالعكس أيضاً، فإذا كانت المعرفة لا تُفضي إلى الثقة والاتكال لم تكن معرفةً من النوع الصحيح، فالعارفون اسم الرب، يتكلون عليه (مز **9**: **10**). ولكن الذين لا يتكلون عليه لا يكونون بعد قد تعلّموا أن يعرفوه كما هو بالحقيقة من خلال كلمته. وكل من يلتمس المسيح خارج نطاق كلمته، وبالروح القدس فقط، يفتقد إلى المعيار الصالح لامتحان الأرواح، وقد يصل أخيراً إلى حدّ اعتبار روحه الذاتية وروح المسيح أمراً واحداً؛ وكل من يدرس الكلمة بغير روح المسيح إنما يدرس الصورة فيما يتجاهل الشخص الذي تمثّله.

لهذا السبب أعطانا المسيح كلا الأمرين: كلمته وروحه. وروح المسيح هو الذي يؤدي الشهادة نفسها في الكلمة المقدسة وفي قلوب المؤمنين. وعند التجديد يزرع الروح الكلمة في قلوبنا (يع **1**: **18**، **21**؛ 1بط **1**: **23**، **25**)، وهو يوجّه حياة المؤمنين الروحية، بمقتضى طبيعته، فيردّهم دائماً إلى الكلمة لكي يغذيهم بها ويقويهم. وما دمنا هنا على الأرض لن يأتي يوم فيه نستغني عن الكلمة المقدسة، لأن هذه الكلمة هي الوسيلة الوحيدة لتوطيد شركتنا مع المسيح الحي الحقيقي الذي صُلب مرة لكنه الآن جالس عن يمين الله. فالمسيحية ديانة تاريخية، ولكنها ديانة الحاضر أيضاً. إذ إن فيها كلمة ترسم لنا صورة المسيح، ولكن فيها أيضاً روحاً به يسكن المسيح الحي نفسه في قلوبنا. لهذا السبب، يجمع الإيمان المعرفة والثقة كلتيهما. فهو قبولٌ للمسيح نفسه في رداء الكلمة المقدسة.

وكما أن الإيمان هو ثمر التجديد من جانب العقل، فكذلك التوبة هي التعبير عن الحياة الجديدة من جانب الإرادة. هذا الأمر يُطلعنا عليه العهد القديم مراراً وتكراراً. فبعد تحرير بني إسرائيل، قادهم الرب إلى سيناء وأدخلهم في عهده. وبوصفهم شعباً لله، كان ينبغي لهم أن يحفظوا ذلك العهد ويُطيعوا صوت الرب، فيصيروا له مملكة كهنة وأمّة مقدسة (خر **19**: **5**، **6**). ولكن الشعب، وهو بعد في البرية، ارتكب ذنب الخيانة والعصيان. ثم تفاقم الارتداد في أرض كنعان، إذ سكن الشعب هناك بين شعوب وثنية. فلما فني الجيل الأول وقام بعده جيلٌ آخر لم يعرف الرب ولا العمل الذي عمله للشعب، حينئذٍ فعل بنو إسرائيل الشرَّ في عيني الرب وعبدوا البعل (قض **2**: **10**، **11**).

من هنا صارت الدعوة إلى التوبة ضرورية بين بني إسرائيل. وفي أول الأمر أقام الرب قضاةً أنقذوا الشعب من أيدي أعدائهم وردوهم إلى عبادة الرب. وفيما بعد، جاء الأنبياء ينذرون الشعب كي يتوبوا عن طرقهم الرديئة ويحفظوا وصايا الله وفرائضه حسب الشريعة التي أوصى بها الآباء (2 ملوك **17**: **13**). وقد بدأ صموئيل ذلك (1صم **7**: **3**)، وكرَّر جميع الأنبياء الكرازة ذاتها: فجميعهم مُنادون بالتوبة والرجوع إلى الرب، لكنهم أيضاً معلنون لمغفرة الخطايا والفداء الكامل.[1] ومن ثم كانت هناك توبةٌ ما ملموسةً بين الشعب أحياناً. فلما استعبدهم أعداؤهم وجاروا عليهم، بدأوا يصرخون إلى الرب (قض **3**: **9**، **15**؛ **4**: **13**؛ ومواضع أخرى). وقد حدثت إصلاحاتٌ كبرى أو صغرى على أيدي الملوك الأتقياء، آسا ويهوشافاط ويوشيا وحزقيا.[2] وذهب يونان إلى نينوى، واستجابةً لمناداته آمن أهلها بالله ودعوا إلى صوم ولبسوا مسوحاً، ورجعوا عن طريقهم الرديئة (يون **3**: **5**، **10**). ونقرأ عن أخاب أنه بعد إنذار إيليا له بالدينونة اتّضع أمام الرب (1ملوك **21**: **27**، **29**)، وعن منسّى أنه في آخر حياته طلب وجه الرب واعترف بأن الربَّ هو إلهه (2أخ **33**: **12**).

ومع أن هذه التوبة كانت لدى بعضهم، كما هو مفترض، صادرةً عن رغبة صادقة ومخلصة، فقد كانت عند عامة الشعب لا تكاد تتعدّى التغيير الظاهري فكما تكلم إرميا، لم يتوبوا بكل القلب بل بالكذب (إر **3**: **10**). ولذلك واصل الأنبياء دعوتهم إلى التوبة. فقد ظلّوا يبرزون ضرورة التوبة وواجبها، وشددوا باستمرار على ضرورة توبة الشعب عامة أيضاً لكل شخصٍ بمفرده، أن يتوب ويترك طريقه الرديئة ويرجع إلى الرب (حز **18**: **23**، **32**: **33**: **11**). وعندما يتمادى الشعب في تجاهل هذه التحريضات تنضج لدى الأنبياء الفكرة بأن مناداتهم سيكون لها مفعول دينونةٍ على الشعب (إش **6**: **10**)، وأن إسرائيل تحولت أغصان كرمةٍ برية (إر **2**: **21**)، وأنها لا تقدر على التوبة كما لا يستطيع الزنجيُّ

[1]- إر 3: 12، 14؛ 18: 11؛ 25: 5؛ حز 14: 6؛ 18: 30 – 32؛ 33: 11؛ هو 12: 6؛ 14: 3؛ يؤ 2: 12، 13؛ وآيات أخر.
[2]- 1مل 15: 11 وما يلي؛ 22: 47؛ 2مل 23: 15؛ 2أخ 33: 12.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أن يُغيِّر جلده أو النَمِر رُقطه (إر 13: 23)، وأن الله هو من يمنح التوبة ويُعطي القلب الجديد.[1] ويتطلّع الأنبياء بشوقٍ إلى اليوم الذي فيه يصنع الله عهداً جديداً ويختن قلوب الشعب ويكتب شريعته عليها.[2]

ذلك اليوم بزغ فجره، حسب كرازة يوحنا المعمدان والرب يسوع، باقتراب ملكوت السماوات. وقد نادى كلاهما بأن التوبة تفتح الطريق إلى الملكوت وكلِّ بركاته – لا أية مجهودات لحفظ الشريعة ولا البر الذاتي الفرّيسي (مر 1: 4، 15). وللدلالة على هذه التوبة، يستعمل العهد الجديد كلمتين في الأصل اليوناني أولاهما اسمٌ أو فعلٌ[3] يعني تغييراً روحياً داخلياً، تغييراً في الموقف الأدبي. واللفظة الثانية[4] تشير بالأحرى إلى التوبة العملية، إلى تغيير اتجاه الحياة، أي الرجوع الذي هو نتيجة التغيير الداخلي وإعلانُه. وفي (أع 3: 19، 26: 20)يتمُّ الجمع بين الكلمتين: توبوا وارجعوا، أي غيِّروا موقفكم ومسلككم، ارجعوا إلى رشدكم وغيّروا اتجاهكم.

ولما كُرز بالإنجيل في أيام الرسل لكل اليهود والأمم، وقَبِله قومٌ من هؤلاء وأولئك، واقتضى ذلك أيضاً تغييراً خارجياً يراه الآخرون. فكان على اليهود أن يتخلوا عن حفظهم لشريعة موسى، ولاسيما الختان ونظام الذبائح بجملته، وعلى الأمم أن يُقلعوا عن وثنيتهم وعبادتهم للصور وممارساتهم الدينية. وهكذا كان الانتقال إلى المسيحية يتطلّب قدراً وافياً من إنكار الذات ومن الجرأة. والشخص الذي كان يقوم بذلك إنما كان يقوم به بفضل الاقتناع القلبي، بإخلاصٍ وصدق، إذ لم يكن ممكناً أن يُحصِّل كرامة أو ربحاً من وراء ذلك. وتبعاً لهذا، كان الأمران المعبَّر عنهما بالكلمتين اليونانيتين اللتين تُفيدان معنى التوبة والرجوع مترابطين في العادة ترابطاً وثيقاً جداً. فالتغييران الداخلي والخارجي سارا جنباً إلى جنب.

هذا التحول الكليّ، في الداخل والخارج معاً، كان في المعمودية المقدسة ختمُ المصادقة عليه (أع 2: 38): فكلٌ من قبل المعمودية أعلن قطع علاقته بماضيه، وانفصل عن أترابه، وصُلب للعالم، ومات مع المسيح، ودُفن معه بالمعمودية؛ لكنه في الوقت نفسه أُقيم مع المسيح إلى حياةٍ جديدة، ولبس المسيح كثوبٍ جديدٍ ومختلف يظهر به أمام العالم، وصار تلميذاً للمسيح وتابعاً، وخادماً له وجندياً، وعضواً في جسده، وهيكلاً للروح القدس.[5] وما دام على الكنيسة المسيحية أن تنتشر في العالم بين اليهود والأمم، لم تكن التوبة مجرد تغيير داخلي، بل كانت أيضاً رجوعاً خارجياً، إقلاعاً عن عبادة الأوثان البُكم (1كو 12: 2؛ 1تس 1: 9)، وعن العبادة الباطلة حسب أركان العالم (غل 4: 3؛ كو 2: 8، 20)، وعن الأعمال الميتة (عب 9: 14؛ 1تس 1: 9)، وعن خطايا العلن والتعدّيات،[6] لكي يتمَّ الانصراف مذ ذاك فصاعداً على عبادة الله الحي الحقيقي (عب 9: 14؛ 1تس 1: 9) والإخلاص للرب وحده (1كو 6: 15 – 20).

ولكن لما مضت فترة الإعداد هذه ترسّخت الكنيسة عبر الأجيال، لم يتغير الرجوع إلى الرب بطبيعته الجوهرية في الواقع، ولكنه وضع جانباً ذلك المظهر الخارجي الخاص الذي اتخذه تعبيراً عن حقيقته فيما مضى، الأمر الذي اقتضاه تغيُّر الحال. وهكذا درجت العادة على إدخال الأطفال في العهد عقب ولادتهم، فعُمّدوا بالعماد المقدس، علامةً على ذلك وختماً له، وبذا كانوا يُدمجون في جسد المسيح، ولو قبل أن يبلغوا الإدراك الذاتي فيخصصون الإيمان لأنفسهم. وغالباً ما كان يحدث بطبيعة الحال أن أعضاء الكنيسة الذين عُمِّدوا كباراً أو صغاراً يسقطون فيما بعد في خطايا كبرى أو صغرى. وكان هنالك مذاهب، أمثال المونتانيين والنوفاتيين، تعتقد أن الكبائر لا يُمكن ولا يجوز أن تسامح الكنيسة بها. غير أن الكنيسة على العموم وقفت موقفاً مغايراً، فكانت تستردّ إلى شركتها أولئك الذي سقطوا أو ضلّوا إذا عادوا تائبين نادمين واعترفوا بخطاياهم، وأخضعوا أنفسهم للتأديب الكنسي الكنسية.

---

[1]- مز 51: 12؛ إر 31: 18؛ مرا 5: 21.
[2]- تث 30: 2، 6؛ مز 22: 28؛ هو 3: 5؛ إر 24: 7؛ 32: 33.
[3]- مت 3: 2، 8، 11؛ 9: 13؛ 11: 20؛ أع 3: 38؛ 2كو 7: 9، 10.
[4]- مت 13: 15؛ لو 1: 16، 17؛ 22: 32؛ أع 9: 35؛ 11: 21؛ 14: 15؛ 15: 19؛ 26: 18، 20؛ وآيات أخر.
[5]- رو 6: 3 وما يلي؛ غل 3: 27؛ كو 2: 11، 12.
[6]- 1كو 6: 10؛ أف 2: 2، 3؛ كو 3: 5، 7؛ تي 3: 3.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

عن هذا الطوق شبّ سر التوبة تدريجياً. فبات المؤمنون الذين يرتكبون صغائر أو كبائر يعترفون بها للكاهن على كرسيّ الاعتراف، ويُبدون ندماً أو أسفاً كاملاً أو ناقصاً (كاملاً حين يحزن المرء على خطاياه لأنه أخطأ إلى الله، وناقصاً حين يخشى العواقب وما شابه)، وأخيراً يقومون بالصلوات والأعمال الصالحة التي يُمليها كاهن الاعتراف على التائب. وهكذا باتت التوبة في الكنيسة الرومانية أمراً خارجياً صرفاً. فقد انتقل جوهر القضية من تغيير الموقف القلبي الداخلي إلى الاعتراف والتكفير الذاتي، إذ كانت الندامة غير الكاملة كافيةً للحصول على التحرر من الخطايا. حتى إنه كان بمقدور المرء أن يُعفى من أعمال التوبة التكفيرية بالحصول على صكّ غفران.

عند هذه النقطة بالذات افترق الإصلاح على يد لوثر عن الكنيسة. فبقراءة لوثر للعهد الجديد اكتشف أن التوبة بالمعنى الكتابي المقدس كانت أمراً مختلفاً تماماً عن إجراءات التوبة التي مارستها الكنيسة. ولكن لوثر مع ذلك ظلّ يفصل التوبة عن الإيمان فصلاً أبعد كلاً منهما عن الآخر كثيراً. فقد شعر في ضميره الخاص بلعنة الناموس ووجد راحته في تبرير الخاطئ بالإيمان وحده. وعلى حدّ ما تصور الأمر، اعتبر أن الرجوع إلى الله، بمعنى تبكيت الضمير والتوبة والندامة، قد حصل عن طريق الناموس، أما الإيمان فعن طريق الإنجيل. وقُيِّض لكالفن فيما بعد أن ينظر نظرةً أفضل في حقيقة هذه العلاقة، فأتى بتفسيرٍ لها يختلف نوعاً. فكما جاء في الكتاب المقدس، فصل كالفن بين التوبة الحقيقية والتوبة الزائفة (إر 3: 10) بين حزن العالم والحزن الذي بحسب مشيئة الله (2كو 7: 10)، بين الندامة، أي الحزن على عملٍ خاطئ، والتبكيت القلبي من جراء إثارة الإنسان لغضب الله بسبب خطيته. فإن الندم على عمل خاطئ قد يحدث أيضاً عند أهل العالم. وحين تكون للخطية عاقبة مختلفة عما كان متوقعاً، حين تُفضي إلى الخسارة والخزي، يشعر العالم أيضاً بالندم. ولنا بيّنة على هذا في أمثال قايين (تك 4: 13) وعيسو (عب 12: 17) ويهوذا (مت 27: 3). ندمٌ كهذا لا يؤدي إلى التوبة الصادقة، بل يُفضي إلى الموت ويجلب معه اليأس والمرارة وقساوة القلب.

غير أن الرجوع والتوبة الحقيقيين ليس قوامهما مثل هذا الندم الذي يتأسف على عواقب الخطية بل بالأحرى انكسار القلب الداخلي (مز 51: 17؛ أع 2: 37)، أو الحزن الناشئ من الخطية ذاتها، لأنها ضد مشيئة الله ومثيرةٌ لغضبه، وتأنيب الضمير الصادق، وكُره الخطية والنفور منها. هذه التوبة لا تطلع من الإنسان العتيق بل من الإنسان الجديد. فهي تفترض وجود إيمان خلاصي، وهي ثمر هذا الإيمان. وقوامُها حزنٌ يريده الله ويُنشئه، وإليه تعالى تتجه انفعالاته، ويُنشئ توبةً لخلاصٍ لا ندم عليه (كو 7: 10). فلما ثاب الابن الضال إلى رشده ونوى أن يعود إلى البيت، قال: أقوم وأذهب إلى أبي وأقول له: يا أبي، أخطأت إلى السماء وقدامك (لو 15: 18). فهو ينطق باسم "الآب" بلسانه وإن كان ما يزال بعيداً عنه. وهو يتجاسر أن يذهب إلى الأب ويعترف بخطاياه أمام وجهه، لأنه يؤمن في قرارة قلبه بأن الأب هو أبوه. ونحن ما كنا لنجرؤ على الالتفات نحو الله لو لم نثق في قرارة نفسنا، وبعمل الروح القدس، بأنه يقبل اعترافنا بالخطايا ويغفر لنا بوصفه أباً لنا. فالتوبة الحقيقية مرتبطة بالإيمان الخلاصي الحقيقي ارتباطاً لا ينفصم.

ومن هنا أن المعالجة الوافية لرجوع الإنسان إلى الله لا تنتمي إلى عقيدة الشقاء والفداء بل إلى الإقرار بفضل الله (التعليم المسيحي لهيدلبرج – 33). وأحياناً تُفهم كلمة "الاهتداء" أو الرجوع بمعنىً أوسع لتشمل التغيير الكلي الواجب أن يجري في الإنسان ليصير ابناً من أبناء الله ومواطناً من مواطني الملكوت. فكما أن المسيح في (يوحنا 3) يتكلم عن الولادة الجديدة فقط، وفي مواضع أخرى، في (مرقس 16: 16) مثلاً، عن الإيمان فقط بوصفه الطريق المؤدي إلى الخلاص، فكذلك في (متى 4: 17) يذكر التوبة وحدها. ورغم كل شيء فالمرء لا يستطيع أن يحوز بركةً من هذه البركات دون الأخرى. فالإيمان والتوبة، من حيث المبدأ، تنطوي عليهما الحياة الجديدة التي تبدأ بالولادة الجديدة، وهما ينتجان منها حتماً ويُعبِّر عنهما في حينه. ولكن مع أن هذه الأمور لا يمكن فصل أحدها عن الآخر، فمن الممكن تمييزها بعضها من بعض. وإذاً، فالتوبة هي ثمرة من ثمار التجديد الذي يفترض بدوره وجود الإيمان. وفي هذه الحال أيضاً تكون التوبة وتبقى عطية من عطايا الله وعملاً من أعماله، لا في بدايتها فقط بل في استمرارها أيضاً.[1] لكن التوبة أيضاً، بفضل الحياة الجديدة التي تكون قد سُكبت في الإنسان، عملٌ من أعمال الإنسان[2] لا يقتصر على لحظة واحدة بل يدوم مدى الحياة.

[1]- إر 31: 18؛ مرا 5: 21؛ أع 5: 31؛ 11: 18.
[2]- أع 2: 38؛ 11: 21؛ رؤ 2: 21؛ 2: 5، 16 وما يلي.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ثم إن التوبة، على وحدتها في الجوهر، تختلف من حيث الشكل باختلاف الأشخاص الذين يختبرونها والظروف التي تحيط بحدوثها. فالطريق التي يسلكها أولاد الله هي طريق واحدة، إلا أنهم يُقادون على تلك الطريق بطرائق متنوعة ولهم اختباراتٌ متنوعة. فيا له من تنوع ظهر في القيادة التي قاد بها الله مختلف الآباء، ويا له من تباين شهده تجديدُ كلٍّ من منسّى وبولس وتيموثاوس! وما أبلغ الاختلاف بين اختبارات أشخاص مثل داود وسليمان، ويوحنا ويعقوب! هذا التفاوت عينُه نلحظه أيضاً، خارج نطاق الكتاب المقدس، في حياة آباء الكنيسة ورجال الإصلاح وسائر القديسين. وما إن ترى أنظارنا غنى الحياة الروحية، حتى نُقلع عن عادة الحكم على الآخرين وفقاً لمعيارنا لضئيل. فرُبَّ قومٍ لا يعرفون غير أسلوب واحد فقط، ولا يعتبرون أحداً أنه قد تاب ما لم يكن قادراً على التحدث عن الاختبار الروحي نفسه الذي اختبروه أو يزعمون أنهم اختبروه. غير أن الكتاب المقدس أغنى كثيراً وأوسع جداً من ضيق مثل هذه التحديدات. ففي هذا المجال أيضاً تنطبق الكلمة القائلة: "أنواعُ مواهبَ موجودةٌ، ولكن الروح واحد؛ وأنواع خِدَمٍ موجودة، ولكن الرب واحد؛ وأنواع أعمال موجودة، ولكن الله واحدُ الذي يعمل الكلَّ في الكلِّ" (**1**كو **12**: **4 – 6**). فليس قوام التوبة الصادقة ما يعتبره الناس بل ما يقوله الله. على تنوُّع التدبيرات والاختبارات، فإن قوامها – ولابد أن يكون قوامها – موت الإنسان العتيق وقيامة الجديد.

وما هو موت الإنسان العتيق؟ إنه ندامة قلبية على كوننا أثرنا بخطايانا غضب الله، ندامةٌ فيها نكره خطايانا أكثر فأكثر وننفر منها.

ثم ما هي قيامة الإنسان الجديد؟ إنها فرح قلبي في الله بالمسيح، ورغبة ومحبة بالعيشة لأجل الله في كلِّ عمل صالح.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الثالث

التبرير

الولادة الجديدة، تُظهر ذاتها في ثمار الإيمان والتوبة، بفتح الطريق إلى ملكوت الله. وكلُّ عضوٍ في هذا الملكوت، يتمتع في الحاضر بكلِّ البركات التي ينطوي عليها الملكوت. ويمكن تلخيص هذه البركات في ثلاثٍ: البرّ والقداسة والسعادة. وها نحن ننظر الآن في أولاهُنّ.

يُعرّف البرّ عادةً بأنه تلك الإرادة الثابتة والدائمة لدى الكائن العاقل والتي تُعطي كلَّ حقه. ويتضمن البرّ، أولاً، موقفاً أو ميلاً روحياً من جانب الشخص الذي يُحسب له؛ وثانياً، سياسةً أو تصرفاً تجاه الآخرين يصدر عن الموقف أو الميل الأصلي ويعترف بحقوقهم. فمع أن كلمة الله المقدسة، على حدّ ما سنرى، تُدخل تعديلاً فريداً على هذه الفكرة المعهودة عن البرّ أو العدل، فهي تنطلق مع ذلك من الفكر الأساسي عينه. ذلك أن البرّ هو الإنصاف الذي يمتلكه الشخص نفسه كما أنه العمل العادل الذي يقوم به فيما يتعلّق بالآخرين.

بهذا المعنى ينسب العهد القديم البرّ أو العدل إلى الله. فهو تعالى الصخر الكامل صنيعُه، إن جميع سبله عدلٌ: إله أمانة لا جور فيه، صدّيقٌ وعادلٌ هو (تث **32**: **4**). هذا البرّ لا يُستنتج في الكتاب المقدس من التأمل في الكائن الإلهي، لكنه يُعزى إلى الله على أساس إعلانه. فهكذا أعلن نفسه لشعبه من البداية. وهو لم يتكلم في الخفاء، في مكان مظلم من الأرض، ولا قال لنسل يعقوب: باطلاً اطلبوني. إنه الرب المتكلِّم بالصدق، المخبر بالاستقامة. وبينما الوثنيون يعبدون إلهاً لا يقدر أن يخلِّصهم، أعلن الله نفسه لبني إسرائيل بأنه الرب الكائن الذي لا إله آخر غيره، وهو الإله البار المخلِّص (إش **45**: **19** – **21**). وهو يقيم في وسط شعبه بوصفه الرب العادل، من لا يفعل ظُلماً، وكلَّ صباحٍ يُبرِز حكمه إلى النور (صف **3**: **5**).

وقد تم التعبير عن ذلك البرّ أولاً في الشرائع التي أعطاها للشعب. فالبرّ بالنسبة إلينا كامن في كياننا وذلك من حيث موقفُنا وسلوكُنا معاً، نستجيب لقانونٍ ما. لكننا لا نستطيع أن نتكلم عن برّ الله بأي معنىً كهذا. إذ لا قانون فوقه تعالى فيستجيب له. فقوام برّه هو حقيقة كونه ينسجم مع نفسه انسجاماً كاملاً. وكلُّ الحقوق والقوانين تجد لها مصدراً فيه تعالى، وجميع هذه الشرائع عادلة لأنها صادرة منه على وفق مع كينونته ومشيئته. فمرةً تساءل موسى: أيُّ شعبٍ له فرائض وأحكام عادلة مثل كل هذه الشريعة التي أنا واضعٌ أمامكم اليوم؟ (تث **4**: **8**). ويجيب القديسون: وصايا الرب مستقيمة، تُفرح القلب؛ أمر الرب طاهر، يُنير العينين. خوف الرب نقيٌّ، ثابت إلى الأبد؛ أحكام الرب حقٌّ عادلةٌ كلُّها. هي أشهى من الذهب والإبريز الكثير، وأحلى من العسل وقطر الشهاد (مز **19**: **8** – **11**؛ **119**).

ولكن برّ الله مُعلَنٌ بعد في هذا: أن تظل هذه الشرائع سارية المفعول ويطلب من شعبه أن يحيو بموجبها. وقد سبق أن ألقى على عاتق الإنسان الأول وصيةً واحدة من لدنه (تك **2**: **16**). وبعد السقوط أيضاً لا يتنازل عن واحد من مطالبه. وفي أحكام دينونته، كالطوفان وبلبلة الألسنة، علامات على ذلك. فهو يعتبر جميع الأمم ملزمين شريعته في ضمائرهم (رو **1**: **20**، **32**؛ **2**: **15**). على أنه يُلقي مطلبه على شعبه القديم خصيصاً، إذ اتخذه له شعباً خاصاً بمحبته الشاملة، فعليهم بالتالي أن يحفظوا عهده ويطيعوا كلامه ويسلكوا في طرقه (خر **19**: **5**). وفي هذا لا يطلب الرب من شعبه شيئاً لا مسوّغ له، لأنه من جهته أنجز كل شيء لكرمه، وينتظر أن يصنع عنباً جيداً (إش **5**: **4**). فقد أخبرهم الرب ما هو صالح، وماذا يطلب منهم الآن غير أن يصنعوا الحق ويحبوا الرحمة ويسلكوا متواضعين مع إلههم؟[1]

وأخيراً، يُعلن الله برّه في كونه يدين جميع الشعوب وسوف يدينهم، بمن فيهم أيضاً شعبه القديم، بحسب عدله المطلق. فإن الرب مشرّع وملك، لكنه أيضاً قاضٍ (إش **33**: **22**). صحيح أنه أحياناً، في مواجهة المتذمرين الذين يزعمون أن الله لكي يثبت برّه (أي **40**: **2**)، يشدد على سيادته المطلقة فيما يفعله، وينبّه خصوصاً على أن جميع سكان الأرض يحسبونك لا شيء، وأن الله يفعل كما يشاء في جند السماء وسكان الأرض،

[1]- مي 6: 8؛ عا 5: 14، 15؛ إش 1: 16، 17.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وليس من يكفُّ يدَه أو يقول له: ماذا تفعل؟ (دا 4: 35). إنه صانع كل شيء، ولا يستطيع أي مخلوق أن يجادله أو يخاصمه (إش 45: 9). وهو الفخاري الذي يمسك الشعب بيده كالطين (إر 18: 6؛ إش 10: 15). غير أن هذه العبارات لا يُستفاد منها إطلاقاً أنها تمثل الله كطاغية يتصرف كيف ما بدا له. بل إنها بالأحرى تدعو الإنسان إلى التواضع والانحناء أمام جلال أفكار الله وفرادة طرقه (إش 55: 8، 9). فهو عزيز وعظيم القدرة والقوة، لكنه لا يرذل أحداً، بل بالأحرى يهتم بالإنسان ويعامله بحسب الحق (أي 36: 5؛ 37: 23).

ويستطيع الله أن يفعل هذا لأنه كلّي العلم ومطلق العدل. أما بالنسبة لحكام الأرض فغالباً ما تكون الحال على خلاف هذا، لهذا السبب يناشدهم العهد القديم مراراً وتكراراً أن لا يحابوا الوجوه في القضاء،[1] ولا يقبلوا رشوة،[2] ولا يجوروا على المسكين والغريب واليتيم والأرملة،[3] وأن يبرروا البار ويحكموا على المذنب ويقضوا للشعب قضاءً عادلاً.[4] فإن مبرِّئ المذنب ومذنِّب البريء كلاهما مكرهة الرب.[5] غير أن الرب البار العادل يُحب البرّ والعدل، ووجهه نحو الأبرار.[6] يمينُه ملآنةٌ براً، والعدل والحقُ قاعدة كرسيه.[7] إنه غير منحاز ولا يحابي الوجوه ولا يقبل رشوة،[8] والفقير والغني كلاهما صنعة يديه،[9] وليس هو من ينظر فقط إلى المظهر الخارجي، إذ إنه ينظر إلى القلب،[10] بل إنه يفحص القلوب ويختبر الكُلى.[11] الكُلى.[11] وذات يوم سيقضي للمسكونة بالعدل ويدين الشعوب بالاستقامة.[12] ولسوف يتعالى بالعدل ويتقدّس بالبرّ.[13]

على أنه ما دام قوام بر الله هو أنه يتعامل مع جميع الناس على نحو تام بمقتضى عدله ويقضي لجميع البشر بموجب معيار شريعته المقدسة، فكيف يقدر أي واحد من بني آدم على الإطلاق أن يحظى بإعلان التبرئة من الذنب أمام الله وينال من لدنه الحق بالحياة الأبدية؟

من المؤكد أنه لا يمكن أن يوجد أدنى شك في حقيقة كون جميع البشر بلا استثناء مذنبين بتعدّيهم ناموس الله ومستحقين للعقاب الذي عينه تعالى نظير هذا التعدي. فمنذ معصية آدم صار تيار جارف من عدم البر متسلطاً على الجنس البشري بصورة دائمة لا تنقطع. ذلك أن تصورات قلب الإنسان إنما هو شرير كل يوم (تك6: 5؛ 8: 21). فالجميع يولدون غير طاهرين؛ الجميع زاغوا وفسدوا معاً، وليس من يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد.[14] فإنه ليس من إنسان لا يخطئ، ولا أحد يستطيع أن يقول: إني قد زكّيت قلبي وتطهّرت من خطيئتي.[15] وإن كان الرب يراقب الآثام، فمن يقف أمامه؟[16] فما دام هذا هو وضع البشر، فكيف يُعقل أن يوجَد للإنسان تبرير أمام الله ومن قبل الله؟

إلا أن العهد القديم نفسه، فيما يعلن بهذه الصراحة مراراً وتكراراً كون الجنس البشري قاطبة خاطئاً وأثيماً، يذكر أيضاً الأبرار والمستقيمي القلوب رغم أنهم يعيشون في عالمٍ مليءٍ بالشرّ. وهكذا يُدعى نوح رجلاً بارّاً وكاملاً في أجياله (تك 6: 9؛ 7: 1)، ويحظى أيوب من الله نفسه بالشهادة بأنه رجلٌ كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر.[17] وفي المزامير أيضاً يُشار إلى جماعة صغيرة من الأبرار يقفون على طرفي نقيض من الأشرار ويُقاسون كثيراً على أيديهم.[18] كذلك يُعنى سفر الأمثال دائماً بهذه المفارقة عينها بين البشر.[19] وهكذا أيضاً الأنبياء يميزون بين

---

[1]- تث 1: 17؛ لا 19: 15؛ أم 24: 23.
[2]- تث 16: 19؛ خر 23: 8؛ إش 5: 23.
[3]- خر 23: 6، 9؛ مز 82: 2 – 4؛ إش 1: 12.
[4]- تث 16: 19؛ 25: 1.
[5]- أم 17: 15، 26؛ 18: 5؛ 24: 24.
[6]- مز 11: 7؛ 33: 5؛ 99: 4؛ إر 9: 23.
[7]- مز 48: 11؛ 89: 14؛ 97: 2.
[8]- تث 10: 17؛ 2أخ 19: 7.
[9]- أي 34: 19.
[10]- 1صم 16: 6؛ 1أخ 28: 8.
[11]- مز 7: 10؛ إر 11: 20؛ 20: 12.
[12]- مز 9: 8؛ 96: 13؛ 98: 9.
[13]- إش 5: 16.
[14]- أي14: 4 ؛25: 4 – 6؛ مز51: 7؛ مز14: 3.
[15]- 1مل 8: 46؛ أم 20: 9؛ جا 7: 20.
[16]- مز 130: 3؛ 143: 2.
[17]- أي 1: 1، 7؛ 2: 3.
[18]- مز 1: 5؛ 14: 5؛ 32: 11؛ 33: 1؛ 34: 16؛ ومواضع أخرى.
[19]- أم 2: 20 – 22؛ 3: 33؛ 4: 18؛ 10: 3؛ ومواضع غيرها.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

نواة صغيرة من الشعب تظلُّ أمينةً مع الرب وكثرةٍ غالبة يمعنون في الانغماس بالوثنية والإثم.[1] ويفرّق حزقيال بطريقة واضحة بين الأبرار والأشرار، وهو لا يفكر إذ ذاك في جماعات بين الشعب بل في أفراد منه.[2]

ولكن ليس هذا هو الأمر الوحيد الذي يدهشنا في العهد القديم. فأكثر إدهاشاً منه حقيقة كون هؤلاء الأبرار (المستقيمي القلوب، أو أياً كان لقبهم) ليسوا البتة خائفين من عدالة الله أو برّه، ولا يراودهم ولو مرة واحدة الخوف من أن تكتسحهم دينونته. حقاً أن هذه الدينونة ستكون رهيبة على الأشرار.[3] غير أن القديسين يعتبرون برّ الله هذا أساس توسلاتهم ويطالبون به. فهم يسألونه أن يستجيب لهم وينقذهم لأنه إله البرّ (مز 4: 1؛ 143: 1)، ويتوقعون منه – خاصة وأنه الإله البار الفاحص القلوب والكُلى – أن يثّبتهم (مز 7: 9)، وينقذهم (مز 31: 2)، ويفديهم (مز 34: 22)، ويهتم بإنصافهم (مز 35: 23 وما يلي)، ويغفر لهم (مز 51: 1– 6)، ويستجيب لهم ويُحييهم (مز 119: 40؛ 143: 1)، ويُخرج من الضيق نفوسهم (مز 143: 11).

أحياناً ما يتقدم الصدّيقون متوسلين إلى برّ الله فيتّخذون صورة المطالبة بأن ينقذهم الله بحسب برِّهم هم – وإن كان هذا يبدو لنا أمراً لا يُصدق لأول وهلة. فأيوب لم يقبل أن يعترف بأنه مذنب، إدراكاً منه لسلوكه الطاهر والمستقيم (أي 29: 12 وما يلي؛ 31: 1 وما يلي)، وفي النهاية يؤيد الله برّ أيوب في مواجهة أصحابه (أي 42: 7). ونسمع كثيراً في المزامير أصداء هذه الصرخة: اقضِ لي يا ربُ كحقي ومثل كمالي الذي فيّ.[4] وهو ذا إشعياء يردّ صدى شكوى الشعب: قد اختفت طريقي عن الرب، وفات حقي إلهي (إش 40: 27). ولكن النبي قد أُرسل إلى الشعب تحديداً ليُعلن لهم باسم الرب أن الحال هي على خلاف ذلك. فبعد التأديب والعقاب، يأتي الفداء والإنقاذ. إذ إن الجهاد قد كمل والإثم قد عُفي عنه (إش 40: 2)، والرب قد قرّب برّه ولن يؤخر خلاصه (إش 46: 13). وكما أنه في طريق فدائه يتداخل مرة بعد أخرى في حياة قديسيه، ويجعل حُكمهم يخرج من حضرته (مز 17: 2) مجرياً العدل والقضاء للمعوزين والمظلومين،[5] فكذلك أيضاً سيتولى في الأخير إنصاف شعبه بنفسه.[6] فسوف يشمّر عن ذراعه المقدسة أمام أنظار جميع الأمم، ويُخرج من فمه كلمة صدق، وبالبرّ يثبّت شعبه.[7] وهو إلهٌ بارٌ ومخلِّص (إش 45: 21)، وفيه البرّ والقوة، وبرّ شعبه من عنده، وبه يتبرر ويفتخر كل نسل إسرائيل.[8]

إذاً، يتضح جلياً من العهد القديم ليس فقط أنه قد وُجد في بني إسرائيل أشخاصٌ أبرار بل أيضاً أنهم يلجأون إلى برّ الله التماساً لخيرهم وخلاصهم. ويُرجَّح أن هذا الواقع يؤثر فينا بكونه غريباً بعض الشيء، لأننا ميّالون إلى وضع عدل الله في مناقضة رحمته. غير أن قديسي العهد القديم لا يُقيمون مفارقةً كهذه. إنهم يربطون ربطاً وثيقاً عدلَ الله بنعمته ورحمته، وصلاحَه بحقِّه، وإحسانه بأمانته.[9] فيقولون إن الرب رحيم وصدِّيق (مز 112: 4؛ 116: 5) وإن حوادث إنقاذه شهادة على صلاحه وإجادته.[10] ولهذا، فإن برّ الله وعدله، مَثَلُهما مثلُ رحمته على السواء، هما موضوع حمد القديسين وسُبحِهم كل حين.[11]

ولكن كيف يُمكن ذلك؟ كيف يُعقل أن أناساً جميعُهم خطاةٌ يقفون لحظةً في حضرة الله القدوس كأناسٍ مبرَّرين وأبرار؟ من أين لهم أن يتمتعوا بالبرِّ من جانبهم، وكيف لهم أن يُعفى عن خطاياهم وذنوبهم وتكون لهم شركة طيبة مع الله وذلك بحسب عدله وبرِّه؟

---

[1]- 1مل 19: 18؛ إش 1: 8، 9؛ 4: 3؛ 6: 5.
[2]- حز 3: 18 وما يلي؛ 18: 5 وما يلي؛ 33: 8 وما يلي.
[3]- إش 59: 16 – 18؛ إر 11: 20؛ 20: 12؛ مز 7: 12؛ 9: 5، 6؛ 28: 4؛ 129: 4.
[4]- مز 7: 9؛ 17: 1؛ 18: 20 – 25؛ 24: 4 – 6؛ 26: 1؛ 37: 18 آيات أخر.
[5]- مز 103: 6؛ 140: 13؛ 146: 7.
[6]- إش 49: 25؛ 51: 22؛ إر 50: 34؛ 51: 36؛ مي 7: 9.
[7]- إش 45: 23؛ 51: 5؛ 52: 10؛ 45: 14.
[8]- إش 45: 24، 25؛ 54: 17.
[9]- مز 33: 5؛ 40: 11؛ 51: 16؛ 89: 15؛ 103: 17؛ 143: 11؛ إر 9: 24؛ هو 2: 18.
[10]- قض 5: 11؛ 1صم 12: 7؛ مي 6: 5.
[11]- مز 7: 17؛ 22: 31؛ 35: 28؛ 40: 10؛ 51: 16؛ 71: 15 ومواضع أخرى.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أكان هذا ممكناً لأن ذلك الشعب في أيام العهد القديم كان هو شعب الله، والهيكل كان في وسطهم، وكانوا يأتون بقرابينهم من التيوس والعجول بكل حماسة؟ لقد كان في بني إسرائيل كثيرون وضعوا ثقتهم في هذا وحسبوا بالتالي أن الشر لن يدنو منهم لأجل ذلك. غير أن الأنبياء الذين قاموا باسم الرب علَّموا الشعب خلاف هذا تماماً. فبينما كان الشعب يتباهى بامتيازاته الخارجية، أجمع الأنبياء على الإعلان أن هذه هي أشبه بقصبات مرضوضة تدمي يد من يتوكأ عليها. فهو ذا النبي عاموس يقول: ألستم لي كبني الكوشيين يا بني إسرائيل – يقول الرب؟ ألم أُصعد إسرائيل من مصر، والفلسطينيين من كفتور، والآراميين من قير؟ (عا 9: 7). وفي مواجهة الأنبياء الكذَبة الذين اتكلوا على كلام الكذب قائلين: هيكل الرب، هيكل الرب، هيكل الرب هو، أعلن إرميا حكم الدينونة قائلاً: إن الرب سيصنع بذلك البيت الذي دُعي باسمه عليه كما صنع بشيلوه. فيما يتعلق بالتقدمات والذبائح أيضاً، علم قديسو الشعب جيداً أن هذه في حدِّ ذاتها غير مرضية للرب (مز 40: 9؛ 51: 6). وعلى ألسنة الأنبياء أعلن الربُّ نفسُه قائلاً: أتخمت من محرقات الكباش وشحم المسمّنات، ولست أُسرُّ بدم عجولٍ وخرفان وتيوس.[1]

تُرى، هل كان أساس الرجاء في الخلاص بين قديسي العهد القديم هو برَّهم الذاتي؟ ألهذا السبب كان لديهم مثل هذا الرجاء الصالح من جهة المستقبل؟ هل ظنوا أن أعمالهم الصالحة تستطيع الصمود أمام دينونة الله؟ ربما خطر لنا لحظةً فكرٌ كهذا عندما نلاحظ، كما في شخص أيوب مثلاً، إلى أي مدىً كانوا واثقين ببراءتهم كلَّ الثقة (أي 29: 12 وما يلي؛ 31: 1 وما يلي)، وكم مرة يركنون إلى استقامتهم وأمانتهم وبرِّهم،[2] وكيف يتحدثون دائماً عن حقهم أو قضائهم،[3] وكيف أن الرب نفسه يحسبهم أبراراً.[4] ولكن عند إنعام النظر في هذا الفكر بتدقيق يتبين لنا أن هذا الأساس أيضاً يتداعى وينهار.

بعد كلِّ شيء، فإن هذا الاتكال من جانب قديسي العهد القديم إلى برِّهم يصاحبه أو يبادله اعترافٌ بالخطايا بكل تواضع. فأيوب لا يتكلم عن آثام صباه وحسب، بل في النهاية أيضاً يرذل نفسه ويتوب جالساً في التراب والرماد (أي 13: 26؛ 42: 6). وفي (مز 7: 8) يتحدث داود عن كماله، لكنه في مواضع أخرى ينبذ كل برٍّ لديه ويعترف بمعاصيه أمام الرب، ويبتهج فقط بغفران خطاياه (مز 32: 5، 11). ويتوسل دانيال إلى الله لا على أساس برِّه بل على أساس مراحم الرب التي هي عظيمة (دا 9: 18). وفي سفر إشعياء يعترف الشعب التقيُّ بأن كل أعمال برِّهم هي كخرقة نجسة، وأن الجميع ضلوا كغنمٍ لا راعي لها، ومالوا كلٌّ واحدٍ إلى طريقه، ولكن الرب وضع على عبده إثم جميعهم. وفي (مزمور 130: 3، 4) يقول المرنِّم إنه إن كان الرب يراقب الآثام، فمن يقوى على الوقوف في حضرته، ولكن عنده المغفرة لكي يُخافَ منه. إن جميع قديسي العهد القديم هؤلاء يُقِرّون دون استثناء بأن الله عادلٌ في معاقبة الشعب، إذ إنهم هم وآباءهم قد أخطأوا وتمرَّدوا عليه.[5]

وحينما يذكر قديسو العهد القديم برَّهم، فصحيح أنهم يقيناً يفكرون أيضاً في سلوكهم المستقيم وكمالهم أمام وجه الرب، بل إنهم أيضاً يُصلّون طالبين إلى الرب فاحص القلوب أن يمتحنهم وينظر هل فيهم طريقٌ باطل.[6] غير أن برَّهم واستقامتهم هذين لا يُقصد بهما الكمال الخُلُقي كالذي تحدّث عنه الفريسيون فيما بعد. بل إنهم بالأحرى يفكرون في كمال خُلُقي أساسه ومصدره كمالٌ ديني – وبكلمة أخرى، برٌّ مرتبط بالإيمان. ويتضح هذا من حقيقة كون الأبرار يُمثَّلون أيضاً في الغالب بأنهم المساكين والبؤساء، المظلومون الأمناء، المتواضعون الودعاء، من يتقون الرب ولا رجاء لهم سواه. إنهم الأشخاص أنفسهم الذين أطلق عليهم المسيح فيما بعد المساكين بالروح الحزانى، الجياع والعطاش إلى البرّ، المتعبين والثقيلي الأحمال، والأولاد الصغار (مت 5: 3 وما يلي؛ 11: 25، 28).

والعلامة المميزة لهؤلاء القوم ليست كونهم خِلْواً من الخطية، بل بالأحرى أنهم في وسط الظلم والاضطهاد الذين يتعرضون له من كل ناحية في العالم يضعون ثقتهم في الرب ويلتمسون عند وحده خلاصهم وسعادتهم. فليس لهم من نجاةٍ في أي مكان – لا في أنفسهم ولا في أي

---

[1]- إش 1: 11؛ 66: 2، 3؛ إر 6: 20؛ هو 6: 6؛ عا 5: 21؛ مي 6: 6 – 8؛ أم 15: 8؛ 21: 27؛ ومواضع أخرى.
[2]- مز 7: 9؛ 18: 21؛ 26: 1؛ 102: 2 وآيات أخر.
[3]- أي 27: 2؛ مز 17: 2؛ 26: 1؛ 35: 24؛ 43: 1؛ إش 40: 27؛ وغيرهن.
[4]- إش 53: 4 – 6؛ 59: 12؛ 64: 6.
[5]- عا 3: 2؛ مرا 1: 18؛ عز: 9: 6؛ نح 9: 33؛ دا 9: 14 ومواضع أخرى.
[6]- مز 7: 9، 10؛ 17: 3؛ 18: 21 – 25.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مخلوق – بل في الرب إلههم وحده دون غيره. كما أن الله، تبعاً لذلك، هو أيضاً إلههم، شمسُهم ومجنّهم، ملجأهم وحصنهم، ترسهم وصخرتهم وقوتهم، منقذُهم وفاديهم، مجدُهم وخيرُهم وحده ولا شيء غيره (مز 18: 3؛ 73: 25 وما يلي). إنهم شعبه وغنم مرعاه، عبيده وميراثه.[1] يرجون خلاصه، يتعلقون بكلامه، ويبتهجون بناموسه، ويتوقعون كل شيء من يده. فليسوا قوماً على شاكلة الفريسيين من بعدهم، يُصِرُّون على حقوقهم وامتيازاتهم، بل هم بالأحرى قومٌ في جانب الله وبمعونته يقفون ضدّ أعدائه وأعدائهم.

فحينما يلجأ قومٌ في صلواتهم وتوسُّلاتهم إلى برِّهم وبرِّ إلههم، حينئذ يقصدون أو يقولوا إن الرب، بفضل عهده، ملتزمٌ أن يعاملهم بالإنصاف في مواجهة أعدائهم، فهم مدعوون باسمه ويسلكون في خوف اسمه. وهو قد اختار شعبه لا لحجمهم أو عددهم، ولا لبرِّهم أو استقامتهم، بل لأنه، هو الرب، قد أحبهم فضلاً، ولأجل القسم الذي أقسم به لآبائهم (تث 7: 7 وما يلي؛ 9: 5، 6). فالعهد مع هذا الشعب مؤسسٌ فقط على مشيئة الله الصالحة واستحسانه. ولكن بفضل ذلك العهد، لا ننكر أنه – إذا جاز التعبير – ارتبط بهم واتخذ على عاتقه التزام رعايتهم وحفظهم وإعطائهم كامل الخلاص الذي وعد به لّما قال لإبراهيم: أُقيم عهدي بينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم، عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك (تك 17: 7).

وعليه، فإن برَّ الله الذي إليه يُركن أتقياء الشعب في خضمِّ الجور عليهم إنما هو تلك السجيّة التي بموجبها يلتزم الرب، بفضل عهده، أن يُنقذ شعبه من جميع أعدائهم. وليس هو التزاماً موضوعاً على الله بسببٍ من شعبه، بل إنه التزامٌ موضوع عليه بسببٍ من ذاته تعالى. فلا بدَّ أن يفي الله بما التزمه بمحض إرادته تجاه شعبه، فهو قد تعهّد على نفسه، بموجب عهده وقسمه وكلامه ووعده، أن يظلّ إلهاً لشعبه رغم كلِّ اعوجاجهم. ومن هنا نقرأ مراراً وتكراراً أنه يُعطي شعبه البركات التي قد وعدهم بها، لأجل اسمه وعهده ومجده وكرامته.[2] ولو خان الشعب الأمانة وارتد عن طرق الرب، فإنه يظلُّ ذاكراً لعهده ويُبقيه سارياً على الدوام.[3] فإن بر الله الذي يُركِن إليه أتقياء شعبه ليس طرف نقيض من صلاحه وخلاصه، بل هو مرتبط بهما ومتصلٌ بحقه وأمانته اتصالاً وثيقاً. لكأنه يُقيّد الله بكلمته ووعده، ويُلزمه – بمحض النعمة وحدها – أن يُنقذ شعبه من كل طغيان.

على هذا النحو أيضاً تصرّف الله في الماضي لّما أنقذ الشعب مرة بعد الأخرى من جميع أعدائهم.[4] لكنه سيفعل في المستقبل أكثر من ذلك بكثير عندما يُقيم ملكوته بين شعبه – وهذه نظرتهم هم أيضاً. فبفضل برِّه الخاص، ولأنه إله برٍّ وأمانة وحقّ، سوف يُبرم معهم عهداً جديداً، ويغفر خطاياهم ويسكب روحه عليهم، ويجعلهم يسيرون في طرقه (إر 31: 31 – 34 ومواضع أخرى). لكنه لا يفعل هذا لأجلهم هم، بل لأجل نفسه ولأجل اسمه العظيم: أنا، أنا الماحي ذنوبك لأجل نفسي، وخطاياك لا أذكر (إش 43: 25). فهو بذاته يقدّم البرّ الذي يحتاج إليه شعب العهد.[5] وهو سوف يخلق سمواتٍ جديدة وأرضاً جديدة، فلا تُذكر الأولى ولا تخطر على بال (إش 65: 17). في تلك الأيام يخلص يهوذا ويسكن إسرائيل آمناً، وهذا هو اسمُه الذي يدعونه به "الربّ برُّنا"![6]

وفكرةُ كون الله نفسه يمنح شعبه البرّ ويبرّرهم بالتالي تبلغ إعلانها الأوفى في العهد الجديد، إذ يظهر المسيح على الأرض وبموته وحياته يتمّم لكنيسته كل برّ.

وقد أتى الرب يسوع نفسه كارزاً بأنه قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله (مر 1: 15). ولم يقصد بهذا فقط أن الملكوت سيأتي قريباً بل أيضاً أنه قد حلّ فعلاً من حيث المبدأ في شخصه وعمله. فإنه هو المسيح الذي به تمّت نبوة العهد القديم المتعلقة بعبد الرب (لو 4: 17 – 21) والذي انطلق آنذاك يبرهن ذلك بأعماله. فإذ يشفي المرضى ويُقيم الموتى، ويُخرج الأرواح الشريرة، ويبشِّر المساكين، ويغفر الخطايا، إذ ذاك يقدّم

---

[1]- مز 33: 12؛ 95: 7؛ 100: 3.
[2]- مز 25: 11؛ 31: 3؛ 79: 9؛ 106: 8؛ 109: 21؛ 143: 11؛ إش 49: 9، 11؛ إر 14: 7، 21؛ حز 20: 9، 14، 22، 44؛ دا 9: 19 وشواهد أخرى.
[3]- مز 105: 8؛ 111: 5؛ إش 54: 10.
[4]- خر 2: 24؛ قض 2: 1؛ إش 37: 20.
[5]- إش 45: 24، 25؛ 46: 13؛ 54: 17.
[6]- إش 62: 2؛ إر 23: 6؛ 33: 16.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

برهاناً قاطعاً أنه الشخص الذي وعدت به النبوات وأن ملكوت الله قد أقبل إلى الأرض.[1] ذلك أن كنوز ملكوت الله تنكشف في الخيرات التي يهبها المسيح، في الفداء والإصلاح على صعيدي الروح والجسد.

ومن بين نِعَم ذلك الملكوت، يخصُّ المسيح البرَّ بالذِّكر. ففي (مت 6: 33) يرتبط هذا البر ارتباطاً وثيقاً بملكوت الله وبره. أو كما جاء في قراءة أخرى: اطلبوا أولاً ملكوته وبرّه، على أن يعود الضمير إلى الآب السماوي المذكور في الآية (32). فكما الملكوت، كذلك البر أيضاً في ذلك الملكوت، هو خاصةُ الله وعطيته التي يمنحها في المسيح. وكلُّ من يطلب ملكوت الله ويظفر به ينال في الوقت نفسه البرَّ المطلوب لمواطنية ذلك الملكوت.

لذلك السبب قال المسيح في موضع آخر إن امتلاك ذلك البرّ هو شرط لدخول ملكوت الله. ففيما نقرأ: إن لم يزد برُّكم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات.[2] وهذا البرّ الذي يطلبه المسيح في تلاميذه هو برٌّ مختلفٌ جداً وأعمق كثيراً وأوثق من التتميم الخارجي للناموس والذي قنع به اليهود – إنه برٌّ روحيٌّ وكامل على صورة برّ الآب (مت 5: 20، 48). ولكن حين يَعدُّ المسيح مثل هذا البرّ ضرورياً لدخول ملكوت الله، لا يعني أنه على الإنسان أن يُحرزه بقوته الخاصة. فلو كان هذا المطلوب، فما كان هنالك مسيحٌ ولا كان إنجيلُه خبراً طيباً. إذاً كان قصد المسيح بالأحرى أن يُلقي ضوءاً على طبيعة ملكوت الله وجوهره الروحي وكماله: فلا أحد يقدر أن يدخله ما لم يكن على انسجامٍ كاملٍ مع ناموس الله وله نصيبٌ في البرّ الكامل.

إلا أن هذا البرّ الذي هو، من جهة، الشرط المطلوب لدخول الملكوت، هو من الجهة الأخرى عطيّة ذلك الملكوت. فالمسيح نفسُه هو من يمنح جميع خيرات الملكوت، بما فيها برّه. فالملكوت مملكة الله، وبرُّه هو برُّ الله (مت 6: 33)، ولكن كما جعل الآب الملكوت للمسيح هكذا يجعله المسيح لتلاميذه (لو 22: 29؛ 12: 32). لأن الآب يحب الابن وقد دفع كل شيءٍ إلى يديه.[3] وإنما قد أعطاه الآب كل هذا لأنه ابن الإنسان (يو 5: 27)، أي في سبيل أن يحوزه لنفسه أساساً عن طريق الطاعة حتى الموت. فهو لم يأت ليُخدم، بل ليَخدم، وليبذل نفسه فديةً عن كثيرين (مت 20: 28). وبموته على الصليب سمح أن يُبذل جسده ويُسفك دمه لكي يؤسَّس العهد الجديد وتُغفر جميع خطايا شعبه (مت 26: 26 – 28).

فعلى أساس تعيين الآب له وذبيحة نفسه، يمنح تلاميذه – قبل موته وبعده – جميع خيرات الملكوت. وهو لم يشف المرضى فقط، بل غفر الخطايا أيضاً ووهب الحياة الأبدية. هذه الخيرات لم يَهبْها للفريسيين الأبرار في نظر أنفسهم، بل للعشارين والخطاة، للمتعبين والثقيلي الأحمال، للمساكين بالروح، للجياع والعطاش إلى البرّ. فهو لم يأتِ ليدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة (مت 9: 13) ولكي يطلب ويخلِّص ما قد هلك (لو 19: 10). ذلك أن سبيل الدخول إلى الملكوت والتمتع بخيراته كلِّها ليس البرّ الذاتي بل هو الولادة الجديدة مع التوبة والإيمان. وهذه الولادة الجديدة، أو التجديد، هي في حدِّ ذاتها عطيّةٌ وعملٌ من الروح القدس (يو 3: 5).

ما إن انسكب الروح القدس يوم الخمسين، حتى بدأ الرسل في الحال، وتبعاً لذلك، يكرزون بالمسيح المصلوب رئيساً ومخلصاً رفعه الله لكي يُعطي الشعب التوبة ومغفرة الخطايا (أع 2: 36، 38؛ 5: 30، 31). فبعد حدوث الفداء بموت المسيح، صار ممكناً للرسل أن يكشفوا مغزاه الهام ويشرحوه في ضوء القيامة وبإرشاد الروح القدس. ولم يَقُم بذلك واحد من الرسل على نحوٍ أغنى وأوضح مما قام به بولس، وهو الذي خُتن في اليوم الثامن، وكان من جنس إسرائيل وسبط بنيامين، وعبرانياً من العبرانيين، وفريسياً من جهة الناموس، ومضطهداً للكنيسة من جهة الغيرة، وبلا لومٍ من جهة البرّ الذي في الناموس، ولكنه حسب هذه الأشياء، التي كانت ربحاً له، خسارةً من أجل المسيح (في 3: 5 – 7).

كان بولس، بحسب شهادته الخاصة، قد جاهد عدة سنين وبحماسةٍ عظيمة لأجل البرّ الذي من الناموس. وقد بلغ في ذلك شأواً بعيداً. فمن جهة البرّ الذي في الناموس (في 3: 6) والحاصل بالناموس (في 3: 9؛ رو 10: 5؛ 9: 32)، كان بلا لومٍ حسب تقدير البشر. ما من أحدٍ

[1]- مت 9: 2؛ 10: 7، 8؛ 11: 5؛ 12: 28.
[2]- مت 5: 20. قارن مت 7: 21؛ 1كو 6: 10؛ غل 3: 18، 21؛ أف 5: 5؛ رؤ 22: 14.
[3]- مت 11: 27؛ يو 3: 35؛ 13: 3؛ 16: 15.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كان يستطيع أن يقول شيئاً عليه. بل على العكس، امتدحه الجميع. فقد أصاب من ذلك تقديراً واعتباراً، ولو واصل السير في هذا السبيل لوجد لنفسه مكانةً مرموقة بين شعبه. والواقع أنه ربح من ذلك ربحاً جزيلاً (ع 7). ولكن لّما سرّ الله أن يُعلن ابنه فيه، فعندئذٍ من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربِّه حسب كل هذا البرّ القديم خسارةً ونبذه كأنه نفاية وأمر عديم النفع، لكي يربح المسيح ويوجد فيه، وليس له البرّ الذي من الناموس، بل بالأحرى البرّ بالإيمان في المسيح، البرّ الذي من الله بالإيمان (ع 8: 9).

ولماذا لا يفي البرّ هو من أعمال الناموس بالغرض؟ ذلك ما يشرحه الرسول أكثر من مرة في مواضع أخرى. حقاً إن الناموس مقدس وعادل وروحيٌّ وصالح، ولكن الإنسان – لكونه جسدياً – مبيع تحت الخطية (رو 7: 12، 14). فالناموس ليس قادراً أن يُحيي، ولا قادراً على إبطال الخطية بحكمه، لأنه ضعيف بالجسد (رو 8: 3؛ غل 3: 21). صحيحٌ أنه يقدّم مطالب، غير أنه لا يمنح شيئاً ولا يهب أية خيرات. بل إنه يقول فقط إن الإنسان الذي يفعل هذه يحيا بها (رو 10: 5؛ غل 3: 10، 12). ولكنه لا يقدر أن يمنح هذه الحياة من تلقاء نفسه، لأن الجسد ليس خاضعاً لناموس الله، ولا يستطيع أن يخضع له (رو 8: 7) فبدلاً من أن يُبرر الناموس الإنسان ويُعطيه حياة، إذا به الآن هو "قوة الخطية" بالتحديد (1كو 15: 56). ولولا الناموس لما كانت خطيةٌ ولا كان هناك تعدٍّ (رو 4: 15؛ 7: 8). إنما في الوضع الأثيم الذي يجد الإنسان نفسه فيه، يُثير الناموس الخطية ويوقظ الشهوة ويجعل الإنسان يرغب في المنهي عنه، أو بالأحرى تتخذ الخطية الساكنة في الإنسان فرصةً بالوصية فتثير كل شهوة في القلب، فتكثر الخطية بالتالي.[1] وعليه، فإن ما يفعله الناموس إنما هو أن يُعطي معرفة الخطية (رو 3: 20؛ 7: 7) ويُنشئ الغضب (رو 4: 15) ويجعل الناس تحت اللعنة (غل 3: 10)، ولكن بأعمال الناموس لا يُمكن أن يتبرر أحدٌ البتة.[2] وإذ يدين الناموس العالم كلُّه يصير الجميع تحت قِصاص من الله وعِرضةً لعقابه (رو 3: 19). لأن غضب الله معلنٌ من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم.[3]

ولكن ما دامت هذه هي دينونة الله العادلة التي ينطلق بها ناموسه على البشر فمن يستطيع أن يخلص إذاً؟ وكما قال الرب يسوع في (مت 19: 26)، فذلك هو أيضاً جواب بولس: هذا عند الناس غير مستطاع، ولكن عند الله كلُّ شيء مستطاع. فعنده يُستطاع أيضاً هذا الأمر غير المستطاع: أن يبرر الشرير ويبقى مع ذلك هو نفسُه باراً إلى التمام (رو 3: 26؛ 4: 5). ذلك أن ما يشجبه الله بشدة قصوى في ناموسه المقدس، أعني تبرير المذنب،[4] وهو ما يقول عن نفسه إنه لا يفعله (خر 23: 7)، فذاك بعينه هو ما يفعله، إلا أنه يفعله دون أن يعرّض برَّه للخطر. وفي هذا روعةُ الإنجيل.

فإن الله أعلن برّه لا في الناموس فقط بل في الإنجيل أيضاً وبرُّ الله في الإنجيل معلنٌ بمعزلٍ عن الناموس الذي لا دور له فيه، بالاستقلال الكلي عنه، وعلى تعارضٍ معه بحسب الظاهر (رو 1: 17؛ 3: 20). فهذا الإنجيل موجود قبل الناموس بزمنٍ بعيد، إذ كانت بداءاته في الفردوس. وبرُّ الله الذي أُعلن في الإنجيل يتمتع بشهادة الناموس والأنبياء وكتب العهد القديم كلِّها (رو 3: 21). فبه تبرّر إبراهيم وهو بعدُ في العزلة (رو 4: 1 وما يلي). وداود يطوّب الإنسان الذي يحسب له الله براً بغير الأعمال (رو 4: 6)؛ وحبقوق يصرّح تصريحاً عاماً إذ يقول إن البار بالإيمان يحيا (رو 1: 7؛ غل 3: 11). ولكن الآن، في الزمان الحاضر (رو 3: 21، 26) صار برُّ الله معلناً بوضوحٍ أكثر جداً، لأن المسيح قد ظهر وصار براً لنا (1كو 1: 30).

ثم إن الناموس الذي أُعطي لبني إسرائيل كان بذاته في خدمة الإعلان الكامل لبرّ الله في الإنجيل. إذ إن الناموس، بإثارة الخطية والتعرض لها، وبإنشاء الغضب ووضع الناس تحت اللعنة، كان معلماً ومؤدباً يقودنا إلى المسيح، حتى يتمكن أولئك الذين كانوا تحت تأديب الناموس أن يتخرجوا في ملء الزمان إلى المسيح ويبرَّروا بالإيمان (غل 3: 22 – 25). وهكذا أعدّ تأديب الناموس الشعب لظهور الإنجيل. ولكن من جانب الله، عمل الناموس أيضاً على إتمام الموعد. فإن الله، في الأزمنة السابقة للمسيح، ترك الأمم – بإمهاله تعالى – يسلكون في سبُلهم، وتغاضى عن

[1]- رو 5: 20؛ 7: 8؛ غل 3: 19.
[2]- أع 13: 39؛ رو 3: 20، 28؛ 8: 3، 8؛ غل 2: 16؛ 3: 11.
[3]- رو 1: 18؛ أف 5: 6؛ كو 3: 6.
[4]- تث 25: 1؛ مز 82: 2؛ أم 17: 15؛ إش 5: 23.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أزمنة الجهل إذ لم يعاقبهم وفقاً لاستحقاقهم (رو 3: 25). لهذا السبب بات ضرورياً بالنسبة إليه أن يُعلن برّه عن طريق الإنجيل، بالاستقلال كلياً عن الناموس (رو 3: 25، 26). فبالناموس أغلق الله على الكل تحت الخطية، لكي يُعطي الوعد بالميراث للذين يؤمنون، لا على أساس أعمال الناموس، بل بالإيمان بيسوع المسيح.[1]

وتبعاً لذلك، فإن البرّ الذي يعلنه الله في الإنجيل له طبيعته الخاصة به. إنه يتم بمعزلٍ عن الناموس، لكنه لابدَّ أن يتوافق معه (رو 3: 21). وينبغي أن يدين، وفي الوقت نفسه يخلِّص. وهو إعلان لعدل الله، لكنْ لنعمته أيضاً (رو 3: 23، 24). ولابد أن يكون على نحوٍ يستطيع الله فيه أن يبرّر به المذنب، ومع ذلك يبقى باراً كلياً إذ يفعل ذلك (رو 3: 26؛ 4: 7). ويتم ذلك موضوعياً بتقديم المسيح ليكون دمه كفارة، وذاتياً بحسبان الإيمان في المسيح براً (رو 4: 4، 5؛ غل 3: 6). وبإيجاز، إن البرّ الذي يُعلنه الله في الإنجيل قوامه مَنحُ برٍّ بالإيمان مناقضٍ كلياً للبرِّ الآتي من أعمال الناموس، أي لبرّ الإنسان الذاتي.[2] إنه برٌّ من الله بالإيمان بالمسيح (في 3: 9).

إذاً، في تعليم الكتاب المقدس عن تبرير الخطاة يقع التشديد كلُّه على حقيقة كون هذا التبرير هو عطية الله، وعلى أساس ذلك التبرير نُعفى من الذنب والعقاب. فلو كنّا نتبرّر بأعمال الناموس، أي بحفظ وصايا الشريعة، لكان في وسعنا أن نمثل أمام قضاء الله ببرّنا الخاص والمُحرَز ذاتياً، ولكان لنا – بمعنىً من المعاني – ما يدعو إلى الافتخار بأنفسنا (رو 4: 2). غير أن ما يعلِّم به الكتاب المقدس هو أمرٌ مختلفٌ تماماً. فلم يكن لدى إبراهيم ما يفتخر به أمام الله، لأنه لم يُبَرّر بالأعمال، بل بالإيمان الذي حُسب له برّاً، وقد أُعطي المكافأة لا على سبيل دَين بل على سبيل النعمة (رو 4: 4، 5).

وعلى ذلك، فالبرّ الذي يعطينا الله إياه في المسيح، والذي به وحده نستطيع الوقوف في حضرته، ليس هو بأية حال ثمرة اجتهادنا، بل هو – بمعنىً مطلق – عطية من الله، عطيةٌ من عطايا نعمته. فنحن متبرّرون مجاناً، بالفداء الذي بيسوع المسيح (رو 3: 24). ونعمة الله هي الأساس الأعمق والسبب النهائي لتبريرنا. ولكن ينبغي ألا نعتبر هذه النعمة نقيضاً لبرّ الله بل أمراً مرتبطاً به بعلاقة متبادلة. ومهما يكن، فإن بولس يقول غيرَ مرة إن برّ الله مُعلن في الإنجيل،[3] وكذلك أيضاً يكتب يوحنا في رسالته الأولى أن الله أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهِّرنا من كل إثم – إن نحن اعترفنا بخطايانا أمامه (1يو 1: 9). وبطرس أيضاً يقول في رسالته الثانية (1: 1) إننا قد حصلنا على الإيمان ببرّ الله ومخلِّصنا يسوع المسيح.

وهذا يتضمن فكرة كون الله، وهو إله العدل والبرّ، قد أوجد في الإنجيل نظام عدالةٍ مغايراً لذلك الحاصل تحت الناموس. ومع أن النظام القديم أيضاً يُعلن برّ الله، فهو يفعل ذلك بطريقةٍ فيها يُعطي البشر ناموسه، ويُلزمهم إطاعته، وفي الأخير يعاقبهم أو يكافئهم بموجب حكمه على تصرفهم. ولكن بما أن ذلك الناموس صار عديم الفاعلية بسبب الخطيّة، أقام الله في الإنجيل نظام عدالةٍ جديداً. ولهذا البرّ أيضاً ينبغي أن يخضع الناس (رو 10: 3)، إلا أن هذا النظام في حدّ ذاته، وعن طريق الإيمان، يمنح الناس البرّ الذي يحتاجون إليه للمثول أمام عرش الله. وتبعاً لذلك، فالإنجيل هو، في الوقت الواحد عينه، تدبير عدالة وتدبير نعمة. أما النعمة، ففي أن الله، وهو الذي من حقّه أن يطبّق منطوق الناموس علينا ويديننا بموجبه، قد فتح لنا طريقاً جديداً إلى البرّ والحياة في المسيح. وأما العدالة ففي أنّ الله لا يُدخلنا ملكوته دون تبريرٍ وتقديس، ولكن لديه، بدلاً من ذلك، برّاً كاملاً مُنجَزاً في ذبيحة المسيح، وهو بالنعمة يعطينا إياه ويحسبه لنا بالذات. فالمسيح هو عطية محبة الله (يو 3: 16؛ رو 5: 8). وهو في الوقت عينه إظهارٌ لبرِّ الله (رو 3: 25). ففي صليب الجلجثة تناغم البرّ والنعمة. والتبرير هو عملٌ إلهيٌّ يوفّق بين عدالة الله ونعمته.

وينبغي لنا أن نشكر المسيح ونِعمه على هذا التوافق بين العدل والنعمة. وله أيضاً نحن مدينون بفضل البرّ الذي نحتاج إليه للوقوف في حضرة الله. إنما هذا البرّ الممنوح لنا بالإيمان ينبغي تمييزه بدقة عن البرّ الذي هو سجيّةٌ من سجايا كينونة الله، وعن ذلك الذي في طبيعتي المسيح الإلهية والإنسانية. فإنه لو كان البرّ الذي هو من سجايا كينونة الله أو المسيح هو أساس تبريرنا، لما اقتصر الأمر على فقدان آلام المسيح كلها

[1]- غل 3: 22؛ رو 3: 9؛ 11: 32.
[2]- رو 3: 21؛ 4: 2 – 6؛ 9: 32؛ 10: 3؛ في 3: 9.
[3]- رو 1: 17؛ 3: 5، 21 و 22، 25 و 6؛ 10: 3.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وموته وإهدار قيمتها بما لها من قيمة بل لتعدّى ذلك إلى محو الخطّ الفاصل بين الخالق والمخلوق وإلى اتحاد طبيعتيهما إحداهما بالأخرى على النحو الذي يقول به أتباع مذهب وحدة الوجود. غير أن البرّ الذي يصير لنا بالإيمان والذي يبرِّرنا أمام الله قد أنجزه المسيح بآلامه وموته. فإن الله قدّم المسيح ليكون كفّارة، بالإيمان بدمه، أي وسيط مصالحة محققاً غفران الخطايا بقوة دمه المسفوك لمن يقبل ذلك الإيمان (رو 3: 25). ذلك أنه جُعل خطية لأجلنا لنصير نحن برّ الله فيه (2كو 5: 3؛ غل 3: 13). وهكذا جرت مبادلة بين المسيح وخاصَّته: فهو يأخذ على نفسه خطاياهم ولعنتهم، ويُعطيهم برَّه بالمقابل. وهو قد صار لهم من الله حكمة وبرّاً وقداسة وفداءً (1كو 1: 30).

إن برّ المسيح الذي بررنا أمام الله كاملٌ وكافٍ ووافٍ بحيث لا يحتاج إلى تكميل أو تعزيز من جانبنا. وبالحقيقة، لا يمكننا بأية طريقة أن نزيد عليه شيئاً أو نُحسِّنه قيد أنملة، لأنه كامل ومتكامل. فكما أن الناموس هو وحدةٌ كاملة بحيث إن من يحفظه كلَّه ويعثر في وصية واحدة يصير مجرماً في الكل (يع 2: 10)، كذلك أيضاً البرّ الذي يفي بمطالب الناموس هو كلٌّ كاملٌ ذو وحدة عضوية كقميص المسيح الذي كان بغير خياطة منسوجاً كلُّه من فوق (يو 19: 23). هذا البرّ لم يؤلّف من قطعٍ أو أجزاء مجمعه. فإما تمتلكه كله، وإما لا تمتلك منه شيئاً. ولا يمكن أن تأخذ منه جزءاً وتُكمّل أنت الباقي. وعلى أية حال، فأيُّ شيءٍ عندنا حتى نقدّمه لإكمال برٍّ كهذا؟ بالتأكيد، ليست الأعمال الصالحة التي عملناها قبل الإيمان. فإن الكتاب المقدس يقول، بمنتهى الصراحة والوضوح، إنّ تصوّر قلب الإنسان شريرٌ منذ حداثته، وإن المولود من الجسد ما هو إلا جسد، وإن فكر الجسد عداوةٌ لله ولا يستطيع الخضوع لناموسه، وإن كل أعمال برٍّ الإنسان هي كخرقة نجسة.

وإذا كان للأعمال الصالحة أن تُعزِّز وتتمِّم البرّ الذي أنجزه المسيح، فالأعمال الوحيدة التي يُمكن اعتبارها أهلاً لذلك هي قطعاً الأعمال التي يقوم بها الإنسان المولود ثانيةً بدافع الإيمان. فإنه لأمرٌ صحيحٌ تماماً أن المؤمنين يستطيعون القيام بأعمال صالحة. فمثلما تثمر الشجرة الجيدة ثمراً جيداً، كذلك الإنسان الصالح من الكنز الصالح في القلب يُخرج الصالحات (مت 12: 35). وإذ يتجدد المؤمن بروح الله، يُسَرّ بناموس الله حسب الإنسان الباطن (رو 7: 22). غير أن جميع هذه الأعمال التي تنتج من الإيمان تبقى مع ذلك ناقصة وموصومة بالخطية: فعندما يريد المؤمن أن يفعل الحُسنى يجد أن الشر حاضرٌ عنده (رو 7: 21). أضف أن هذه الأعمال الصالحة جميعاً قد سبقها حتماً الحصول على البر الذي يمنحه المسيح ويقبله الإنسان بالإيمان. والمؤمن إنما يسلك في الأعمال الصالحة التي قد سبق الله فأعدها له، والتي لأجلها قد جعله الله في المسيح يسوع خليقةً جديدة له (أف 2: 10).

إذاً، عزاؤنا في مسألة التبرير هذه هو أن كامل البرّ الذي يعوزنا يأتينا من خارج أنفسنا في المسيح يسوع. ولسنا نحن الذين نحدثه. ولكن الله في هذا يُعلن برّه في الإنجيل، في أنه نفسه يُعِدّ برّاً بذبيحة المسيح. فالبرّ الذي يبرِّرنا إنما هو بر الله بالإيمان بالمسيح. وليس هو، لا كلياً ولا جزئياً، متعلقاً بأعمالنا، بل إنه بجملته كاملٌ وكافٍ ووافٍ، لكونه عطية من الله، بل عطية الله المجانية بالنعمة.[1] وما دام بالنعمة، فليس بعد بالأعمال، وإلا فالنعمة لا تكون بعدُ نعمة (رو 11: 6). وبكلمة، فالمسيح نفسه هو البرّ الذي به وحده نستطيع الوقوف أمام وجه الله (1كو 1: 30). فبآلامه موته اكتسب لخاصته حقّ الدخول إلى الحياة الأبدية وهم أبرياء من كل ذنب ومُعفَون من أي قصاص، وحقّ الجلوس فيه عن يمين الله.

إذاً، البرّ الذي يبررنا لا يمكن فصله عن شخص المسيح. فهو ليس عطية مادية أو روحية يُمكن أن يمنحنا المسيح إياها بمعزلٍ عن نفسه، أن يمكن أن نقبلها وننالها نحن بمعزلٍ عن شخص المسيح. وغير ممكن أن نشترك في بركات المسيح دون أن نكون في شركة مع شخصه الذي يجلب لنا معه البركات على نحوٍ ثابت. ولكي نستطيع الوقوف أمام عدل الله، ونُبرَّأ من كل ذنب وقصاص، ونتمتع بمجد الله والحياة الأبدية، ينبغي أن يكون لنا المسيح – لا شيءٌ منه، بل هو نفسه بجملته. ينبغي أن نمتلكه بملء نعمته وحقه، بحسب طبيعتيه الإلهية والإنسانية، في اتضاعه وارتفاعه. فالمسيح، مصلوباً ومُقاماً، هو البرّ الذي يمنحنا إياه الله بالنعمة في التبرير. وعندما يمنحنا الله المسيح بجملته، بكل خيراته وبركاته، وبدافع النعمة المجانية، دون أي استحقاق من جانبنا، بالإيمان، عندئذٍ يبرّرنا الله في الوقت نفسه. إنه يُعلن براءتنا من كل ذنب وإعفاءنا من أي قصاص، ويهبنا

[1]- في 3: 9؛ 2تي 1: 9؛ تي 3: 5.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الحقّ في الحياة الأبدية والمجد السماوي، حق الوجود معه في شركةٍ سعيدةٍ ومباركة ولا نهاية لها. إذ ذاك يمكننا الوقوف في حضرته وكأننا بلا خطية، بل بالحقيقة كأننا قد أحرزنا بأنفسنا الطاعة التي أحرزها لنا المسيح.

على أن هنالك طريقتين بها نُعطى أمراً أو آخر. فيمكننا أن نمتلكه بقرارٍ قضائي، ولنا أيضاً أن نمتلكه بالفعل عاجلاً أو آجلاً، وذلك على أساس مثل هذا الحُكم الصادر عن القضاء. فكلُّ من يُعيَّن وارثاً بموجب عهدٍ شرعي أو وصية قانونية، يكون له في المستقبل حق امتلاك المقتنيات الموصى بها، ولكن يُمكن أن تمر عدة سنين قبل أن يصير مالكاً بالفعل لتلك المقتنيات. حتى وإن تزامن الحق الشرعي والامتلاك الفعلي، يبقى الفرق مع ذلك شاسعاً بين الأمرين. فالملكية هي حيازة الشيء شرعياً، والامتلاك هو حيازته فعلياً. وهذا التمييز غير حاصل في عالم الحيوان، بهذا الشكل على الأقل. فالحيوان يأخذ ما يُمكنه الحصول عليه. غير أن حال الإنسان تختلف. فلأنه مخلوقٌ على صورة الله، ينبغي أن يكون له الحقّ في الشيء لكي يمتلكه ويستعمله. ومن امتيازه وشرفه أنه لا يتصرف بموجب فعل الافتراس والاستئثار. فبعمل يديه، يأكل خبزه.

هذا له تطبيقه في الدائرة الروحية. فإن لنا بالله علاقةً من أنواعٍ شتى. إنه خالقنا، ونحن خلائقه. هو الخزّاف، ونحن الطين في يده. هو المهندس والباني، ونحن هيكله. هو الكرّام، ونحن أغصان كرمته. هو أبونا، ونحن أولاده. وكلُّ العلائق القائمة في العالم بين العروس وعروسه، والرجل وزوجته، والآباء وأولادهم، والحكام ورعاياهم، وما شابه ذلك، يستحضرها الله في الكلمة المقدسة ليعلّمنا أية علاقة غنية ومتعددة الوجوه يجب أن تقوم بين الناس عموماً، والمؤمنين خصوصاً، وبينه تعالى. ما من علاقة من هذه العلاقات نهملها بغير أن نسيء بطريقة ما إلى حميم العلاقة. على هذا النحو مثلاً لنا أيضاً بالله علاقة الولد بأبيه. فالابن الضال، حتى وهو بعيد عن بيه الأب، ما زال يُدعى ابناً، غير أنه ابنٌ ضال وابن ميت، وهو قد وُجِد وعاش عندما رجع إلى الأب معترفاً بذنبه.

ولكن لنا بالله، في الوقت عينه، علاقة أخرى هي علاقةٌ شرعية. فهو خالقنا، وبالتالي هو لنا المشترع والملك والقاضي. ذلك فقط ما تقوله لنا الكلمة المقدسة مراراً وتكراراً.[1] وقلوبنا أيضاً تحدثنا بهذا. فالإحساس بالشريعة متأصلٌ في قرارة نفوسنا. وفي الواقع أن هذا الإحساس هو هو في كل مكان وزمان. ربما يحدث خلاف في المحتوى، من حيث القوانين والقواعد الخاصة، ولكن مفهوم القانون عامة، أو الإحساس بالشريعة، ليس له تاريخٌ خاص – شأنه شأن مفاهيم الزمان والمكان والحركة والحياة والخير والشر ما إليها. فإن الإحساس بالشريعة هو فكرٌ من الأفكار المغروسة في طبيعة الإنسان، فكرٌ يصير بالتدريج واضحاً بكل معالمه على نحوٍ يُدركه الوعي. فما من شعب، مهما كان بربرياً أو غير متحضِّر، إلا ويشعر في بعض الأحوال أنه مُساءٌ إليه، فيلجأ إلى السلاح ويدافع عن حقوقه. والعلاقة بالله أيضاً يشتمل عليها هذا الإحساس بالشريعة بالمعنى الأوسع. فكلّ إنسان إنما يشعر في قرارة نفسه بأن ضميره يوجب عليه أن يعبد الله ويحيا بمقتضى شرائعه. وكل إنسان لديه أيضاً الوعي بأنه إذا لم يفعل ذلك يكون مذنباً ومستحقاً للعقاب. فما زال القانون الداخلي الذي يُشعر الإنسان بنقضه لعهد الأعمال فعالاً في قلب كلِّ إنسان. والناموس الأدبي الذي أعلنه الله في سيناء إنما بَلْوَرَ مضمون ما يُمليه ذلك القانون في وصايا واضحة وأكّد واجب التزامها.

ولم يُلغ الإنجيل علاقة الإنسان بهذه الشريعة، كما يميل كثيرون إلى القول، بل إنه بالأحرى أصلحها وأكملها. فليس الفرق بين الناموس والإنجيل كامناً في أن الله يُعلن ذاته في الناموس باعتباره قاضياً فقط وفي الإنجيل باعتباره أباً فقط. وأقل احتمالاً من هذا أيضاً أن يُساوى الفرق بين الناموس والإنجيل بالفرق بين العهد القديم والعهد الجديد. فإنه في العهد القديم أيضاً أعلن الله بشارة نعمته ورحمته لبني إسرائيل؛ إذ أن الناموس كان في خدمة عهد النعمة، فقد جاء في أعقاب الوعد وكان تابعاً له، حتى إنه كان في هذا النطاق أيضاً عطية صادرة عن إحسان الله الأبوي وحكمته المهذبة. ومع أن أعناق مراحم الله قد أُظهرت حقاً في شخص المسيح على نحو أوضح كثيراً جداً مما كان ممكناً أن يحصل في العهد القديم، فمع ذلك لم تكن بشارة النعمة – من جهة واحدة – مجهولة عند الشعب القديم، كما أن الإنجيل الذي أُظهر في المسيح – من الجهة الثانية – لم يكن إبطالاً للناموس والأنبياء بل إكمالاً لهما (مت **5**: **17**؛ رو **3**: **31**).

[1]- تك 18: 25؛ مز 47: 3، 8؛ إش 33: 22؛ عب 4: 12؛ يع 4: 12.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

من هنا أيضاً يصرِّح بولس، على النحو الأقوى، أن برّ الله مُعلَن في الإنجيل (رو 1: 17؛ 3: 21 – 26). فالوحدة والتبادل القائمان بين الناموس والإنجيل يبرزان للعيان في حقيقة كون برّ الله مُعلَناً في كليهما. أما الفرق فيتجلى في حقيقة كون البرّ معلناً في الناموس بموجب القاعدة القائلة إن من يعمل بهذه الوصايا يحيا، في حين أن ذلك البرّ مُعلن في الإنجيل بمعزل عن الناموس وبموجب القاعدة القائلة إن الذي لا يعمل ولكن يؤمن بالذي يبرِّر الفاجر فإيمانه يُحسب له برّاً (رو 4: 5). وفي الناموس يُطلب برُّ المرء كاملاً وكافياً ووافياً؛ أما في الإنجيل فإن الله يمنح الإنسان في المسيح وبالنعمة البرّ الكامل الكافي والوافي. ونظراً لأن الإنسان لم يقدر ولم يُرد أن يعمل بمقتضى عدل الله المعبَّر عنه في ناموسه، فإن الله نفسه، بعطيّة البر في المسيح، ردّ اعتبار عدله وأكّده. فهو يضع محبته ورحمته في خدمة برّه. وبإعطائه ذاته يتمّم ناموسه الخاص. وبنعمته يحسب برّ المسيح براً لنا، حتى يتمّ فينا بهذا عدل ناموسه الكامل، وننال الغفران الكامل لجميع خطايانا، ونوهب الدخول الواثق إلى ملكوته السماوي.

وإذاً، فالتبرير يقيناً عمل نعمة من لدن الله، لكنه أيضاً عمل قضاءٍ من لدنه، إذ إنه تصريح به يعلن الله، بوصفه قاضياً، تبرئتنا من الذنب وإعفاءنا من العقاب ويعطينا الحق في الحياة الأبدية. ومن جانب الكاثوليك وجميع الذين يلتمسون أساس تبرير الإنسان – إما جزئياً وإما كلياً – في الإنسان نفسه (في إيمانه، أو أعماله الصالحة، أو المسيح فينا، أو مبدأ الحياة الجديد، أو أي شيء من هذا القبيل)، فإن إعلان البرّ على هذا النحو القضائي طالما لقي اعتراضاً بحجة أنه غير واقعي وغير لائق بالله. ويجادلون بأنه لو كان أساس تبريرنا يكمن كلياً في المسيح وخارج ذواتنا، ولو كان الإيمان أو الأعمال الصالحة أو أي شيء آخر من هذا القبيل لا تُحسب عند الله جزءاً من برِّنا نحن، لكان الشخص المبرَّر عندئذ غير بارٍّ فعلاً، يكون الله قد أصدر عليه حكماً غير واقعي وغير صحيح، إذ إن الإنسان والحالة هذه لا يكون قد صار على الحال التي أُعلن الله أنه فيها.

فرداً على هذا الاعتراض ينبغي أن تكفينا الملاحظة أن الكتاب المقدس يقصد بالتبرير، دائماً، عملاً قضائياً. فهو يتكلم مرةً بعد مرة عن تبرير الخاطئ أمام الله، مستعملاً في ذلك كلمة مستعارة من قاعة المحكمة ولها دائماً معنىً قضائي. وقد أوصى الله قضاة شعبه قديماً بأن "يبرروا البارّ ويحكموا على المذنب".[1] وهو تعالى يُظهر برَّه في هذا: أنه لا يبرِّر الأثيم ولا يقتل البريء والبارّ.[2] فإذا طُبِّقت كلمة الله هذه في المجال الروحي، تظل محتفظة بمدلولها القضائي. فالمسيح مثلاً يقول إن الحكمة التي ظهرت فيه قد تبرّرت، أي تم الاعتراف بها أنها حكمة، من قِبَل بنيها (مت 11: 19). وفي (لو 7: 29) يقول المسيح إن الذين سمعوا يوحنا، والعشارين الذين تعمّدوا بمعموديته، قد برّروا الله، أي أقروا بأنه بارّ. في هاتين الآيتين ينحصر المعنى في المدلول الأدبي للتبرير.

ويصحّ الأمر عينه عند استعمال الكلمة في مجال خلاص الخطاة. فإن بولس لا يقول فقط إن برّ الله مُعلَن في الإنجيل (رو 1: 19؛ 3: 20 وما يلي)، بل يُعلن أيضاً أن الله يبرر من هم من الإيمان بيسوع، وأنه في عمله ذلك يظلُّ باراً (رو 3: 26)، وأن الذي لا يعمل ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر يحسب إيمانه له براً (رو 4: 5). فهو يضع البار مقابل المذنب والمحكوم عليه ثم يهتف قائلاً: من سيشتكي على مختاري الله؟ الله هو الذي يبرر: من هو الذي يدين؟ (رو 8: 33، 34). ثم إن بولس يستخدم أيضاً التعبيرين "تبرير" و"حسبان البرّ" بالتبادل (رو 4: 3، 6، 11) وكذلك التعبير "يُجعَل بارّاً" (رو 5: 19). وفي (رو 5: 18) يقول: كما بخطية واحد صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة، هكذا ببرٍّ واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة. ففي جميع هذه الآيات إذاً، يُعتبر التبرير عملاً قضائياً أو شرعياً، إذ هو حكم براءة يصدره القاضي السماوي على الخاطئ الذي هو بحسب معيار الشريعة مذنب لكنه بالإيمان قَبِل البرّ الذي يقدمه الله نفسه في المسيح. وإذ يُحاكم بمقتضى ذلك يكون بارّاً.

وفضلاً عن حقيقة كون الكلمة المقدسة تتكلم بكل وضوح عن التبرير باعتباره عملاً شرعياً أو فعلاً قضائياً، هذه الحقيقة المُشار إليها ينبغي أن توضح لدى معارضي عقيدة التبرير أن لديهم مفهوم للتبرير غير صحيح. فهم يقولون إن تبرئة الإنسان على أساس برٍّ خارجٍ عن ذاته هو أمر غير جدير بالإنسان، وإن ذلك يبقيه على حاله دون أدنى تغيير. غير أن هذه الحجة ترتدّ على رؤوس أصحابها، لأنهم إذا برروا الإنسان على أساس برٍّ موجود فيه فعليهم شخصياً أن يعترفوا حتماً بأن هذا البرّ في الإنسان هنا على الأرض واهٍ جداً وغير كامل، وعليهم بالتالي أن يقرّوا بأن

[1]- تث 25: 1؛ مز 82: 2، 3؛ أم 17: 15؛ 24: 24؛ إش 5: 23.
[2]- تك 18: 25؛ خر 23: 6؛ 2أخ 6: 23.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الله يبرر المرء على أساس برٍّ غير وافٍ البتة وبذلك يعوِّج تعالى قضاءه. وفي المقابل، فإن التبرئة على أساس البرّ الذي في المسيح هي تبرئة عادلة تماماً لأنها قُدِّمت بتمامها من قِبَل الله نفسه في ابن محبته. أضف أن تبرير الخاطئ هذا أو إعفاءه، وإن كان مؤسَّساً فقط على البرّ الذي في المسيح، يصير في حينه فعالاً بالحقيقة في وعي الإنسان ويُحدِث هنالك تغييراً هاماً. حتى إن هذه ليس حال الإنسان الذي يُتَّهم بجريمةٍ خطيرة ويُبرّئه قاضٍ بشري، وإن كان موقفه من القانون قد يتغير كلياً. فإن تبرير الله يعمل عمله في وعي الإنسان ويحرره من كلِّ شعور بالذنب.

وبمعنىً ما، فإن تبرير الخاطئ قد سبق أن جرى في مشورة الاختيار. وقد أُعلِن على نحوٍ موضوعي في قيامة المسيح الذي أُسلِم من أجل خطايانا وأُقيم لأجل تبريرنا (رو 4: 25)، وفي الإنجيل الذي يذيع البشارة بأن الله في صليب المسيح يقف موقف المصالحة والمسالمة تجاه العالم (2كو 5: 19). ويأتي هذا التبرير إلى الإنسان على نحوٍ موضوعي في الدعوة الداخلية كما يتمّ قبوله بالإيمان من جانب الإنسان. وما التبرير إلا حلقة من سلسلة الخلاص. إذ إنه مرتبط من جهة بسبق المعرفة والدعوة، ومن جهة أخرى بالتقديس والتمجيد (رو 8: 30). وعليه، فالتبرير في قضاء الله يُعبَّر عنه في الزمان من طريق الإيمان في وعي الإنسان. ثم إن البرّ الذي أحرزه المسيح ليس قدراً كبيراً من رأس المال الموضوع خارج المسيح، بل هو بالأحرى متضمن في شخصه. وقد جاء المسيح بالتحديد لأجل هذه الغاية: حتى في حينه يُمَتِّع خاصّته بجميع بركاته بالروح القدس. وما إن تنفتح عين الإيمان في الإنسان على هذه الحقيقة حتى تتغير في الحال علاقته بالناموس كلياً. فالذي كان من قبل فقيراً يصير في الحال غنياً بالغنى الكلي الذي في المسيح يسوع؛ والذي كان مذنباً بتعدّي جميع وصايا الله يجد نفسه مرة واحدة بريئاً من كل ذنب ومعفىً من أي قصاص؛ والذي كان يستحق العقاب الأبدي يجد أن الحق في الحياة الأبدية صار في حسابه! ومثل هذا الشخص يهتف مع بولس مفتخراً: من سيشتكي على مختاري الله؟ الله هو الذي يبرّر؛ من هو الذي يدين؟ المسيح هو الذي مات، بل بالحري قام أيضاً، الذي هو أيضاً عن يمين الله، الذي أيضاً يشفع فينا!

وأخيراً، لابد من التنبيه على أن التبرير والتقديس ليسا شيئاً واحداً، ومن الواجب تمييز أحدهما عن الآخر بدقة. إذ إن من يهمل أو يزيل هذا الفارق يعود فيقيم في الإنسان برّاً ذاتياً، وينتقص من الكمال والوفاء اللذين يتصف بهما برّ الله المُعلَن في المسيح، ويحول الإنجيل إلى ناموس جديد، ويحرم نفس الإنسان عزاءها الوحيد، ويجعل الخلاص متعلقاً بالاستحقاق البشري. ففي التبرير، للإيمان فقط دور عامل القبول، كدور اليد إذ تمتدّ لتتناول شيئاً، وبه تضع النفس ثقتها فقط في المسيح وبرّه. صحيح أن كلمة الله تستخدم غير مرة التعبير أن الإيمان يُحسب أو يُعدّ للمرء برّاً،[1] والأرجح أن معنى هذا التعبير هو أن الإيمان يحلُّ محل البرّ الذي يطلبه الناموس ولكن الخاطئ لا يملكه، ولكن في هذا المجال يُثار، رغم ذلك، السؤال: لماذا يحلُّ الإيمان محلَّ البرّ المطلوب في الناموس، ولماذا يمكن ذلك؟ أيُعزى هذا إلى كون الإيمان ذا قيمة أدبية استثنائية، وأمراً صالحاً وفضيلاً يفي بالغرض؟

كثيرون يرون هذا الرأي ويذهبون إلى أن الإيمان في حدِّ ذاته، بصرف النظر على الإطلاق عن مضمونه وموضوعه، يبرر وحده فقط بفضل طبيعته الفعالة. غير أن هذا، بكل تأكيد، ليس هو ما يعلِّم به الكتاب المقدس. فإنه لو كان الإيمان يبرر بفضل قيمته الأدبية لاحتلّ مكانه إلى جانب الأعمال والاستحقاقات، بدل أن يظل بالحري في موقف معارض لها. ونحن نعلم أن بولس يقول بمنتهى الصراحة والوضوح إن التبرير الذي يحصل الآن في الإنجيل عن طريق الإيمان هو على النقيض لكل تبرير بأعمال الناموس.[2] أضف أن هذا الوجه من المسألة يُبادل أحياناً بوجهها الآخر الذي بحسبه يعتبر التبرير بالإيمان تبريراً بالنعمة، وبالتالي يكون أمراً يستبعد كل افتخار أو استحقاق (رو 3: 24؛ 4: 4 وما يلي؛ تيطس 3: 5). وفي (رو 4: 16) يفيدنا الرسول، بجلاء، أن الميراث هو من الإيمان تحديداً لكي يكون على سبيل النعمة. وما كان هذا ممكناً أن يُقال على هذا النحو لو أن الإيمان يبرر الإنسان بفضل ما له من قيمة وقوة فعالتين. وفي النهاية، لو كان الإيمان – حسب هذا التأويل – قادراً على تأدية هذه الخدمة إذاً، لفقد المسيح كامل قيمته من حيث عمل التبرير. ولكان الأمر الوحيد المهم عندئذٍ هو أن إنساناً آمن؛ أما بماذا آمن فهذا أمر لا يقدم ولا يؤخر، ما دام الإيمان إذ ذاك يُنجز عمل التبرير بغضّ النظر عن كونه إيماناً بصنم أو بقوة شيطانية أو بنبيٍّ كذاب. وطالما كان هذا هو الاعتقاد المعمول به مثلاً عندما ينصح أطباء غير مؤمنين مرضاهم بأن يقوموا بزيارة إلى أي مزار ديني، لأن "للإيمان قوة شافية".

---

[1]- تك 15: 6؛ رو 4: 3، 5، 9، 22؛ غل 3: 6.
[2]- رو 3: 20 – 28؛ 4: 4 وما يلي؛ غل 2: 16؛ 3: 11.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ولكن شهادة الكتاب المقدس على النقيض تماماً لمثل هذا الرأي. فما يهم بحسب الكتاب هو محتوى الإيمان باعث الإيمان. ذلك أن الإيمان يمكن أن يحلَّ محل البرّ المطلوب في الناموس ويُحسب براً، لأن إيمان في المسيح يسوع الذي قدّمه الله كفارة بفضل قوة دمه (رو 3: 25) والذي حمل اللعنة عنّا (غل 3: 13)، وجُعل خطية لأجلنا (2كو 5: 21)، والذي مات وقام وجلس عن يمين الآب شفيعاً وحيداً لنا (رو 8: 34)، وصار لنا برّاً (1كو 1: 30)، وفيه صرنا برّ الله (2كو 5: 21). وباختصار، فالإيمان يبرِّر لأنه في المسيح يصير شريك برٍّ كاملٍ ووافٍ كذاك المطلوب في الناموس، برٍّ يهبه الله الآن في المسيح بالنعمة وعن طريق الإنجيل (في 3: 9). فهو يبرِّر لا بفضل قيمته المعنوية الفعالة، بل بمضمونه، أعني برَّ المسيح.

فمع أنه من الأهمية القصوى بمكان أن ندرك بوضوح الفرق بين التبرير والتقديس، وأن نُبقي عليه جلياً، فإن هاتين البركتين لا تنفصلان البتة بالطبع بعضهما عن بعض ولا لحظة واحدة. إنهما غير منفصلتين في مشورة الله، لأن التبرير هو مجرد حلقة في سلسلة الخلاص. فإن الذين سبق الله فعرفهم، سبق فعيّنهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه؛ والذي سبق فعيّنهم، فهؤلاء دعاهم أيضاً؛ والذي دعاهم، فهؤلاء بـرَّرهم أيضاً؛ والذين بررهم، فهؤلاء مجدهم أيضاً (رو 8: 29، 30). وهاتان البركتان غير منفصلتين أيضاً في شخص المسيح وعمله، لأن البرّ ليس شيئاً كامناً خارج المسيح ممكناً قبوله بمعزل عن شخصه. فالمسيح نفسه هو برُّنا، وهو في الوقت عينه حكمتنا وقداستنا وفداؤنا (1كو 1: 30). فليس في وسع المرء أن يقبل بركة من بركات المسيح دون الأخرى، لأنها جميعاً متضمنة في شخصه. وكل من يقبل المسيح برّاً له بالإيمان، يقبله في الوقت عينه قداسة له. إذ إن المسيح لا يمكن أن يُقبَل أجزاءً. فكل من له المسيح يكون له بكامله، ومن يفتقر إلى بركاته يفتقر إلى شخصه أيضاً. وأخيراً، فإن بركتي التبرير والتقديس غير منفصلتين أيضاً في الإيمان الذي يربطهما إحداهما بالأخرى دائماً. صحيح أن هذا الإيمان، فيما يتعلق بالتبرير، يحرز اعتباره فقط وحصراً في صفته الدينية بوصفه ثقةً في نعمة الله وبوصفه قبولاً للمسيح وللبرّ الذي يمنحنا إياه الله فيه. ولكن ما دام الإيمان هو هكذا ويفعل هذا، فهو إذ ذاك إيمانٌ حيٌّ وخلاصي، إيمان من عمل الله أساساً (يو 6: 29)، إيمانٌ يُظهر حقيقته وقوته في الأعمال الصالحة (غل 5: 6؛ يع 2: 20 وما يلي). ليس التبرير والإحياء شيئاً واحداً، فكما أن الخطية والموت مترابطان ترابطاً وثيقاً، فكذلك حال البرّ والحياة. فالبار بالإيمان يحيا (رو 1: 17). وكما بخطية إنسان واحد صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة، هكذا ببرِّ الواحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة (رو 5: 18).

ومن هنا نجد أن التبرير ينطوي على بركتين: غفران الخطايا والحق في الحياة الأبدية. وهذان الأمران يرتبط أحدهما بالآخر، ولهما بعضهما ببعض مثل العلاقة القائمة بين الطاعة المذعنة والطاعة العاملة فيما يتعلق بعمل المسيح. فإن المسيح لم يصلح فقط ما قد أفسده آدم بتعدّيه، بل حقّق أيضاً ما كان واجباً أن يحققه آدم بحفظه للوصية، أعني الحياة الأبدية. حتى أن كل من يؤمن بالمسيح ينال بفضل ذلك الإيمان غفران الخطايا،[1] وفي تلك اللحظة عينها ينال الحياة الأبدية أيضاً (يو 3: 16، 36).

يبدو لنا أن معظم الناس يقلِّلون من قيمة غفران الخطايا. إذ إنه في نظرهم أمر طبيعي كلياً أن يغفر الله الخطايا ويتغاضى عن القصور البشري. وهم يعرضون القضية بجملتها وكأن الله ينبغي أن يغفر الخطايا وإلا برهن أنه ليس إله محبة. ولكن اختبارات الحياة كان يجب أن تعلِّم هؤلاء القوم شيئاً آخر. فالمغفرة الحقيقية، المغفرة بإخلاص، أي أن نغفر بحيث لا يبقى شيء من آثار الإساءة الحاصلة، هي أمر يتطلب عملاً مضنياً من جانبنا ويتضمن انتصاراً على الذات يصعب إحرازه. حقاً إن الشعور بالإساءة غالباً ما يكون غير مسوَّغ فينا، إذ تؤثر فينا أشياء ينبغي ألا تؤثر ونُجيز أشياء أخرى كان يجب أن تحزننا في العمق. وحقاً أن إحساسنا بالحق والكرامة لم يُبطَل ولكنه فسد ومال في اتجاه خاطئ. ورغم ذلك قد يحدث أن نستاء في الصميم من أمر أو آخر، ونشعر بامتهان كرامتنا وإهانة شخصنا واسمنا. فعندئذٍ يقتضي الأمر كثيراً من الجهاد لكي نزيل من قلوبنا كلَّ أثرٍ للغضب ونسامح بإخلاص المسيء إلينا، نسامحه كلياً بحيث ننسى الإساءة ولا نعود نتذكرها البتة. فالغفران دائماً يفترض حصول انتهاك لحقٍ ما ويصحبه رفع العقوبة المستحقة أو الإعفاء منها.

هذا كله صحيح بالنسبة للبشر. غير أن الخطية والغفران كليهما يكتسبان مضموناً أثقل حينما تُقترف الخطية ضد الله ويتم الحصول على الغفران من لدنه. فإن لله أيضاً حقاً على البشر، حقاً في كل زمان ومكان وكل شيء، وذلك هو الحق بأن يعترف به البشر أنه الله ويخدموه

[1]- مت 9: 2؛ رو 4: 7، أف 4: 32.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ويكرموه كما يليق به. هذا الحق هو المبدأ والأساس لكل حق وكل قانون أو شريعة؛ فمن يمسّ هذا الحق يمسّ نظام الشريعة بكامله، أي كامل بنية العالم الأدبية من حيث أن أساسها وثباتها هما في الله. فأي من تتأتى له معرفة الخطية على هذا النحو، من ينظر إليها في ضوء كلمة الله المقدسة، من يعتبرها كما يعتبرها الله إلى حدٍّ ما، لابد أن ينحو مفهومُه لأهمية غفران الخطايا منح التغيير. إنسان كهذا لا يكاد يصدِّق مغفرة الخطايا، لأنها مضادة لطبيعة الأشياء على خطٍّ مستقيم. فهنالك، أولاً، قلبه الخاص الذي يدينه ويعلن مذنوبيته أمام وجه الله. وهنالك، ثانياً، الناموس الذي ينطق عليه باللعنة ويعتبره مستحقاً الموت. وهنالك أيضاً الشيطان الذي يشتكي عليه، وإذ يفعل ذلك يتذرع باستحقاق الإنسان للدينونة بحسب الشريعة. ثم إن هنالك الناس الذين يجعلونه يقف وحيداً في ضيقه ويتلون عليه خطاياه بإسهاب. وأخيراً، بين هذه كلها ووراءها، يدوّي في مسمعيه صوت برّ الله، مفتشاً عنه ومُطارداً له وقابضاً عليه وآتياً به إلى كرسيّ القضاء. فمن ذا يمكن أن يؤمن بالمغفرة الكاملة لجميع خطاياه، إذ يتأمل هذه الأمور ويختبرها؟

على أن كنيسة المسيح تجرؤ أن تؤمن بالغفران الكامل، إذ يمكنها ذلك ومن حقها أن تؤمن به. فهي باتضاعٍ وابتهاجٍ قلبيّ تعترف قائلة: أومن بمغفرة الخطايا. أومن بها، ولو كنت لا أستوعبها. أومن بها، ولو كان ضميري يتهمني بأني قد أخطأت خطايا فادحة ضد وصايا الله كلِّها، ولم أحفظ أياً منها، وبأني مُعرَّض بعد لكلِّ شرّ. وللكنيسة أساس راسخ حين تعترف بإيمانها هذا. فكلُّ من يلتمس غفران الخطايا خارج المسيح، يمكنه أن يتمناه ويرجوه، ولكن لا يقدر أن يؤمن به بإخلاص واقتناع. إنه يساويها بنوعٍ من التغاضي عن الخطية، وبذلك يسيئون تقدير خطورة الخطية وفداحتها. ولكن الإنجيل يفيدنا أن الله يغفر الخطايا، أنه يقدر أن يغفرها وهو يغفرها فعلاً، لأن حقوقه قد أدّاها المسيح كاملةً. ذلك أن واجب تقديس قداسة الله لا يجعل الغفران مستحيلاً، بل يُمهد له السبيل ويضمنه ويجعلنا نؤمن به إيماناً وطيداً مقروناً بثقة لا تتزعزع. وعليه، فإن غفران خطايانا كلِّها كاملٌ تماماً بحيث إن الكلمة المقدسة تتحدث عنه باعتباره نسياناً وطرحاً للخطايا وراء الظهر.[1] فالرب لا يُبصر إثماً في يعقوب، ولا يرى تعباً في إسرائيل (عد **23**: **21**).

هذا الغفران كان مشمولاً في مشورة الله وقد أُذيع علانية على الكنيسة كلِّها في قيامة المسيح (رو **4**: **25**). وهو مُعلَن عموماً في بشارة الإنجيل (أع **5**: **31**)، ويُعطى لكلِّ واحدٍ بمفرده، أي لكلِّ مؤمن. ولكن مع أن المؤمن حاصل على مغفرة جميع خطاياه، عليه دائماً، من يوم إلى يوم، أن يخصصها لنفسه بالإيمان لكي يتمتع بيقينيتها وعزائها. وكم يكون سهلاً علينا، لو استطعنا، أن نمضي في سبل الحياة بحسب ميول قلوبنا وموقفنا مبنيٌ على أساس الشعار "من تجدّد مرةً، تجدّد أبداً". وصحيح أن كثيرين يظلُّون يعيشون على ذكرى اختبارٍ مضى وهم قانعون بذلك. غير أن الحياة المسيحية ليست هكذا. فلا التبرير الذي في المسيح يسوع، ولا الإيمان الذي يغرسه فينا الروح القدس، هو مبلغ من رأس المال الجامد. إذ إننا، في نهاية المطاف، لا نصبح مشاركين في مغفرة الخطايا، مع ما يصحبها من يقين أكيد، إلا بأن نمارس الشركة مع المسيح نفسه ممارسة الإيمان الآيل إلى الخلاص. ومن هنا وضع المسيح الصلاة لأجل مغفرة الخطايا في أفواه تلاميذه (متى **6**: **12**). والاعتراف المتواضع بخطايانا هو الطريقة التي بواسطتها يُثبت الله أمانته وعدله، إذ يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم (**1**يو **1**: **9**). ولكي يجعلنا المسيح نشعر في قرارة نفوسنا، دائماً وباستمرار، بعِظم البركة الممنوحة لنا في غفران الخطايا، يضيف إلى طلب مغفرة الخطايا هذه الكلمات: "كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا". هذه العبارة الإضافية لا تشكّل الأساس الذي عليه نتجاسر أن نطلب إلى الله أو يحق لنا أن نطلب إليه، إعفاءنا من عقوبة خطايانا. وليست هذه العبارة هي المقياس الذي بموجبه نطلب إلى الله أن يقيس، بل إنها بالأحرى تصف الموقف الذي ينبغي أن يكون عليه المصلّي كي يتمتع ببركة الغفران ويقدِّرها حقها. عندئذٍ فقط ندرك إلى حدٍّ ما، بمنطقنا البشري، ماذا كلَّف الله منحُنا غفران الخطايا في المسيح. فعندما نستأصل من قلوبنا كلَّ عداءٍ ونغفر لجميع المسيئين إلينا جميع إساءاتهم، عندئذ فقط نقدّر قيمة ما فعله الله لنا. ومن هنا نستطيع أن نصلي لأجل هذه البركة العظيمة والفائقة الثمن، بحرارة ورغبة قلبية صادقة، فقط عندما نكون ميّالين من صميم القلب إلى مسامحة القريب. حقاً أن غفران الخطايا قد تمّ عند الله مرةً واحدة وعلى نحوٍ كامل، إلا أنه يعطي لنا، ونخصصه لأنفسنا طيلة حياتنا، بالإيمان والتوبة. وإن في العشاء الربّاني أيضاً بيّنة على ذلك، إذ إننا فيه نُذكَّر مرة بعد مرة أن المسيح قد بذل جسده وسفك دمه لأجل مغفرة الخطايا (مت **26**: **28**).

[1]- إش 38: 17؛ 43: 25؛ عب 8: 12

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أما الوجه الآخر من بركة مغفرة الخطايا هذه فهو الحقُّ بالحياة الأبدية. وإذ يتكلم يوحنا عن هذه الحياة يقصد على الخصوص الحياة الجديدة المولودة من الله والمغروسة فينا بالروح القدس (يو 1: 13؛ 3: 5). فالصيرورة أولاداً لله، هذه التي يتكلم عنها تنتج من الولادة الجديدة، وقوامها أساساً تحويل الإنسان ليصير أهلاً للشركة مع الله (يو 1: 13؛ 1يو 1: 1 – 3). ولكن بولس، يتكلم عادةً، عن كوننا أولاد الله بمعنىً آخر. فهو يعني بذلك أن الله، على أساس برِّ المسيح، يقبلنا أولاداً له وورثة.

كانت الأسر الرومانية تتميز إحداها عن الأخرى تميّزاً واضحاً. فقد كان لكلِّ عائلةٍ امتيازاتُها الخاصة وحقوقها، وممارساتها الدينية أيضاً على الخصوص. ومن هنا إن الولد لم يكن يقدر على الانتقال من أسرة إلى أخرى إلا عن طريق معاملة قضائية شرعية بموجبها يعمد الوالد الفعلي، إن جاز التعبير، إلى بيع ابنه للوالد الآخر الراغب في قبوله ابناً له. وفي حال وفاة الوالد الفعلي قبل إجراء ذلك، لا يمكن إتمام الانتقال إلا بإعلانٍ رسمي في جلسة عامة يحضرها المعنيون. بهذه الطريقة وحدها كان يمكن إعفاء الولد من واجباته في الأسرة الواحدة وإخضاعه لواجباته في الأسرة الأخرى.

فالمرجح أن الرسول بولس يستعير مفهومه لتبنّي الأولاد من هذه الممارسة، وبذلك يوضّح العلاقة الجديدة التي فيها يقوم المؤمن تجاه الله. وقد كان مثل هذا التبنّي، في العهد القديم، من نصيب بني إسرائيل (رو 9: 4)، ولذلك دُعي هذا الشعب غير مرة ابناً لله.[1] غير أن هذا التبنّي، بمعناه الأوفى هو من بركات العهد الجديد، لأن المؤمنين في العهد القديم كانوا قصراً تحت وصاية الناموس (غل 3: 23؛ 4: 1 – 3). أما الآن، فقد جاء المسيح في ملء الزمان، ووضع نفسه تحت الناموس حاملاً لعنته، لكي يتمَّ الفداء للذين هم تحت الناموس ولكي ننال التبنّي (غل 4: 4، 5). فالمسيح اشترى لنا بموته الحرية من العبودية للناموس والخطية، بحيث أننا الآن ننتمي إلى آخر، وتحديداً إلى الذي أُقيم من بين الأموات (رو 7: 1 – 4)، وقد قبلنا الله أبناءً له وورثة (غل 4: 7). وبما أننا هكذا، فقد نلنا أيضاً روح ابن الله، روح التبنّي، الروح الخاص بهذا الميراث. وبواسطة هذا الروح صرنا مدركين بنويتنا، ولنا جرأة لمخاطبة الله بوصفه أبانا، ونحصل دائماً على القيادة والإرشاد (رو 8: 14 – 16؛ غل 4: 6). وبالحقيقة، فكما أن هذا التبنّي بصفة الأولاد متأصلٌ في خطة الله الأزلية (أف 1: 5) هكذا أيضاً هو ممتدّ بعيداً جداً نحو المستقبل المجيد. فمع أن المؤمنين هم الآن أولادٌ لله ولهم امتيازات الورثة كلُّها (رو 8: 17؛ غل 4: 7)، فإنهم رغم ذلك يشتركون مع الخليقة كلِّها في انتظار إعلان كونهم أبناء الله، أي فداء أجسادهم (رو 8: 18 – 23). فلا يبلغ التبنّي غايته إلا عند القيامة من بين الأموات، إذ يتمّ فداء الجسد أيضاً على نحوٍ كامل.

نجد في بركة التبرير بالإيمان وحده عزاءً كثيراً للمسيحي. فإن غفران خطاياه والرجاء بالمستقبل السعيد، ويقينية الخلاص الأبدي، لا تتعلق بدرجة القداسة التي أحرزها في الحياة، بل هي جميعاً متأصلة في نعمة الله وفي الفداء الذي بالمسيح يسوع. ولو كان لهذه البركات أن تستمدّ يقينيتها من أعمال المسيحي الصالحة، لكانت تظلُّ – حتى ساعة الموت – غير مؤكَّدة، لأنه حتى أقدس البشر لا تكون لديه إلا بداءة يسيرة من الطاعة الكاملة. ولكان المؤمنون، تبعاً لذلك، فريسةً للخوف والقلق دائماً، ولا يستطيعون أن يثبتوا في الحرية التي حررنا بها المسيح، وإذ لا يقوون مع ذلك على العيش بلا يقين يُضطرون لأن يلجأوا إلى التماس العون لدى الكنيسة والكاهن، وفي المذبح والقربان، والشعائر والممارسات الدينية. وهذه في الواقع حالُ آلاف المسيحيين داخل الكنيسة الكاثوليكية وخارجها. فهم لا يُدركون ما في التبرير المجاني بالنعمة من بهاءٍ وعزاء.

ولكن المؤمن الذي انفتحت عيناه على غنى هذه البركة، يرى الأمر على نحوٍ مختلف. فهو قد وصل إلى الإقرار متواضعاً بأن الأعمال الصالحة لا يمكن أن تكون أساساً للإيمان بل هي فقط ثمرٌ له، سواء كانت تلك أعمالاً فعلية خارجية أو تأثرات وجدانية مما تختبره النفس. وخلاصه ثابت خارج ذاته، في المسيح يسوع وبرِّه، ولذلك لا يمكن أن يتزعزع البتة. إن بيته مبنيّ على الصخر، ولذا يقوى على الصمود في وجه عنف الأمطار والسيول والرياح. وبطبيعة الحال، يمكن إساءة استخدام هذا الاعتراف، شأنه شأن سائر مواد الإيمان. فإذا ما اعتُبر الإيمان الذي يقبل المسيح وبرِّه أنه امتثالٌ عقلانيٌّ لحقيقة تاريخية، فعندئذٍ يمكن أن يظلّ الكائن البشري واقفاً إزاءه في جمود وعدم مبالاة وموت. وإذ ذاك لا يُثمر أية أعمال صالحة من ذلك الإيمان، بل إنه في الحقيقة لا يقبل شخص المسيح معه. غير أن الإيمان الحقيقي الذي يجعل الكائن البشري يُحسّ هولَ

[1]- خر 4: 22، 23؛ تث 8: 5؛ هو 11: 1؛ ومواضع أخرى.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الذنوب وطغيان الشعور بالذنب عليه إنما يقتاده إلى المسيح بالذات، وهذا الإيمان لا يتعلق إلا بنعمة الله وحدها، كما أنه يفتخر بغفران الخطايا المجاني، ومنذ تلك اللحظة يبدأ بإعطاء ثمر الأعمال الصالحة.

وبالحقيقة أن هذا الإيمان الذي يعتمد فقط على نعمة الله في المسيح، والمدرك بالتالي لغفران الخطايا، هو وحده الإيمان المساوي حقاً للعمل الصالح. فما دمنا نجعل غفران الخطايا مؤسَّسا بالكامل على التأثرات الوجدانية التي نختبرها وعلى الأعمال الصالحة التي نقوم بها، فلابد أن نظلّ نعيش في خضمّ الخوف والهلع. عندئذٍ لا نكون قد صرنا أبناءً يقومون بأعمالهم بدافع من المحبة، بل نبقى عبيداً وأُجراء يقومون بها طمعاً بالأجر. وعندئذٍ أيضاً لا نعمل الأعمال الصالحة فقط لأنها صالحة، أي إكراماً لله، بل ما نزال نعملها لأجل الربح الشخصي تقريباً، لكي نحرز بواسطتها الرِّضى والقبول لدى الله. غير أن الصورة كلَّها تتغير عندما ندرك بالإيمان أن خلاصنا يستقر بالذات في نعمة الله وبرِّ المسيح. عندئذ نُقلع عن التركيز على البرِّ الذاتي ولا نعود نُكلّف أنفسنا عناء العمل لإحراز خلاصنا الخاص، لأن ذلك كلَّه مضمون لنا في المسيح يسوع. وإذ نتيقن من هذا الخلاص في المسيح، نستطيع أن نعكف على القيام بالأعمال الصالحة لنمجد بها الله أبانا. إذ ذاك لا ننجزها لأجل أنفسنا، بل لأجل الرب. فنحن نخصّ مسيحاً أُقيم من بين الأموات لكي نثمر لله (رو 7: 4). وبالناموس قد مُتنا للناموس حتى نحيا لله (غل 2: 19). ومثل هذه الأعمال تكون لأول مرة أعمالاً صالحة حقاً ناتجة عن الإيمان وتتم بحسب مشيئة الله، وغايتُها تمجيدُه تعالى.

وتبعاً ذلك، فإن الحرية التي تصبح من نصيب المسيحي في التبرير تقوم في أنه قد تحرر من مطالب الناموس ولعنته. وليس المؤمن محرَّراً من الناموس بمعنى أنه يستطيع أن يعيش وفقاً لرغبات قلبه، وأنه – بلغة اليوم – يستطيع أن يعيش حياته مستجيباً لميول طبيعته الشريرة ونزعاتها. ولكن للمؤمن، على نقيض ذلك، علاقته بالناموس تُعتبر أوثق جداً من ذي قبل، لأن الإيمان لا يُبطل الناموس بل يثبّته (رو 3: 31). فإن مطلب الناموس يتمُّ في الذين يسلكون ليس بحسب الجسد بل حسب الروح (رو 8: 4). وكيف يُعقل أن الذين ماتوا عن الخطية يعيشون بعدُ فيها؟ ولكن العلاقة التي تصير للمؤمن تجاه الناموس تختلف تماماً عن تلك التي كانت قائمةً من قبل. فهو يتمم وصايا الناموس بفضل قانون العرفان بالجميل؛ غير أنه مُعفى من حكم الناموس ولعنته.

وفي هذا المقام، يتمتع مؤمنو العهد الجديد في الواقع بامتياز مهم لم يكن لمؤمني العهد القديم مثله. ففي العهد القديم كانت غالباً ما تُوصف الديانة بـ"مخافة الله" وكان المؤمنون كثيراً ما يُلقبون بـ"عبيد الرب". صحيح أنهم أولاداً، لكنهم كانوا قاصرين، وبالتالي مثل العبيد الموضوعين تحت أوصياء ووكلاء إلى الوقت المحدَّد لدى الآب (غل 4: 1، 2؛ 3: 23، 24). ولكن لّما جاء ملء الزمان، أرسل الله ابنه، مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس (غل 4: 4). وإذ أكمل المسيح بنفسه كل برٍّ نيابة عنا (مت 4: 15)، وبصيرورته لعنةً من أجلنا (غل 3: 13)، وقبوله أن يكون خطيةً لأجلنا (2كو 5: 21)، حررنا من لعنة الناموس ومطالبه، وقد أُدّي ذلك على الوجه الأكمل. وهكذا لم نَعُد عبيداً للناموس، بل بالناموس متنا للناموس، ونحن الآن عبيدٌ للمسيح، نحيا لله (رو 7: 1– 4؛ غل 2: 19). لسنا بعدُ تحت الناموس، بل تحت النعمة، ونحن ثابتون في الحرية التي حررنا بها المسيح (رو 6: 15؛ غل 5: 1). لم تعد بعد القاعدة لنا: "اعمل هذه فتحيا". بل انعكس الترتيب بالتمام: فإننا نحيا بالإيمان، ونحن نتصرف بما يوافق الناموس، لأننا نُسرّ به حسب الإنسان الباطن. وهكذا صار الناموس بلا تأثير عكسي بالنسبة إلى المؤمنين. لم يعد للناموس أن يضعهم في موضع، لأن المسيح قد حمل لعنته وتولى بنفسه تنفيذ حُكم الناموس فيه. ولم يعد بعد للناموس أن يدينهم لأن المسيح قد أخذ على نفسه لعنة الناموس وتحمَّل كلَّ قصاصها. حتى الشيطان لم يعد يستطيع أن يركن إلى الناموس ليشتكي على الإخوة، فمن ذا يشتكي على مختاري الله ما دام الله نفسه هو الذي يبررهم، والمسيح الذي مات، وهو الآن ممجَّد، يشفع فيهم في السماء؟

في الوقت نفسه عندما يحدث التغيير الذي أدخله التبرير على العلاقة بين المؤمنين والناموس، من حيث مطالبه ولعنته، يحدث أيضاً في الوقت عينه تغييرٌ في علاقتهم بكل شيء وبالعالم ككل. فعندما نتصالح مع الله، نتصالح أيضاً مع كلِّ شيء. وعندما تكون علاقتنا بالله صحيحة وسليمة، تصير علاقتنا بالعالم صحيحة وسليمة أيضاً. ذلك أن الفداء الذي في المسيح هو فداءٌ من مذنوبية الخطية وقصاصها، ولكنه أيضاً افتداءٌ لنا من العالم الذي يحاصرنا ويضايقنا. نحن نعلم أن الله أحب العالم، وأن المسيح قد غلب العالم. يستطيع العالم أن يُضايقنا بعد، ولكنَّه لا يقدر أن يسلبنا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ثقتنا الوطيدة (يو **16**: **33**). والمؤمنون كأولاد للآب السماوي، لا يقلقون من جهة ما يأكلون وما يشربون وما يلبسون، لأنه يعلم أنهم يحتاجون إلى هذه كلِّها (مت **6**: **25** وما يلي). وهم لا يكنزون كنوزاً على الأرض، بل إن لهم كنزهم في السماء حيث لا يُفسِد سوسٌ ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون (مت **6**: **19**، **20**). يظهرون كمجهولين لكنهم معروفون، كمائتين لكنهم أحياء، كمؤدبين لكنهم غير مقتولين، كحزانى لكنهم دائماً فَرِحون، كأن لا شيء لهم لكنهم يملكون كل شيء (**2**كو **6**: **9**، **10**). وهم لا يعذبون أنفسهم بالنواهي "لا تَذُقْ، لا تمس"، بل يعتبرون خليقة الله كلَّها صالحة ويقبلونها بالشكر (كو **2**: **20**؛ **1**تي **4**: **4**). وهم يبقون ويعملون في الدعوة التي دُعوا فيها، وليسوا عبيداً للناس بل للمسيح وحده (**1**كو **7**: **20** – **24**). ويَرَون في التجارب التي تُلِمُّ بهم تأديباً لا عقاباً من الله وعلامة على محبته (عب **12**: **5** – **8**). وهم أحرارٌ تجاه جميع الخلائق لأن لا شيء يمكن أن يفصلهم عن محبة الله التي هي في المسيح يسوع ربهم (رو **8**: **35**، **39**). وبالحقيقة، كلُّ شيء لهم لأنهم هم للمسيح (**1**كو **3**: **21** – **23**)، إن كل الأشياء تعمل معاً للذين يُحبون الله والذي هم مدعوون حسب قصده (رو **8**: **28**).

إن المؤمن الذي برَّره المسيح هو المخلوق الأكثر حريةً في العالم – وعلى الأقل، هكذا ينبغي أن تكون الحال.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الرابع

التقديس

نظراً لأن صورة الله لم يكن قوامها المعرفة والبرّ فقط بل القداسة أيضاً، فإن رد الإنسان ينبغي أن لا يكون فقط إلى علاقة صحيحة بالله بل أيضاً أن يجدده من الداخل وفقاً لما يطلبه ناموس الله المقدس. فالخطية إثم، ولكنها أيضاً دنس. فالتبرير يُعفي الإنسان من إثمه، والتقديس يطهرّه من دنس الخطية. بالتبرير تغيّر ضميره، وبالتقديس تبدل كيانه، بفضل الأول استعاد الإنسان علاقته السليمة مع الله، وبفضل الثاني صار الإنسان صالحاً وقادراً على فعل الخير.

تكاد كلمة "قداسة" ومشتقاتها ترد على كل صفحة من صفحات الوحي المقدس. ومهما يكن المعنى الأصلي الذي به استُخدمت هذه الكلمة أولاً، فإنها في الكتاب المقدس لا تُستعمل البتة بمعناها المألوف عامةً بل إن لها في كل حين دلالة دينية. على أن الكلمة المستعملة في الكتاب المقدس جاءت على أكثر ترجيحٍ من أصل يعني "فرز" أو "فصل" أو "خصَّص". كذلك أيضاً لا يمكننا أن نحدد في أي معنى أُدخلت هذه الكلمة في مجال البحث الديني. فبحسب ما يرى بعضهم، نُسبت إلى الأشخاص والأشياء صفة القداسة أولاً لأنهم كانوا ينفصلون عن سائر الأشخاص والأشياء صفة القداسة أولاً لأنهم كانوا ينفصلون عن سائر الأشخاص والأشياء، فيُعزلون بالتالي عن الاستعمال العام – إذا صحّ التعبير. ومن هنا كان نقيض القداسة هو النجاسة والدنس وعدم القداسة والحقارة.[1] وبحسبما يرى آخرون، قُصِدَ بهذه الكلمة أولاً، فيما يتعلق بالأمور الدينية، أنه جُعلت للأشخاص والأشياء علاقة خاصة بالله، فكانوا بهذا المعنى مختلفين عن سواهم. ويمكن القول، بالنسبة إلى هذا الرأي، أن الأشخاص والأشياء ليسوا بالطبيعة مقدَّسين في ذواتهم البتة، بل يمكن أن يصيروا كذلك فقط من خلال عملٍ معيّن يُجرى لهم. وليس في وسطهم أيضاً أن يقدسوا أنفسهم، لأن مصدر كل قداسة وتقديس إنما هو الله. فالرب قدوس، ولذلك يطلب لنفسه شعباً مقدساً وكهنوتاً مقدسا وهيكلاً مقدساً.[2] وهو الذي يبيّن من هو له ومن المقدَّسون (عد **16**: **5**).

وعليه، فكثيراً ما دعى الله في العهد القديم باسم "القدوس". وفقط في (دانيال **4**: **8**، **9**، **18**؛ **5**: **11**) يتحدث نبوخذ نصر أيضاً عن آلهته القدوسين. وإذ تُستعمل لفظة "القدوس" هذه بالإشارة إلى الكائن الإلهي لا يُقصد بها إلصاق صفة خاصة إليه ضمن صفاته التي له، بل إنها تُستخدم بالأحرى للتعبير عن عظمة الله وسموه وجلاله ونزاهته. فليس قدوس مثل الرب، لأنه ليس غيره؛ وليس صخرة مثل إلهنا (**1**صم **2**: **2**). إنه الله وليس إنساناً (هو **11**: **9**). وما من أحد يقوى على الوقوف أمام الرب الإله القدوس (**1**صم **6**: **20**). وهو مرتفع جداً على جميع الآلهة، معتزّ في القداسة، مَخوفٌ بالتسابيح، صانع عجائب (خر **15**: **11**). إنه مَخوف من مقادسه (مز **68**: **35**)، واسمه عظيم ومهوب (مز **99**: **2**، **3**)، والقسم بقدسه هو قسمٌ بنفسه (عا **4**: **2**؛ **6**: **8**). وباختصار، فإن القداسة تشير إلى الله في تنزهه عن جميع الخلائق وتعاليه عليها. إنه القدوس لأنه هو الله. وإشعياء على الخصوص يؤثر إطلاق هذه الكلمة على الله.[3]

وتتجلى قداسة الله في جميع علاقاته مع شعبه. فإن إعطاءه الشريعة لبني إسرائيل يرتكز بجملته على قداسة الله باعتبارها المبدأ الأول كما يهدف إلى تقديس الشعب. إنه قدوس في جميع إعلانه وفي كل ما يصدر عنه تعالى: فاسمه قدوس (لا **20**: **3**)، وذراعه مقدسة (مز **98**: **1**)، وعهده تقديس (دا **11**: **28**)، وكلمته مقدسة (مز **105**: **42**)، وروحه قدوس (مز **51**: **11**؛ إش **63**: **10**، **17**). ومن هنا يريد لشعبه أيضاً أن يكونوا قديسين.[4] وبين ذلك الشعب يريد خصوصاً من الكهنة واللاويين، الذين يخدمون في المقدسات والمُفرزين لعملهم بإجراءات طقسية معينة، أن يكونوا قديسين (خر **29**). وفي الواقع ينبغي أن يكرّس للرب ويُعتبر مقدساً كل شيء له علاقة ما بخدمته، سواء في تلك الأمكنة

---

[1]- لا 10: 10؛ 1صم 21: 5؛ حز 22: 6.
[2]- خر 19: 6؛ 29: 43؛ لا 11: 45 وما يلي؛ 19: 2.
[3]- إش 5: 16؛ 6: 3؛ 29: 23؛ 30: 11، 12. قارن حز 37: 28؛ 39: 7؛ حب 1: 12؛ 3: 3.
[4]- خر 19: 6؛ 29: 43 – 46؛ لا 11: 44؛ 19: 2.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والأزمنة أو التقدمات وأثواب الكهنة أو الهيكل وما شابه. وكامل المغزى من إعطاء الشريعة هو أن يكون الشعب مملكة كهنة وأمة مقدسة للرب (خر 19: 6). ويكون الشعب مقدساً بالفعل إذا تجاوب في كل شيء مع الشريعة التي أعطاه الله إياها.

وينبغي لنا أن نذكر أن هذه الشريعة لم تقتصر على الوصايا الأدبية بل شملت أيضاً عدة وصايا مدنية وطقسية. لذلك كان قوام القداسة هو الكمال أو الامتثال الكلي للشريعة، ولكن هذا الكمال لم يكن ذا طبيعة أدبية فقط بل ذا طبيعة مدنية وطقسية. على أن الشعب كثيراً ما جنحوا إلى ناحية واحدة والتمسوا جوهر الدين في الطهارة اللاوية الخارجية. وتبعاً لذلك كان على الأنبياء أن يعترضوا على ذلك ويُعلنوا أن الطاعة أفضل من الذبيحة والإصغاء خير من شحم الكباش (1صم 15: 22). وكان عليهم أن يقولوا إن الله يريد رحمةً لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من المحرقات (هو 6: 6). كان عليهم أن يعلنوا أن الله لا يطلب من الإنسان شيئاً غير أن يصنع الحق ويحب الرحمة ويسلك متواضعاً أمامه تعالى (مي 6: 8). وقد أشار الأنبياء إلى أن قداسة الله تكمن في كماله الأدبي، في تعاليه عن نجاسة خلائقه ومناقضته لها (إش 6: 3 – 7). وعندما يدنس البشر اسم الله وعهده، يتقدس هو بالبرّ (إش 5: 16؛ حز 28: 22). وبوصفه القدوس فلابد من أن يعاقب العدو ليعرف شعبهُ أنه هو الرب (إر 50: 29؛ حز 36: 23؛ 39: 7)، لكنه سيُنجي شعبه بتطهيرهم من كلِّ إثم، وإقامته معهم عهداً جديداً، وجعلهم يسلكون في طرقه بقلب جديد (إر 31: 31 – 34؛ حز 36: 25 – 29). وهو يفعل ذلك لا لأجل الشعب، بل لأجل اسمه العظيم (إش 43: 34؛ حز 36: 22).

ومثلما أعطى الله شعبه في العهد الجديد برّاً في المسيح هكذا أعطاهم قداسة في ابن محبته. والمسيح هو قداستنا أو تقديسنا، مثلما هو حكمتنا وفداؤنا، بالطريقة عينها وبالمعنى نفسه. وعلينا أن نعرف أنه كان، أول كلِّ شيء، متمتعاً بقداسة شخصية، وإلا فما كان له أن يحرز قداسة لنا. فذاك الذي حُبِلَ به في مريم من الروح القدس ووُلد منها إنما هو القدوس وقد دُعي ابن الله (لو 1: 35). وعند معموديته فيما بعد، نزل عليه الروح القدس بغير كيل، وكان ممتلئاً من الروح القدس (لو 3: 22؛ 4: 1). والمسكونون بالأرواح الشريرة اعترفوا به أنه قدوس الله (مر 1: 24؛ لو 4: 34). والرسل، بلسان بطرس، أقروا هذا الإقرار: يا ربّ إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك، ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحيّ (يو 6: 68). وفي (أع 4: 27) (قارن 3: 14)، يتكلم الرسول نفسه عن المسيح بوصفه فتى الله القدوس (ابنه أو خادمه)، والمسيح في (رؤيا 3: 7) يدعو نفسه "القدوس الحق". فكما كان المسيح مدركاً كماله وخلوّه من الإثم،[1] كذلك يشهد رسله أيضاً بأنه لم يفعل خطية ولا وُجد في فمه مكر.[2]

على أنه ينبغي لنا، فيما يتعلق بالمسيح، أن نميز بين القداسة التي كانت له بطبيعته وتلك التي أحرزها بطاعته الكاملة. فإن الحبل به بغير دنس وولادته قدوساً كان لهما، في المقام الأول، فضل أن يكون وسيطنا (التعليم المسيحي لهيدلبرج – الجواب 16)؛ ولكن كان لهما أيضاً فضل أنه – وهو وسيطنا منذ لحظة الحبل به – يستر الخطية التي فيها حُبل بنا ووُلدنا، يسترها ببراءته وقداسته الكاملة أمام وجه الله (التعليم المسيحي لهيدلبرج – الجواب 36). فالقداسة التي وُلد فيها جعلها حالاً جزءاً من القداسة التي كانت له طيلة حياته، بل حتى مماته، أن ينجزها لكنيسته. ونحن نعلم مثلاً أن الآب كان قد قدسه قبل تجسده، خاصاً إياه بدور الوسيط، ولأجل هذه الغاية بالتحديد أرسله إلى العالم (يو 10: 36). والمسيح أيضاً قدس نفسه وسلّم ذاته لمشيئة الآب قبل الحبل به في مريم والولادة منها. إذ كان تجسده إتماماً لمشيئة الآب السابقة وفعل تقديس (عب 10: 5 – 9). فلم يكن يكفي أن يكون المسيح قدوساً، بل كان عليه أيضاً أن يقدس نفسه من لحظة الحبل به حتى ساعة موته.

وبوصفه الوسيط، فقد خضع رغم كل شيء لأقسى التجارب والمحن، خصوصاً بعد قبوله المعمودية ومسحه بالروح القدس وانطلاقه في خدمته العلنية. وما التجربة التي نقرأ خبرها في الأناجيل إلا مبتدأ حياة ملؤها الجهاد؛ فلما كملت تلك التجربة، فارقه إبليس إلى حين (لو 4: 13). ولا يمكننا أن نتصور ماهية تلك التجارب، لكنه يُقال لنا صراحة إنه أشبه إخوته "في كل شيء" وجُرِّب في كل شيء مثلنا، إنما بلا خطية (عب 2: 17؛ 4: 15). فليس لنا من ضعف إلا وهو عليم به، وما من تجربة إلا ويقدر أن يعيننا عليها. ولكن بينما نتعثر نحن كل حين يبقى هو أميناً إلى النهاية. فهو قد جُرِّب في كل شيء، لكنه كان بغير خطية، وقد أطاع حتى الموت – موت الصليب (في 2: 8). وهو لم يُصلِّ طالباً أن

[1]- مت 12: 50؛ يو 4: 34؛ 8: 46.
[2]- 2كو 5: 21؛ عب 4: 15؛ 7: 26؛ 1بط 1: 19؛ 2: 22؛ 3: 18؛ 1يو 2: 1؛ 3: 5.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يُعفى من الموت، بل قدّم، بصراخ شديد ودموع، طلبات وتضرعات للقادر أن ينجيه من الموت، لكي يظل على ثباته في آلامه ويحرز في موته الحياة. ولقد استجيبت له هذه الصلاة (عب 5: 7).

لكنه، مع كونه ابناً، كان لابد من أن يتعلم الطاعة مما تألم به (عب 5: 8). فقد كان مطيعاً منذ البداية، وكان راغباً في أن يكون مطيعاً، إذ كان طعامه هو أن يعمل مشيئة الآب (يو 4: 34). غير أنه، في آلامه، قبل الفرصة للبرهنة على تلك الطاعة – ففي آلامه وبواسطتها تسنى له أن يترجم رغبته في الطاعة وعزمه عليها إلى فعلٍ ملموس. وهكذا تقدس بما عاناه من الآلام (عب 2: 11؛ 5: 9) تقدّس لا بالمعنى الأدبي بل بمعنى التكميل وبلوغ الغاية المنشودة دائماً وأبداً، ومن أجل الموت كُلّل بالمجد والكرامة (عب 2: 9؛ 12: 2). وهكذا صار رائد الخلاص ومكمل الإيمان بالنسبة إلى أولاد الله (عب 2: 10؛ 12: 2). فباحتماله للصليب واستهانته بالخزي، ناظراً إلى السرور المُعدّ له بعد اتضاعه، صار منشئ الخلاص لخاصته، رائد ذلك الخلاص وصانعه، كما صار في الوقت عينه من يُوجد ذلك الإيمان فيهم ويوصله إلى غايته. إنه بتكميل نفسه في طريق الطاعة بسعيه إلى المجد عن يمين الآب عن طريق الاتضاع الأعمق، صار موجد الخلاص الأبدي لجميع الذين يطيعونه (عب 5: 9). أجل لقد قدس المسيح نفسه، فقدم نفسه ذبيحة حتى الموت، في سبيل أن يُقدّس تلاميذه في الحق (يو 17: 19). وهكذا أُعطي لنا من الله لأجل تقديسنا (1كو 1: 30).

ولكي نفهم تقديس المسيح للمؤمنين حق الفهم، ينبغي لنا أن ندرك يقيناً أنه هو قداستنا مثلما هو برُّنا، بالمعنى عينه. فهو مخلِّصٌ كاملٌ وكافٍ، إذ لا يتمّم عمله جزئياً فحسب، بل يخلصنا فعلاً إلى التمام؛ وهو لا يرجئ عمله ريثما يوصلنا إلى نصيبنا في الحياة الأبدية والسعادة السماوية. وعليه، فبواسطة برِّه لا يعيدنا فقط إلى مقام الأبرار، الذي يقفون أمام قضاء الله أبرياء من الذنب، لكي يترك المسألة بين أيدينا فيما عدا ذلك، بحيث إننا – إذا جاز التعبير – ننطلق الآن كي نكسب الحياة الأبدية عن طريق القيام بالأعمال الصالحة ونجعل أنفسنا مشابهين للصورة التي يريدها لنا الله. كلا، بل إن المسيح يكمّل كل هذا العمل عنا. فهو قد حمل عنّا ذنب الخطية وعقابها، وهو أيضاً حفظ الشريعة عنّا وأحرز لنا الحياة الأبدية. فقد كانت طاعته طاعة "خضوع" وطاعة "عمل" في آن واحد.

وقد كانت قيامة المسيح هي البيّنة على ذلك. فبها نعلم أن الله لم يترك نفس المسيح في الهاوية (والمقصود بها طبعاً في هذا السياق لا موضع المحكوم عليهم بالعذاب، لأن نفس المسيح بعد موته كانت في الفردوس، بل القبر أو عالم الأموات الذي انضمّ إليه المسيح أيضاً مدة بقائه في حال الموت) ولم يدع قدوسه يرى فساداً، بل عرّفه سبل الحياة وملأه سروراً بمعاينة محيّاه تعالى (أع 2: 27، 28؛ 13: 35 – 37). وبحسب روح القداسة الذي كان مقيماً في المسيح، فإنه بعد قيامته من بين الأموات تبيّن وتعيّن من قبل الله أنه ابنه بقوة (رو 1: 4)، وجُعل رئيساً ومخلصاً لكي يعطي الشعب التوبة ومغفرة الخطايا (أع 5: 31) فكان رئيس الحياة الذي أحرز الحياة الأبدية ويعطيها الآن لخاصته (أع 3: 15).

غير أن هذا التقديس الذي أنجزه المسيح لكنيسته لا يبقى خارجاً عنا، بل بالأحرى نُعطى نصيباً فيه. ففي التبرير تُعلن براءتنا من الذنب والعقاب على أساس برّ خارج عنا وموجود في المسيح يسوع، وبنعمة الله يُحسب لنا ويُقبل بالإيمان من جانبنا. أما في التقديس فإن قداسة المسيح، بكل يقين، تُسكب فينا بالروح القدس. وعليه فعندما يتحدث الكاثوليك عن نعمة تُسكب فينا، لا يكون لنا اعتراض على هذا الأمر في حدّ ذاته، بل نعترض على القول بأن هذه النعمة تُحسب لنا جزءاً من البرّ الذي على أساسه تُعلن براءتنا أمام الله. فلو كان ذلك صحيحاً، لاختلط التبرير والتقديس – أي الإعفاء من الذنب والتطهير من الدنس – بعضهما ببعض، وسُلب المسيح كمال برّه المحرز، وحُرمت النفس راحتها ويقينها. على أن هنالك فعلاً نعمةً مسكوبة؛ إذ هنالك حقاً "المسيح فينا" كما أن هنالك "المسيح عنا". ويوجد شيء يسمى التجدّد حسب صورة الله، كما يوجد ما يدعى نقلاً إلى مقام الأبرار. كما أن ثمة تغييراً في حالتنا الأدبية مثلما يوجد تغيير في مقامنا أمام الله.

وفي الواقع أن هذا التقديس يجب أن يتم تحقيقه بتصميم وقوة لا يقلان عنهما فيما يتعلق بالتبرير. فلطالما اعتبر كثيرون أن غفران الخطايا هو بركة المسيح العظمى، وأنكروا تجدّد الإنسان الداخلي حسب صورة الله، أو على الأقل أهملوا هذا التجدّد وتركوا سبر أغواره. فهؤلاء

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يذهبون إلى أنه ما دام المرء قد تبرر وهو يعي ذلك بالإيمان فلا حاجة إلى حصول شيء أكثر من ذلك. ويقولون بأن إدراكه لمغفرة الخطايا يجعله بالفعل شخصاً مختلفاً. وبكلمة موجزة، فإن التبرير والتجديد في نظر أمثال هؤلاء ليسا إلا اسمين لمسمى واحد.

إنه لصحيح كلياً أن المسيحي الذي يؤمن إيماناً صادقاً بأن جميع خطاياه – بمحض النعمة وباستحقاقات المسيح فقط – قد غُفرت له، يصير بكل يقين شخصاً مختلفاً بوعيٍ منه. فهو يشعر بأنه معفيً من كل ذنب، وقد وجد سلاماً مع الله إذ تبرر بالإيمان، وله الثبات في الحرية التي بها حرره المسيح، وهو يستطيع أن يقول مع داود: طوبى للذي غُفر إثمه وسُترت خطيته، طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطيةً (مز **32**: **1**، **2**)! حتى إن تغييراً كهذا يمكن أن يُدعى تجديداً للوعي.

ولكن إذا استطرد المرء ليستدلّ بهذا على أن التبرير والتجديد سيّان، يكون مخطئاً ومناقضاً بالكلية لشهادة الكلمة المقدسة. فعلى الرغم من كل شيء، نعلم أن الإيمان الحقيقي الخلاصي الذي يقبل برّ المسيح ويصير واعياً لغفران الخطايا لا يصدر عن الإنسان الطبيعي إطلاقاً، بل هو من ثمار الولادة الجديدة، ولذلك فهو يفترض حدوث تغيير روحي سابق جرى بالروح القدس وما يتمتع به المؤمن من فرح وسلام في القلب من جراء تيقنه من مغفرة خطاياه، إنما هو من خصال الإنسان الروحي الذي أُقيم من موت الخطية بفضل المسيح.

أضف إلى هذا أنه لابد من التمييز بين الوضع الشرعي الذي يكون الإنسان فيه والحالة التي يجد نفسه فيها. فهذان يختلف أحدهما عن الآخر كثيراً، بحيث إن شخصاً بريئاً في بعض الأحيان قد يُتهم ويُحكم عليه وآخر مذنباً قد يبرئه القاضي. وعليه فإن وضع المرء الشرعي لا يغير حالته رغم ذلك، والعكس صحيح أيضاً. وهذا لا يصحّ في المجال الطبيعي فقط بل في الروحي أيضاً. فالخطية ليست ذنباً وحسب، بل هي دنس أيضاً. ونحن نُحرَّر من الأول بالتبرير، ومن الثاني بالتقديس. فالخلاص الكامل لا يقتصر على المعرفة والبر، بل يتعداهما إلى التقديس والتحرير. ولذلك أعطانا المسيح عطيتين مقترنتين، هما غفران الخطايا والحياة الأبدية.

ثم إن ما يحسم الأمر في هذا الموضوع هو أن الكلمة المقدسة تميز بين التبرير والتجديد بكل وضوح. فقد تضمّن وعد العهد القديم الفكرة التي مفادها أن الرب في العهد الجديد سوف يصفح عن إثم شعبه، ولكنه أيضاً تضمن الفكرة التي تفيد أنه سيعطيهم قلباً جديداً يكتب عليه شريعته.[1] وسوف يضع روحه في داخلهم، ويجعلهم يسلكون في فرائضه ويحفظون أحكامه ليعملوا بها (حز **36**: **27**). ولكي يتمّ المسيح ذلك الوعد لم يكتفي ببذل نفسه فديةً عن كثيرين، بل إنه بعد ارتفاعه إلى يمين الآب أرسل أيضاً الروح القدس حتى يسكن ذلك الروح في الكنيسة ويعمل فيها. وقد سبق لنا أن أشرنا إلى ما ينجزه الروح في الكنيسة: ففي الروح وبه يقدم المسيح نفسه وجميع بركاته ليتشارك فيها شعبه.

وتبعاً لذلك، فبعدما عالج الرسول بولس في رسالته إلى أهل رومية موضوع التبرير أولاً، يتقدم في الإصحاح السادس إلى موضوع التقديس. وكما كان فيما بعد، كذلك كان في أيام الرسل، قوم يعتقدون أن تعليم التبرير المجاني من شأنه أن يؤثر سلبياً في الحياة الأخلاقية. فقد خشي هؤلاء أن يبيح الناس لأنفسهم – إنطلاقاً من الاعتراف بهذا التعليم – ارتكاب الخطية لكي تنتج الخيرات من ذلك وتتوافر النعمة (رو **3**: **8**؛ **6**: **1**). هذه التهمة يردها بولس ويقول إنه يستحيل على الذين ماتوا بالنسبة إلى الخطية أن يعيشوا بعد فيها (رو **6**: **2**).

ويبرهن بولس ذلك بالإشارة إلى أن المؤمنين الذي نالوا بالإيمان غفران الخطايا والسلام مع الله قد دُفنوا أيضاً – كما تشهد معموديتهم – مع المسيح في موته وأُقيموا معه للسلوك في حياة جديدة. (رو **6**: **3** – **11**). فعند بولس أن المؤمنين هم دائماً أشخاص لم يكتفوا بقبول برّ الله في المسيح لمغفرة خطاياهم فقط، بل إنهم شخصياً قد ماتوا وأُقيموا بشركتهم مع المسيح، ولذلك هم أموات عن الخطية ولكن أحياء لله بالمسيح.[2] وبعبارة أخرى، إن لموت المسيح قوة تقديسية أيضاً كما أن له قوة تبريرية (**2**كو **5**: **13**). والإيمان الذي له الختم الصحيح عليه لا يقبل المسيح

[1]- إر 31: 33، 34؛ حز 36: 25، 26.
[2]- غل 2: 20؛ 3: 27؛ كو 2: 12.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

باعتباره برّاً فقط بل باعتباره قداسة أيضاً، حتى أنه يستحيل في الواقع فصل هذين أحدهما عن الآخر. فلا يجوز أن ينقسم المسيح، ولا يمكن أن تُفصل هباته عن شخصه. وهو لنا في آن واحد الحكمة والبرّ والقداسة والفداء (1كو 1: 30). فهكذا صار لنا من الله، وهكذا أعطانا الله إياه.

إذاً القداسة التي علينا أن نشترك فيها تكمن لنا مُحرزةً في المسيح بالكمال والتمام. غير أن كثيرين من المسيحيين، على الأقل في حياتهم العملية، يفكرون في هذا الأمر تفكيراً مختلفاً جداً. فهم يقرّون بأنهم مبررون بالبر الذي أنجزه المسيح، لكنهم يعتقدون، أو على الأقل يتصرفون بوحي من اعتقاد كهذا، أنه ينبغي لهم أن يقدَّسوا بقداسة يجب أن يحرزوها هم أنفسهم. ولو كان هذا صحيحاً، لما كنا نعيش تحت النعمة في الحرية بل تحت عبودية الناموس، الأمر الذي يناقض الشهادة الرسولية مناقضةً صريحة.[1] على أن التقديس الإنجيلي يتميز أيضاً عن التقديس الشرعي كما أن برّ الله المُعلَن في الإنجيل يتميز أيضاً، لا في مضمونه بل في أسلوب الإفادة منه، عن البرّ الذي كان مطلوباً في الناموس. وهذه هي حقيقة الأمر: أن الله يعطينا في المسيح التقديس الكامل مع التبرير، وهو يعطينا ذلك كعطية داخلية نمتلكها بالولادة الجديدة وعمل الروح القدس التجديدي.

وعليه، فالتقديس هو عمل الله، عمل برّه ونعمته في وقت واحد. إذ إن الله يحسب المسيح وكل خيراته في حسابنا، ومن ثم يقدمه لنا بكل ملئه لنستفيد منه. فالله هو الذي يختن القلوب (تث 30: 6)، ومن ينزع قلب الحجر ويُحلّ محله قلب لحم (حز 11: 19)، ويسكب روحه على البشر (يؤ 2: 28)، ويجعل روحاً جديدة في داخلهم (حز 11: 19، 36: 26)، ويكتب شريعته في قلوبهم ويجعلهم يسلكون في طرقه ويتخذهم له شعباً.[2] ويوضح العهد الجديد هذا الأمر بأكثر ما يمكن من القوة حيث نقرأ أن المؤمنين هم عمل الله (رائعته أو تحفته) وقد خُلقوا في المسيح يسوع (أف 2: 10) خليقةً جديدة (2كو 5: 17؛ غل 6: 15) وهم عمل الله (رو 14: 20). وهنا يُدعى المؤمنون أيضاً فلاحة الله وبناء الله،[3] ونُفادُ أن الكل هو من الله (2كو 5: 18). ولّما دُفن المؤمنون مع المسيح وأُقيموا معه، غُسلوا أيضاً وقُدِّسوا؛[4] ويظلّون يُقدَّسون بعد أن يصيروا في النهاية مشابهين كلياً لصورة الابن.[5] فإن سلسلة الخلاص لا يمكن كسرها لأنها، من البداية إلى النهاية، عمل الله. والذين عرفهم ودعاهم وبرّرهم، فهؤلاء مجَّدهم أيضاً (رو 8: 30).

وعلى أساس عمل التقديس هذا الذي يجريه الله بروح المسيح في الكنيسة، يدعى المؤمنون "قديسين" مراراً وتكراراً في الكتاب المقدس. وكان بنو إسرائيل قد دُعوا كذلك في القديم (حز 19: 6). فقد ميزهم الرب من بين الشعوب ليكونوا له (لا 20: 26) ولكي يسلكوا في طرقه (خر 19: 5). وفي المستقبل، عندما يقيم الله عهده الجديد الوطيد، سيدعي شعبه مفديّي الرب،[6] وذلك بمزيد من الحق وبمعنىً أعمق. قدَّس رئيس الكهنة العظيم، في أيام العهد الجديد، ذاته لأجل خاصته ليكونوا هم أيضاً مقدسين في الحق، (يو 17: 19)، يُضفي على المؤمنين لهذا في الحال أيضاً اسم المقدَّسين أو القديسين.[7] ولا يتضمن هذا الاسم أنهم، بمعنىً أدبي، خلوٌ من أية خطية وفوق كل خطية، بل بمعنى أن كنيسة العهد الجديد قد حلّت الآن محل إسرائيل القديم إذ صارت خاصة الرب،[8] كما أنها أيضاً قد تقدّست في المسيح وصارت هيكلاً للروح القدس.[9]

على أن هذا التقديس الذي أعطاه المسيح للكنيسة، والذي أُعطي لها أولاً بالروح القدس، يُلقي مسؤولية شاقة على المؤمنين. فالتقديس مع أنه عملٌ إلهي، لكنه يُقصد به أن يكون عملاً فيه ينشط المؤمنون بقوة الله. وفي العهد القديم نقرأ مرة أن الرب نفسه يقدّس شعبه،[10] ومرة أخرى أنه يجب على الشعب أن يقدسوا أنفسهم.[11] وحيناً نقرأ أن الرب يختن القلب، وآخر أن بني إسرائيل مدعوون لأن يختنوا غرلة قلوبهم (تث 30: 6؛ تث 10: 16؛ إر 4: 4). وآناً يدعى التجديد عمل الله (إر 31: 18؛ مرا 5: 21)، وآناً آخر مسؤولية الإنسان نفسه (إر 3: 12،

---

[1]- رو 6: 14؛ غل 4: 31؛ 5: 1، 13.
[2]- إر 31: 33؛ 32: 38؛ حز 36: 27، 28.
[3]- 1كو 3: 9؛ أف 2: 20؛ كو 2: 7؛ 1بط 2: 5.
[4]- 1كو 1: 2؛ 6: 11؛ تي 3: 5.
[5]- يو 17: 17؛ 2كو 3: 18؛ 1تس 5: 23؛ أف 5: 26؛ تي 2: 14؛ عب 13: 20، 21.
[6]- إش 62: 12؛ يؤ 3: 17؛ عو 17؛ زك 8: 3؛ 14: 20.
[7]- أع 9: 13، 32، 41؛ 26: 10؛ رو 1: 7؛ 1كو 1: 2، مواضع أخرى.
[8]- 2كو 6: 16؛ غل 6: 16؛ 1بط 2: 5.
[9]- يو 17: 19؛ 1كو 1: 30؛ 3: 16؛ 6: 11، 19.
[10]- خر 31: 13؛ لا 20: 8؛ 21: 8.
[11]- لا 11: 44؛ 20: 7؛ عد 11: 18.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

13؛ وآيات أخر). كذلك أيضاً في العهد الجديد يقدَّم التجديد كعطية من الله في المسيح وكعمل الروح القدس الذي يقدَّس به المؤمنون.[1] ولكن هؤلاء المؤمنين، رغم ذلك، يدعون أن يكونوا كاملين كما أن أباهم الذي في السماء هو كامل (مت 5: 48)، وأن يعملوا أعمالاً حسنة تمجد الآب الذي في السماء (مت 5: 16؛ يو 15: 8)، وأن يقدموا أعضاءهم آلات برّ للقداسة (رو 6: 19)، ويكونوا قديسين في كل سيرة وعمل (1بط 1: 15؛ 2بط 3: 11)، وينشدون القداسة ويكملوها في مخافة الرب، ويتبعون،[2] السلام مع الجميع والقداسة التي بدونها لا يرى أحد الرب (عب 12: 14).

ولكن القداسة الموهوبة لا تتعارض والقداسة المطلوبة على الإطلاق. بل الأصح أن يُقال إن سعي المؤمنين في العمل على تقديس ذواتهم لا يُتاح لهم إلا بواقع كون ذلك عملاً من أعمال الله ينجزه فيهم. فيقيناً أن النعمة تُصلِح حال الطبيعة بدلاً من أن تلغيها كلياً. ولما كان الإنسان، بسبب من الخطية، قد فقد الرغبة والقدرة على السير في طرق الرب، فإنه بفضل الخليقة الجديدة قد صار فيه ميلاً بل توجهاً، من حيث المبدأ على الأقل، لأن يسلك باستقامة لا في بعض وصايا الله بل فيها جميعاً. فعندما يخترق الله الأجزاء الداخلية من الكائن البشري بالعمل الفعال بالروح المجدِّد، فإنه يفتح القلب المغلق، ويليّن ما هو قاسٍ، ويختن ما هو أغلف. إنه يغرس في الإرادة إمكانيات جديدة، يحيي الإرادة الميتة ويصلح الإرادة الشريرة والإرادة التي كانت ميتة تحيا من جديد، والإرادة التي كانت شريرة تصبح صالحة، والإرادة التي لم تكن تريد الطاعة تختار طُرقه، والإرادة التي كانت عاصية تصير مطيعة. فهو يحوّل تلك الإرادة ويقويها بحيث تصير قادرة على إتيان الأعمال الصالحة كما تثمر الشجرة الجيدة ثمراً جيداً.

وتبعاً لذلك، فعندما تعبِّر الكنائس المُصلحة عن فكرها على هذا النحو في إقرار إيمانها (قوانين دورت)، فإنها تضع بذلك نفسها على أساس الكلمة المقدسة وتجد دعماً وثيقاً في القول البعيد الغور الذي قال الرسول بولس: تمموا خلاصكم (عملياً) بخوف ورعدة، لأن الله هو العامل فيكم أن تُريدوا وأن تعملوا من أجل المسرّة (الإلهية) (في 2: 12، 13)، فكما أنه التبرير يكون غفران الخطايا مُعدًّا لنا كاملاً في المسيح، ولكن لا يمكن قبوله والتمتع به من جانبنا إلا بإيمان حيٍّ وفعال، فكذلك أيضاً يقدسنا الله مستخدماً إيانا شخصياً. إنه لا يلغي شخصيتنا بل يرقيها، ولا يقتل عقلنا وإرادتنا ورغباتنا بل بالأحرى يحييها نظراً لأنها كانت ميتة ويجعلها عاملة. إنه تعالى يجعلنا حلفاءه وشركاء عمل.

ولكن تقديس المؤمنين هذا ينبغي أن يفهم على حقيقته. فلا يجوز أن يصير تقديساً شرعياً، وإنما هو تقديس كرازي – وهكذا ينبغي أن يظل. فهو لا يقوم على حقيقة كون المؤمنين ينطلقون ليقدسوا أنفسهم بقداسة أوجدوها هم بأنفسهم، أو بقداسة موجودة سابقاً لكن عليهم أن يخصصوها لذواتهم بمجهودهم وأعمالهم الصالحة. فالقداسة التي يعلنها الله في الإنجيل ليست فقط مُعدَّة بالكامل على يد المسيح، بل إنها أيضاً تتم بواسطة روحه وتُطبَّق على قلوبنا وتتحقق هناك عملياً. وما أحسن ما يقوله بولس بصدد هذا في (أفسس 2: 10)، "ونحن عمله (رائعته) مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكي نسلك فيها"! وكما أن الخليقة الأولى برزت إلى الوجود بواسطة الكلمة، هكذا الخليقة الثانية تنال وجودها بالشركة مع المسيح. فالمؤمنون قد صلبوا، ماتوا، دفنوا بالشركة مع المسيح، ومعه أيضاً أُقيموا وولدوا ثانيةً إلى حياة جديدة.

ولهذه الخليقة الجديدة غرضٌ محدد، فإن غايتها الأعمال الصالحة التي يعملها المؤمنون. فالله لا تهمه الشجرة بقدر الثمار، كما يهمه تمجيده بهذه الثمار. ولكن هذه الأعمال الصالحة لا تبرز إلى الوجود على نحوٍ مستقل وجديد بأيدي المؤمنين أنفسهم. فهي مُعدَّة لهم جميعاً، ولكل منهم شخصياً، بحسب رأي مشيئة الله. إن هذه الأعمال قد أُنجزت وأُحرزت لهم على يد المسيح الذي ناب عنهم في تتميم برّ الناموس كلِّه، وهي عاملة فيهم بالروح القدس الذي يأخذ كل شيء من المسيح ويوزع على كل واحد بحسب مشيئة المسيح. وعلى هذا، ففي وسعنا أن نقول عن التقديس بجملته، وعن أعمال الكنيسة الصالحة كلِّها، أي عن أعمال جميع المؤمنين معاً وكل مؤمن بمفرده، إنها لا تبرز إلى الوجود أولاً على أيدي المؤمنين، ولكنها موجودة قبل ذلك بزمن طويل جداً في مسرّة الآب الصالحة، وفي عمل الابن، وفي توزيع الروح القدس. من هنا يُنحى جانباً كل افتخار من جانب الإنسان في مسألة التقديس هذه. فعلينا أن نعلم أن الله لا يصير مديناً لنا بحالٍ من الأحوال، ولذلك لا يمكن البتة أن يكون معترفاً بجميلنا،

[1]- يو 17: 17- 19؛ 1كو 1: 2؛ 1تس 5: 23.
[2]- 2كو 7: 1؛ 1تس 3: 13؛ 4: 3.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

عندما نقوم بأعمال صالحة. بل إننا نحن، على النقيض من ذلك، ندين لله بالفضل فيما يتعلق بالأعمال الصالحة التي نؤديها، ومن واجبنا أن نكون شاكرين له عليها.

على ذلك تترتب أيضاً أهمية الإيمان في عمل التقديس. فنحن بالإيمان مخلَّصون، لا من حيث التبرير فقط، بل من حيث التقديس أيضاً. إذ إننا، من جهتنا، لا يمكننا أن نقبل المسيح وبركاته ونخصصها لنا إلا بالإيمان. ولو كان البر والقداسة من ثمار الناموس، لكان من واجبنا أن نحققهما كلتيهما بإتيان الأعمال الصالحة. لكنهما، في الإنجيل، عطية من الله تُمنح لنا في شخص المسيح: فإن فيه ملء النعمة والحق (يو 1: 17)، والحكمة والمعرفة (كو 2: 3)، والبرّ والقداسة (1كو 1: 30). وفيه توجد كل بركة روحية (أف 1: 3)، ويحلّ ملء اللاهوت جسدياً (كو 2: 9). هذا المسيح يعطينا ذاته بالروح القدس، ويتّحد بنا اتحاداً وثيقاً كما تتحد الكرمة بأغصانها (يو 15: 2 وما يلي)، والرأس بالجسد (ف 1: 22، 23)، والعريس بالعروس (ف 5: 32)،وكما يتحد هو، في كونه الوسيط، بالآب (يو 14: 20؛ 17: 21 – 23). والمؤمنون هم معه روحٌ واحد (1كو 6: 17) وجسدٌ واحد (أف 5: 30، 31). إن المسيح يحيا فيهم، وهم فيه (غل 2: 20). فهو الكل فيهم جميعاً (كو 3: 11).

وما دام المسيح بهذه الطريقة هو العامل في تقديسنا، فإن عمل التقديس لا يتمّ من جانبنا إذ ذاك بالإيمان. ذلك لأن التقديس – شأنه شأن سائر بركات المسيح الأخرى – مرتبط بشخص المسيح ارتباطاً لا ينفصم بحيث لا نستطيع أن نقبله بغير الشركة مع المسيح بالذات. وهذا الأمر، منظور إليه من جانبنا نحن، ولا يتم الحصول عليه والتمتع به إلا بالإيمان. ومهما يكن، فبالإيمان وحده يسكن المسيح في قلوبنا (أف 3: 17) ونحيا نحن في المسيح (غل 2: 20). بالإيمان وحده نصير أبناء الله (غل 3: 27) وننال موعد الروح (غل 3: 14)، وننال غفران الخطايا (رو 4: 6) والحياة الأبدية (يو 3: 16). وأن نحيا بالإيمان فذلك ببساطة هو الوجه الآخر للقول إن المسيح يسكن فينا (2كو 13: 5؛ غل 2: 20). وهكذا تبدو لنا حياة المسيح بجملتها حياة إيمان، كما أن قديسي الكتاب المقدس يمثّلون أمامنا في (عبرانيين 11) بوصفهم أبطال الإيمان. ونحن أيضاً نُحرَّض على أن نحيا بالإيمان (2كو 5: 7)، وندع الإيمان يعمل بالمحبة (غل 5: 6)، ونطفئ سهام الشرير الملتهبة بترس الإيمان (أف 6: 16)، ونغلب العالم بالإيمان (1يو 5: 4). وجميع هذه التحريضات تتوافق كلياً مع تلك التي تُلقي على المؤمنين واجب عدم السلوك بحسب الجسد بل حسب الروح (رو 8: 4 وما يلي)، وخلع الإنسان العتيق ولبس الجديد،[1] وقبول الرب يسوع المسيح والسلوك فيه (كو 2: 6؛ 1بط 3: 16)، ولبس الرب يسوع والقيام بكل شيء باسمه (رو 13: 14؛ كو 3: 17)، وأن نتقوى بالرب وفي شدة قوته (أف 6: 10؛ 2تي 2: 1) والنمو في معرفة ربنا ومخلّصنا (2بط 3:18). وباختصار، إن التقديس، بالمفهوم الإنجيلي، هو نشاط مستمر للإيمان وممارسة دائمة له.

ويعترض كثيرون على هذا التعليم الكتابيّ. لأنهم يعتبرونه متحيزاً وخطراً على الحياة الأخلاقية. فهم يقرّون أن الناموس لا دور له في التبرير وأن الإيمان وحده العامل الحاسم. ولكن عندما يناقشون في التقديس يذهبون إلى أن الإيمان وحده يكفي إلا أن الناموس، بكل أوامره ونواهيه، وبكل مكافآته وعقوباته، لابد أن يكون له أيضاً دوره الفعال إذا شئنا أن ننشد سيرةً مقدسة على نحوٍ مثمر وإذا طلبنا حافزاً على الأعمال الصالحة. بيد أنه، ولو صح تماماً أن الناموس يبقى قاعدة السلوك المسيحي، لا يستمد الإنجيل البتة التحريضات على الجهاد المقدس من أهوال الناموس، بل بالأحرى من الدعوة العليا التي إليها يُدعى المؤمنون في المسيح. فمطلوب منا أن نكون كاملين كما أن الآب السماوي كامل (مت 5: 48). والرب يسوع هو الكرمة وتلاميذه هم الأغصان: فالثابتون فيه يأتون ثمراً وفيراً، إذ بدونه لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً (يو 15: 5). ومع المسيح قد مات المؤمنون عن الخطية لكنهم فيه أيضاً صاروا أحياء لله (رو 6: 11). وهم ليسوا تحت الناموس بل تحت النعمة، ولذلك ينبغي ألا تسودهم الخطية (رو 6: 14). إنهم بالناموس قد ماتوا للناموس، وهم للمسيح لكي يحيوا لله (رو 7: 4؛ غل 2: 19). وليسوا في الجسد بل في الروح، ولذلك يجب أن يسلكوا بالروح (رو 8: 5). لقد تناهى الليل وتقارب النهار؛ فمن الواجب أن نخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور (رو 13: 12). وأجساد المؤمنين أعضاء للمسيح وهياكل للروح القدس، ولذا يجب أن يهربوا من خطيئة الزنا (1كو 6: 15 وما يلي). وهم قد اشتروا بثمن، ولذلك يجب أن يمجدوا الله في أجسادهم وفي أرواحهم التي هي لله (1كو 6: 20). إنهم يقومون في الحرية – الحرية التي قد حررهم المسيح بها، وفي ذلك لا شيء ينفع، غير الإيمان العامل بالمحبة (غل 5: 1، 6). ومن ذلك المسيح سمعوا، ومنه تعلموا أنه ينبغي أن يخلعوا

[1]- أف 4: 22 – 24؛ كو 3: 10؛ رو 6: 4 وما يلي.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الإنسان العتيق ويلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر الحقيقي والقداسة الحقيقية (أف 4: 21 وما يلي). وكأولاد أحباء، فعليهم أن يتمثلوا بالله (أف 5: 1)، وأن يسلكوا في المحبة كما أحبهم المسيح (أف 5: 2). إنهم نور في الربّ، وتالياً يجب أن يسلكوا كأولاد نور (أف 5: 8).

وبالاختصار، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار جميع التحريضات الخلقية في العهد الجديد إذا شئنا أن نلخّص على نحوٍ وافٍ جميع المناشدات المقدمة لتشجيع المؤمنين على السلوك في سيرة مقدسة. ولكن في الآيات التي اقتبسناها ما يكفي للدلالة على أنها كلها مستمدة من الإنجيل لا من التوراة. وسواء كان الرسل يخاطبون رجالاً أونساءً، آباءً أو أولاداً، سادةً أو عبيداً، سيدات أو إماء، حكاماً أو رعايا، فإنهم في كل حال يناشدون الجميع في الرب.[1] فإن أساس الله الراسخ قد ثبت وله هذا الختم... ليتجنب الإثم كل من يسمي اسم المسيح (2تي 2: 19).

فالإيمان إذاً هو العمل العظيم الذي ينبغي للمسيحي أن يفي به في تقديسه وفقاً لمبادئ الإنجيل (يو 6: 29). ومع أن هذا الإيمان فيما يتعلق بالتقديس يتجلى بطريقة مختلفة، ويُنظر إليه من زاوية مختلفة، عما هو فيما يتعلق بالتبرير، فإنه في كلتا هاتين البركتين هو السبيل الوحيد والوافي الذي به يصير لنا نصيب في كلتيهما. فالإنجيل لا يطلب منا شيئاً إلا الإيمان، أي اتكال القلب على نعمة الله في المسيح. وذلك الإيمان لا يبررنا وحسب بل يقدسنا أيضاً ويخلصنا. وتتجلى قوة الإيمان المقدسة، بكل وضوح، في الاعتبارات التالية.

ففي المقام الأول، لابد من الإشارة إلى أن الإيمان الحقيقي العديم الرياء يحطم ثقتنا المزيفة في ذواتنا، ويطيح بكبريائنا من على عرشها، ويضع حداً لكل برّ ذاتي فينا. فإذا صرفنا النظر عن أولئك الذين لا يكلفون أنفسهم عناء التفكير بالله وبوصاياه، والذين يشربون الإثم كالماء، وإذا صرفنا النظر أيضاً عن جميع الذين يعملون الصلاح خارجياً فقط بدافع الخوف من العقاب أو الخسارة أو الخزي، يتبقى بعد أولئك الذين يجاهدون جدياً للوفاء بمطالب الناموس الأدبي بقوتهم الخاصة. إلا أنهم، بعملهم هذا، لا يستطيعون البتة أن يهتدوا إلى الموقف الصحيح الذي ينبغي إتمام مطاليبه بواسطته. فهم يقفون من الناموس إما فوقه وإما دونه، ويجعلون أنفسهم في خدمته أو يجعلونه في خدمتهم. وفي الحالة الأولى يقولون إن الخير يجب أن يُصنع لأجل النفع والفائدة الذين يتكاثران لمصلحة الفرد أو الجماعة من جراء ذلك. أما في الثانية، فإنهم يضعون الناموس الأدبي أعلى كثيراً من متناول الإنسان، ونتيجةً لذلك يجعلون بالتالي الوفاء بمطالبه أصعب كثيراً جداً إذ يُنظر إليه باعتباره أمراً كليّ الخطورة. وهكذا يتأرجح الإنسان الطبيعي بين الصدوقية والفريسية، بين الحرية والناموسية. إذ يُعييه أن يجد التوازي بين مطالب الناموس الأدبي وإرادة الإنسان. غير أن الإيمان يضع حداً لهذا التأرجح. فهو يمكننا من أن ندرك أن الناموس الأدبي أسمى منا جداً، وأنه يطلب منا طاعة غير مشروطة، وإننا بالتالي عاجزون عن تتميمه فعلاً على أية حال، وإنه لن يعطينا حياة أبدية. وفي هذا الوضع المتعارض والمتعذر إصلاحه ظاهرياً، يخضع الإيمان لنعمة الله، ويثق برحمته، ويفتخر بالبرّ الذي أتى به هو تعالى. فالمؤمن الصادق يتخلى عن كل ادعاء بكونه قادراً على العمل بمقتضى مطالب الناموس الأدبي. إنه يدع ذلك المثال الأخلاقي في مقامه الرفيع من حيث مطاليبه السامية، لكنه في الوقت عينه يتخلى عن كل أمل بأنه يستطيع يوماً، بجهده الخاص، أن يفي ذلك المثال حقه. وهكذا يضع المؤمن رجاءه في الله وحده، وهو الذي أعلن برّه في الناموس ولكن أيضاً في الإنجيل من بعده. وبالتالي، فإن مثل هذا الإيمان هو نبع فضائل عدة: فهو يُنشئ في الإنسان تواضعاً ويعزز الثقة والاتكال، وهذه السجايا جميعاً ذات أهمية قصوى بالنسبة إلى الحياة الخلقية. وبذا يستمد فعل الخير من الدين أساساً راسخاً وقوةً لا تُقهر.

وتمتزج بهذه فضائل أخرى بعد. فبحسب النظام الذي أقامه الله نفسه في الكنيسة، تتقدم مواعيد الإنجيل على وصايا الناموس. إذ إنه يطمئننا أولاً إلى نعمته وإحسانه وغفران خطايانا وميراثنا مع القديسين، ومن ثم يهدينا سبيل شهاداته وفرائضه. فالشجرة الجيدة تأتي قبل الثمر الجيد. ونحن لا نحيا بالأعمال الصالحة بل لأجلها. ونعمل بالوصايا لا طلباً للحياة الأبدية بل نتيجةً لها، لأن هذه الحياة قد غُرست في قلوبنا بالإيمان. بحسب هذا النظام وحده تصير الحياة الخُلُقية الحقيقية ممكنة. وأيُّ من شاء أن يعكس هذا النظام وأراد أن يستمد راحته ويقينه وخلاصه من أعماله، فلن يحقق غايته البتة، وسيظلُّ عرضةً للشكوك المُمِضة، ويحيا كل أيام حياته في الخوف. إنما الله قد رسم طريقاً آخر. ففي الإنجيل، يُعطينا تعالى كل

[1]- أف 5: 22 وما يلي؛ 6: 1 وما يلي؛ كو 3: 18 وما يلي؛ 1بط 2: 13، 3: 1 وما يليهما.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

شيء مقابل لا شيء: غفران الخطايا، المصالحة، إسقاط العقاب كلياً، الخلاص، السعادة الأبدية. وهو يقول لنا أننا بواسطة الإيمان بنعمته، نستطيع أن نتكل عليه كلياً، وهو أيضاً يؤكد لنا هذا يقيناً من خلال شهادة الروح القدس. وعليه، فالإيمان – بفضل طبيعته وفي حد ذاته – يمنحنا العزاء والسلام والفرح والسعادة، وهذه بدورها سجايا لا تُقدَّر بثمن فيما يخصّ الحياة الخلقية. فهي جميعاً منابع ودوافع للسيرة المقدسة. ذلك أن تطهير الضمير من جميع الأعمال الميتة يُفضي إلى غايته القائمة في خدمة الله الحي (عب 9: 14). والذين يعزي الله قلوبهم يقويهم بالتالي في كلِّ كلامٍ وعمل صالح (2تس 2: 17). وفرح الرب هو قوة شعبه (نح 8: 10).

وفي المقام الثاني، ينبغي أن نشير إلى أن الإيمان الخلاصي الذي يركن كلياً إلى نعمة الله في المسيح يتميز بنشاطٍ مزدوج يتمثل في الإقلاع والإتباع، كما في الهدم والبناء. فهو يحمل الابن الضال على الإقلاع عن سيرته الأثيمة والرجوع إلى بيت الأب. وهو يجعلنا في شركة مع المسيح في موته وقيامته، فيصلبنا ثم يقيمنا إلى حياةٍ جديدة. فكلُّ من يؤمن بالمسيح حقاً يموت عن الخطية؛ إنه يشعر في قرارة نفسه بالأسف والأسى لأنه استنزل بالخطية غضب الله، وبالتالي يكرهها ويهرب منها. وهو يُحدِث فاصلاً بينها وبين نفسه بحيث يمكنه أن يقول بحق: لست أفعل الصالح الذي أريده، بل الشر الذي لست أريده فإياه أفعل (رو 7: 19). ومن الناحية الثانية، يتّبع الإيمان المسيح وبرَّه بتخصيصهما للذات؛ إنه يجعل المسيح يحلُّ في القلب فيعيش دائماً في شركة معه أوثق وأعمق. بل إنه يجعل المسيح يتصور فينا ويغير شكلنا أكثر فأكثر على حسب صورته. وبالاختصار، يقدر المؤمن أن يقول مع بولس: أستطيع كلَّ شيء في المسيح الذي يقوّيني (في 4: 13).

وفي المقام الأخير، ولا نزيد على هذا شيئاً، نقول إن الإيمان غالباً ما يُشبَّه حسناً باليد. ولكن اليد ليست فقط العضو الذي به نتناول الشيء ونخصِّصه لأنفسنا، بل هي أيضاً الأدلة التي بها نترجم فكرنا وإرادتنا بصورة عملية. وعليه فإن الإيمان ليس عضواً متلقياً وحسب، بل هو قوة فعالة أيضاً. والإيمان الذي يبرِّر ويخلِّص ليس إيماناً ميتاً، بل هو إيمانٌ حيّ. وهو، بطبيعته الخاصة، يُنتج ثمر الأعمال الصالحة، عاملاً بالمحبة (غل 5: 6). فالإنسان لا يبرَّر بالمحبة، بل إن الإيمان الذي يبرره يبين قوته الفعالة بالمحبة. وبغير المحبة لا يكون الإيمان من النوع الخلاصي الحقيقي (1كو 13: 1)، كما أن عمل المحبة مقترن دائماً بالإيمان الحق (1تس 1: 3)، لأن غاية الوصية (أو غاية الكرازة الرسولية كلها بالأحرى) إنما هي المحبة من قلبٍ طاهر وضميرٍ صالح وإيمانٍ عديم الرياء (1تي 1: 5). وهذه المحبة، لكونها ثمر الإيمان، هي محبة كاملة تطرد الخوف خارجاً (1يو 4: 18) كما أنها في الوقت عينه تكميلٌ للناموس.[1]

وفاقاً لذلك، لا يُبطل الإنجيل الناموس، بل يثبته ويضعه في مكانه الصحيح. صحيحٌ أنه قد وضع حدّ نهائي لحكم الناموس ولعنته، لأن المسيح وضع نفسه تحت الناموس ووفى بحكمه لعنته.[2] ومن هنا لم نعد عبيداً بل صرنا نسلك بالروح وفي الحرية.[3] وحيث روح الرب، فهناك حرية (2كو 3: 17؛ غل 5: 18). غير أن حرية الإيمان هذه لا تُبطِّل الناموس، بل بالأحرى تكمّله؛ إذ إن بر الناموس، أي ما يطلبه في وصاياه، يتم تحديداً في السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح (رو 8: 4). وبينما يجعل الجسد الناموس عديم الفاعلية لأنه لا يريد ولا يستطيع أن يخضع له (رو 8: 3، 7)، فإن روح المسيح تحديداً هو الذي يعطي البشر الحياة (2كو 3: 6) وهو الذي يعطي النور أيضاً ليختبر الإنسان ما هي مشيئة الله الصالحة المرضية.[4]

ومشيئة الله، عند المسيح ورسله، لم تزل تُعرف من العهد القديم، على الرغم من حقيقة كون الناموس – بمعناه المبين أعلاه – قد نُحِّي جانباً. فالمسيح ما جاء لينقض الناموس والأنبياء، بل ليكمّل (مت 5: 17). وهو لا يلمّح إطلاقاً بما يفيد إبطال الناموس إلا في معرض نبوءته عن سقوط المدينة وخراب الهيكل وانهيار النظام المدني والعبادة الجمهورية (مت 24؛ يو 4: 21 – 24)، لكنه نقّى الناموس فعلاً من التعاليم البشرية التي أضافتها إليه المدارس اليهودية (مت 5: 20 وما يلي). ففي تصوّره للناموس يعود من الفريسيين إلى الأنبياء، ويخترق الظاهر إلى لبّ الناموس،

[1]- مت 22: 37 – 40؛ رو 13: 8 – 10؛ غل 5: 14؛ يع 2: 8.
[2]- مت 3: 15؛ غل 3: 13؛ 4: 4.
[3]- رو 7: 1 – 6؛ غل 4: 5، 26 وما يلي؛ 5: 1.
[4]- رو 12: 2؛ أف 5: 10؛ في 1: 10.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ويضع الجوهر في مكانة أسمى كثيراً من الصفات الخارجية (مر 7: 15)، مقدِّماً الرحمة على الذبيحة (مت 9: 13؛ 12: 7) ويقرن الناموس بالأنبياء في التنبيه على المحبة لله والقريب.[1] فالوصايا الأدبية تظلّ محتفظة بقوتها.

وجميع الرسل يقفون موقفاً واحداً من الناموس والأنبياء. فهم يعتبرون أن العهد القديم هو مرجعٌ إلهيٌّ ذو سلطان. فهو قد أُعطي من قبل الله (2تي 3: 15) وكتبه أناسٌ قديسون ساقهم الروح القدس (2بط 1: 21) وقد أُعطي لنا لتعليمنا وعزائنا.[2] ولذلك يُقتبس العهد القديم مراراً وتكراراً لإطلاع الكنيسة المسيحية على مشيئة الله. فبولس، مثلاً، يستند إلى (تكوين 3: 16) في (1كورنثوس 14: 34) للتعليم عن خضوع المرأة للرجل، وإلى (المزمور 112: 9) في (2كورنثوس 9: 9) للتحريض على إعانة المحتاجين بسخاء؛ وإلى (إرميا 9: 23) في (1كورنثوس 1: 31) للحضّ على الافتخار بالرب. وبعبارة أخرى، إن الناموس الأدبي، فيما يتعلق بمضمونه، هو هو في العهد القديم كما في العهد الجديد،ويشتمل عليه ناموس المحبة الواحد.[3] حقاً، إن المسيح يتكلم عن المحبة التي ينبغي أن يمارسها أتباعه بعضُهم نحو بعض باعتبارها وصيةً جديدة.[4] لكنه لا يعني بهذا أن الوصية بأن يحب المؤمنون بعضهم بعضاً كانت غير معروفة قط من قبل، إذ إن في (لاويين 19: 18) تعليم صريح عنه، كما أن (المزمور 133) يتحدث عن حلاوة سُكنى الإخوة معاً في شركة المحبة.

إلا أن هذه المحبة التي ينبغي أن تربط المؤمنين معاً بالتبادل، أُضيفت عليها في العهد الجديد صفة خاصة جديدة. فلأنه في أيام العهد القديم كانت الكنيسة والأمة متطابقتين، لم يكن ممكناً إذ ذاك أن يتم التمييز بوضوح بين محبة الإخوة ومحبة القريب. ولكن الحال تغيرت في العهد الجديد: فقد فُصلت الكنيسة عن تاريخ بني إسرائيل القومي وجُعلت جماعة مستقلة. وفي الروح القدس أُعطيت الكنيسة مبدأ حياتها الخاص. فالآن بدأ التمييز بين محبة الأخ ومحبة الجميع.[5] إلى هذا الحدّ يمكن أن تُدعى المحبة الأخوية وصيةً جديدة. فهي تربط المؤمنين معاً في اختلافهم عن العالم. أمام في ما عدا ذلك فإن العهدين القديم والجديد ديانةً واحدة وقانوناً أخلاقياً واحداً. صحيح أن بعض التوضيح قد طرأ، وكذلك أيضاً حصل تطويرٌ وتطبيقٌ مختلفان، ولكن لم تجرِ أية إضافة خارجية أو أية عملية تضخيم آلية. فالمسيح لم يكن مشترعاً آخر مثل موسى وأسمى منه، بل إنه بحياته وموته أكمل هو نفسه الناموس، وهو بروحه يكمِّله في جميع الذين هم تلاميذ له.

ومع أن المسيح ورسله يخصون دائماً الناموس الأدبي التابع للعهد القديم بمحبة الله والقريب، فقد نمت تدريجياً في التعليم الأخلاقي المسيحي عادة تفسير فضائل الإنسان وواجباته في ضوء الوصايا العشر. وقد كانت هذه الطريقة على نحوٍ خاص محبوبة لدى المُصلحين لأنهم رأوا أن إحدى العلامات المميزة للأعمال الصالح في كونها تُجرى بحسب مشيئة الله. وبعملهم هذا اتخذوا موقفاً مناقضاً للكنيسة الكاثوليكية التي حسبت ضمن الأعمال الصالحة أيضاً أفعالاً مؤسسة على الوصايا والفرائض البشرية (قارن التعليم المسيحي لهيدلبرج – الجواب 91).

تميز كنيسة روما بين الوصايا والنصائح، وتعتقد أن هذه النصائح قد زادها المسيح على شريعة موسى، بوصفه – له المجد – مشترعاً جديداً وأسمى. والكنيسة المسيحية في أو لعهدها لم تُقم مثل هذا التمييز، ولكن لما انقضت فترة اضطهاد الكنيسة وانضم إليها أجناس مختلفة من الناس الذين انضموا تحت لوائها طلباً فقط للمقام والاعتبار، هبط حينئذ المستوى الخُلُقي. حتى فضّل كثيرون من ذوي المواقف الجادّة أن يعتزلوا. وقد حاولت الرهبانية التي ظهرت على هذا النحو أن تلتزم المثالية الأخلاقية، إلا أنها فعلت ذلك بطريقة لا يستطيع المسيحيون العاديون أن يتقلدوها فيما هم يعيشون حياتهم بين أُسرهم وفي أشغالهم. وهكذا حدث بالتدريج فاصل بين رجال الدين أو الإكليريكيين والعامة أو العلمانيين، وعلى هذا النحو حصل فرق بين أخلاقية عليا وأخرى دنيا، وفرقٌ بين وصايا ونصائح. بعبارة أخرى، عُدَّت الوصايا، وهي المتضمنة في الكلمات العشر، مُلزِمة لجميع المسيحيين، فيما تُركت النصائح لاختيار الناس طوعاً. وسرعان ما برزت بين هذه الإضافات الفضيلة المسماة "عفة أو حالة العزوبية"، على أساس (متى 19: 11، 12) و (1كورنثوس 7: 7 وما يلي)؛ و"الفقر" أو التنازل عن جميع الممتلكات الأرضية استجابة لما جاء في

---

[1]- مر 12: 28 – 34؛ قارن مت 7: 12.
[2]- رو 15: 4؛ 1كو 10: 11؛ 2تي 3: 15؛ 1بط 1: 12.
[3]- رو 13: 8 – 10؛ غل 5: 14؛ يع 2: 8.
[4]- يو 3: 34؛ قارن 15: 12؛ 1تس 4: 9؛ 1بط 4: 8؛ 1يو 3: 23؛ 4: 21؛ 2يو 5.
[5]- غل 6: 10؛ 1تس 3: 12؛ 2بط 1: 7.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

(متى 19: 21) و(1كورنثوس 9: 14)؛ و"الطاعة المطلقة" للرؤساء الذين يخضع المسيحي لإرشاداتهم، استناداً إلى (متى 16: 24) و (لوقا 14: 26، 27). ولكن في الرهبانيات غالباً ما يعقب هذه النصائح أنواع شتى من التقشفات والتدريبات، وجميعها بالتجاوب مع (متى 5: 29، 39، 42). صحيح أن الكنيسة الكاثوليكية بعملها هذا تريد أن تؤكد أن مثال الكمال الخُلُقي هو بالذات لجميع المؤمنين وينبغي لهم جميعاً أن ينشدوه بالطاعة للوصايا. غير أن من يزيد النصائح على الوصايا ينهج سبيلاً أسرع وآمن إلى بلوغ تلك الغاية، كما أنه يحرز أيضاً اعتباراً أعظم وثواباً أجزل. وبينما يبقى المؤمن العادي الذي يتمم الناموس عبداً بطّالاً، لأنه إنما عمل ما طُلب منه (لو 17: 10)، لابُدَّ أن يسمع المسيحي الآخر الذي عمل بالنصائح أيضاً المديح القائل: نعمّا أيها العبد الصالح والأمين، كنت أميناً في القليل فأقيمك على الكثير (مت 25: 21).

ومن الطبيعي جداً ألا يوافق الإصلاح على هذا التمييز. فاقتناعاً كلياً منه بعجز الطبيعة البشرية وقصورها، نادى بأن المولود ثانية أيضاً لا يستطيع أن يحفظ الناموس بكامله، وأن أفضل أعماله ما تزال ملوثة بالخطية، وأنه حتى أقدس القديسين لا يستطيعون أن ينجزوا ما يعدو كونه بداءة يسيرة من الطاعة الكاملة (التعليم المسيحي لهيدلبرج – الجوابان 62، 114). بعبارة أخرى، إن المؤمن لن يمكنه البتة أن يبلغ نقطة إتمام النصائح لمجرد أن ينبغي له أن يقوم بأكثر مما يستطيع لإتمام الوصايا وحدها. وعلى أية حال، يطلب الله في الناموس الأدبي أن نحبه بكل فكرنا وكل قوتنا وأن نحب القريب كالنفس (مت 22: 37؛ لو 10: 27). فكيف يمكن بعد أن يُضاف أيُّ شيء إلى هذه الوصية؟ ما دام الله يطلبنا بجملتنا، في كل زمان زمكان، لنكون في خدمته، فلا يتبقى أيُّ شيء يمثل خياراً يمكننا إما أن نتخذه وإما أن نرفضه ويمكننا – وفقاً لحرية اختيارنا – أن نقدِّمه له أو أن نمسكه عنه.

وبالتالي، فليس من أساسٍ للزعم بأن المسيح قد زاد أي شيء كنوع من ناموس الحرية، على الوصايا المطلوبة في ناموس موسى. فمع أنه قد تكون حالاتٌ فيها ينبغي أن يمتنع المرء عن الزواج ويتنازل عن أملاكه، ويبرح محيطه المعتاد وشغله المعهود، فلا خيار يُعرض عليه هنا فيقبله أو يرفضه. حتى إن الشاب الغني لم يتلقَّ من المسيح خياراً إما أن يقبله أو يرفضه، بل تلقى وصيةً بأن يبيع كل ما له ويوزِّع على الفقراء، كمحكٍّ لاستقامة قلبه وصدق عزمه فقد كان من شأن نوع تجاوبه يتضح هل هو مكرَّسٌ كلياً للمسيح وملكوته أو لا. إذاً، علينا أن نميز بين الناموس والواجب: فالناموس هو بذاته للجميع، غير أن الواجب هو الطريقة الخاصة التي بها ينبغي أن يُطبَّق الناموس العام من قِبَل كلِّ فردٍ بمقتضى طبيعته وظروفه.

وعلى ذلك رفض المُصلحون جميع الأعمال التي تعتمد على نيّات الإنسان أو إرشادات الكنيسة، ورجعوا إلى مشيئة الله كمعيارٍ للعمل الصالح. وقد وجدوا هذه المشيئة معبّراً عنها، بإيجاز وعلى نحوٍ جوهري، في الوصايا العشر. غير أن ناموس الوصايا العشر لا يقوم وحده بصورة مستقلة وغير محددة، بل إنه بالأحرى يوجد في وسط بيئة غنية. ومن حيث مادته التي يحتويها، كان مكتوباً في الأصل على قلب الإنسان منذ خلقه الله. وهو ما زال، بصورة جزئية، محفوظاً هنالك إذ يفعل الناس بالطبيعة ما هو في الناموس، وبذلك يُظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم (رو 2: 14، 15). فإن لكل كائن بشري وعياً بأنه في وجوده وسلوكه مُلزَم قوانين خلقية معينة، وهو يشعر أنه عندما يتعداها يشتكي عليه ضميرُه. وفيما يتعلق ببني إسرائيل، أُعيد ذلك الناموس إلى نقاوته الأصلية عن طريق إعلانٍ خاص، وجُعِل في خدمة عهد النعمة الذي كان الله – وفقاً لما جاء في استهلال الناموس بالذات – قد أقامه مع الشعب، والذي تم التعبير عنه بجملة حقوق وفرائض كان واجباً أن تتحكم في حياة الشعب بجميع نواحيها. ثم إن هذا الناموس قد جرى تفسيره وتطويره وتطبيقه على مرّ تاريخ الشعب من قبل كتبة المزامير والأمثال والأنبياء، حتى إنه كان في وسع المسيح أن يقول إن مجمل الناموس وكتب الأنبياء تتعلق بالوصيتين الداعيتين إلى محبة الله والقريب (مت 22: 40).

وعليه، فعندما يحقق المسيح إتمام مواعيد الخلاص التي في العهد القديم، لا يبطل الناموس، بل يتمّ كلَّ برِّه. وهو، بطاعته الكاملة يمهِّد السبيل – وفي الروح القدس يَهب القو – لكي يتسنى لتلاميذه بالفعل، من حيث المبدأ، أن يسلكوا بمقتضى الوصايا. وبالحقيقة، لنا أن نقول إن غاية الإنجيل بمجمله هو أن برّ الناموس يتم في الذين يسلكون ليس حسب الجسد بل حسب الروح. فالحياة الروحية الحاصلة بالولادة الجديدة توضع في الخدمة لإعادة الحياة الخُلقية إلى نصابها الصحيح. وما لوائح التحريضات المطولة التي يُنهي بها الرسل رسائلهم كقاعدة عامة، إلا تفسيرٌ

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وتطبيق لناموس الرب المقدس، والمقصود بها أن تعين المؤمنين على أن يعيشوا، في جميع علائقهم وأحوالهم، بمقتضى مشيئة الله وتمجيد اسمه. وناموس الوصايا العشر لا يجوز فصله عن هذا السياق الغني. بل إن هذه الكلمات العشر ينبغي بالحقيقة أن يُنظر إليها وتُفسّر في ضوء إعلان الله بكامله سواءٌ في الطبيعة أو في الكلمة المقدسة.

فإذا ما فهمنا الوصايا العشر على هذا النحو، وجدناها خلاصة موجزة للمفهوم المسيحي للأخلاق وقاعدةً لا مثيل لها للسلوك. كما أن هنالك أيضاً قوانين أخرى عديدة نحن مُلزمون بها فقد أرسى الله أيضاً القوانين اللازمة لتفكيرنا، ولتقدير ما هو جميل، ولحياتنا الاجتماعية، ولدراستنا للطبيعة واستعمالها. لقد أرسى قوانين لخلائقه جميعاً، للسماء والأرض، للشمس والقمر والنجوم، للنهار والليل، للصيف والشتاء، للزرع والحصاد.[1] غير أن الناموس الأدبي يتفوق على هذه الأحكام جميعها، لأنه – على خلافها جميعاً – يتوجه إلى إرادة الإنسان، أو بالحري إلى الإنسان نفسه باعتباره كائناً ذا إرادة، وبالتالي إلى جوهر كيانه الداخلي ولبّ شخصيته. ويضع الناموس الأدبي أمامنا المطلب القاضي بأن يُحفظ لا بالكلام والأفعال فقط كذلك أيضاً في الأفكار والرغبات، فإن الناموس روحي (رو 7: **14**)، وعلينا أن نكوم كاملين كما أن أبانا الذي في السماء كامل (مت 5: **48**)، وفي الوصية العاشرة يبلغ الناموس جذر الخطية إذ يتحدث عن الاشتهاء أو الحسد، ويعتبر ذلك أيضاً أمراً أثيماً وغير طاهر أمام الله.

ثم إن هذا الناموس يتحكم في جميع العلاقات التي يجد الإنسان نفسه فيها، سواءٌ نحو الله أو نحو أخيه الإنسان، وسواءٌ تجاه نفسه أو تجاه الطبيعة كلِّها. إنه يتحكم في علاقة الإنسان بالكائنات البشرية نظيره، في مختلف طبقاتهم ودرجاتهم، في حياتهم وأشغالهم وممتلكاتهم. ويتحكم أيضاً في علاقة الإنسان برجاحة عقله وسلامة قلبه. وفي ذلك كلِّه يتحكم في علاقة الإنسان بالطبيعة كلِّها من حيث هي بيئته، وبوظيفته ودعوته، وبعمله واستجمامه، وبكل ما في الطبيعة من مخلوقات حية أو جامدة. وفي لبّ كيان الإنسان الداخلي، كما فيما يخصّ هذه العلائق المتشعبة، يطلب الناموس الأدبي من الإنسان أن يقوم بكلِّ ما يفعله لمجد الله (**1**كو **10**: **31**؛ كو **3**: **17**).

وحالما ندرك الناموس، بمعناه الروحي العميق هذا، نروع ونيأس من الوفاء بمطاليبه. وإ، كنا لا نعرف غير البرّ الذي يطلبه الناموس منا، لا نكون في وضع يمكننا من تلبية مطاليبه ولا تكون لنا حتى الرغبة في القيام بذلك. ولكُنا آنذاك نحاول دائماً أن نسلب الناموس مضمونه الروحي ونجعله يقتصر على المظاهر كي يتناسب وحالتنا الساقطة، ولَكُنَّا نخدع أنفُسنا باعتقادنا أننا نستطيع الوفاء بمطاليبه السامية عن طريق حياة المواطنية الصالحة. ذلك أن الإنسان الطبيعي يخيفه سموّ الشأن الروحي في الناموس، أي الكمال الذي يتصف به؛ فإن الإنسان في دخيلة نفسه يقاوم البرّ والقداسة المطلقين اللذين يطلبهما الناموس. ولكن ما إن ندرك معرفة البرّ والقداسة اللذين قدمهما الله في المسيح اللذين يجعلهما ملكاً لنا بالإيمان، حتى يتغير بالكامل موقفُنا من الناموس وإدراكُنا لمغزاه المهم. حقاً، قد نشكو – مثل بولس – من أننا ما نزال مَبيعين تحت الخطية جسدياً، ولكنا رُغم ذلك ندع الناموس قائماً في سموه الرفيع ولا نبذل أي جهد لإطاحته من على قاعدته العالية. نظلُّ نُكرمه بوصفه مقدساً وعادلاً وصالحاً لكونه ناموس الله، ونُحبُّه بالتحديد لأنه روحيٌّ بطبيعته، كما نُسرّ به بحسب الإنسان الباطن. ونحن نشكر الله لا على الإنجيل وحده. بل على ناموسه أيضاً، ناموسه المقدس والعادل والكامل. عندئذٍ يصير ذلك الناموس أيضاً في نظرنا إعلاناً لنعمة الله وعطية من عطايا هذه النعمة. كم أحببت شريعتك؛ اليوم كلَّه هي لهجي!

ومع أن المؤمنون ينالون بالولادة الجديدة في الحال رغبةً ومحبةً داخليتين، فيريدون بالتالي أن يعيشوا بحسب مشيئة الله سالكين في كل عملٍ صالح، فإنهم لا يصيرون كاملين في الحال، بل إنهم في الواقع لا يُحرزون هذا الكمال في هذه الحياة. وينبغي التمييز بين التقديس والتبرير. فالتبرير قوامه إعفاءُ إلهي مُكمَّل في الحال. صحيحُ أنه يطبَّق على الضمير مرة بعد مرة، غير أنه لا يتطور ولا يزداد. ولكن حياة التقديس، شأنها شأن حياة المخلوق كلِّها، رهنٌ بقانون التطور. فلها في التجديد نقطة الانطلاق، وهي بحاجة للغذاء كي تتقوّى، ولن تبلغ ذروتها إلا عندما تُستعلن كلياً مع المسيح.

[1]- تك 8: 22؛ إر 31: 35؛ 33: 25.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وقد سبق أن قيل في العهد القديم عن المسيح إنه يرعى قطيعه كراعٍ ويجمع بذراعه الحُملان ويحملها في حضنه، ويقود المُرضعات (إش **40**: **11**). بل نقرأ عنه في موضعٍ آخر، وعلى نحوٍ أكثر وفاءً بالمُرام، أن الرب قد مسحه ليبشّر المساكين، ويعصب منكسري القلب، ويُعلن الحرية للمأسورين، ويعزّي النائحين، ويعطيهم رداء تسبيح عوضاً عن الروح اليائسة، وجمالاً عوضاً عن الرماد، لكي يُدعوا أشجار البرّ، غرس الرب، للتمجيد (إش **61**: **1 – 3**؛ قارن حز **34**: **16**).

ومن هنا لم يتوجّه المسيح، خلال خدمته على الأرض، فقط إلى الراشدين في الشعب، بل جاء إلى الأطفال أيضاً ونسب إليهم ملكوت السماوات (مت **18**: **1 – 6**؛ **19**: **13**، **14**). ولم يدعُ إلى التوبة فقط أهالي كورزين وبيت صيدا وكفرناحوم أورشليم، بل أيضاً العشارين والخطاة، وقد دعا إليه جميع المتعبين والرازحين تحت الأحمال الثقيلة لكي يريحهم. ودعا وارثي الملكوت بأسماء شتىً، واصفاً إياهم بأنهم المساكين بالروح والحزانى، والجياع والعطاش، والودعاء وصانعي السلام (مت **5**: **3 – 9**). وميّز بين من هم أصغر ومن هم أعظم، من هم أوّلون ومن هم آخرون في الملكوت (مت **11**: **11**؛ **20**: **16**). وكما شكا من ضآلة الإيمان وبلادة الفهم لدى تلاميذه.[1] وابتهج عندما وجد عند بعض الناس إيماناً عظيماً (مت **8**: **10**؛ **15**: **28**). وفي مقابل هذه كلّها أثبت أنه هو الراعي الصالح الذي يجمع خرافه كلها في رعية واحدة، ويعطيهم الحياة كاملةً وفياضة، ويحفظهم أجمعين ولا يسمح بهلاك أحدٍ منهم (يو **10**: **1 – 30**).

وتُقام بين مؤمني الكنائس الرسولية تمايزاتٌ مماثلة. فقد وُضع مؤمنو العهد القديم تحت أوصياء ووكلاء، وبذلك لم يتميزوا في شيء عن العبيد (غل **4**: **1**، **2**). وبالمقارنة مع هؤلاء، فإن مؤمني العهد الجديد هم أبناءٌ وبناتٌ أحرار، مقبولون عند الله باعتبارهم أولاده وورثته، وثابتون في الحرية التي حررهم المسيح بها (غل **4**: **4 – 7**). ورُغم ذلك، فإن أصنافاً شتى من الفوارق تميّز بعضهم عن بعض. صحيحٌ أن الإيمان المُعطى لأفراد الكنيسة هو واحد في الجميع، إلا أنه مُعطى لكل واحد بحسب طبيعته وبمقدار معين (رو **12**: **3**)؛ والمواهب التي يوزعها الروح القدس في الكنيسة هي مواهب مختلفة (رو **12**: **6 – 8**؛ **1**كو **12**: **4 – 11**)؛ والمكان الذي يحتلّه كلُّ عضوٍ في جسد المسيح يختلف عن أماكن سائر الأعضاء كاختلاف أعضاء الجسد أحدها عن الآخر (رو **12**: **4**، **5**؛ **1**كو **12**: **12** وما يلي). ولكن فضلاً عن هذا الاختلاف في الموهبة والوظيفة، يوجد بين المؤمنين أيضاً اختلافٌ بين الأقوياء والضعفاء،[2] بين الأولاد الذي ما زالوا يحتاجون إلى اللبن (**1**كو **3**: **2**؛ **5**: **12**) والكاملين الناضجين القادرين على هضم الطعام القوي، أولئك الذين بسبب التمرن قد صارت لهم القدرة على التمييز بين الخير والشر.[3] ثم إن في المؤمنين فرقاً بين الأحداث الذين غلبوا الشرير ولكن عليهم مع ذلك أن ينتبهوا لئلا يخسروا هذا الانتصار، والآباء الذين أحرزوا خبرة طويلة في الجهاد وأوتوا بصيرةً أكثر نفاذاً في معرفة الذي كان من البدء، أي المسيح (**1**يو **2**: **12 – 14**). إضافةً إلى هذا، قام في العصر الرسولي تمييز بين الكنائس والمؤمنين الثابتين في الإيمان، الأغنياء بالمحبة، الصابرين على الألم، والآخرين الذي سمحوا لأنفسهم بأن ينقادوا بأنواع شتى من الضلال، واستسلموا لكل نوعٍ من الخطايا. وإننا نجد أوصافاً تفصيلية لهذه الأحوال المتفاوتة في رسائل الرسل عموماً وفي رسائل المسيح إلى الكنائس السبع في آسيا الصغرى خصوصاً (رؤ **1 – 3**).

من هذا كلّه نتعلم أن الإنسان، في حياته الروحية كما في حياته الطبيعية، يولد مخلوقاً صغيراً وضعيفاً ومحتاجاً، وأنه ينبغي أن ينمو تدريجياً في نعمة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح وفي معرفته (**2**بط **3**: **18**). وإذا كانت الحياة الروحية تنمو على نحوٍ صحي وسوي، إذا تغذت بالغذاء الروحي وشربت الشراب الروحي الذي هو المسيح (يو **6**: **48** وما يلي؛ **1**كو **10**: **3**، **4**)، فلابد أن يحصل نموٌ ثابتٌ في النعمة وترسّخ فيها وتجددٌ تدريجي حسب صورة المسيح.[4] إلا أن صنوفاً شتى من العوائق تعترض سبيل هذا النمو السوي. فليست حياة المسيحي نمواً هادئاً، بل هي جهاد متواصل، جهادٌ ضد أعداءٍ في الخارج لا يقلُّ عن الجهاد ضدّ العدو الساكن في داخلنا.

---

[1]- مت 6: 30؛ 8: 26؛ 14: 31؛ 16: 8؛ لو 24: 25.
[2]- رو 14: 1 وما يلي؛ 15: 1؛ 1كو 8: 7 وما يلي؛ 9: 22؛ 10: 25.
[3]- 1كو 2: 6؛ 3: 2؛ 14: 20؛ في 3: 15؛ عب 5: 14.
[4]- رو 12: 2؛ 2كو 3: 18؛ 4: 16؛ أف 3: 16؛ 1بط 5: 10.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ولكي نفهم طبيعة هذا الجهاد حقّ الفهم، ينبغي لنا أن نلاحظ أولاً أنه في الإنسان غير المتجدّد أيضاً غالباً ما يوجد صراعٌ ما. غير أن هذا الصراع ليس جهاداً روحياً. إنه صراعٌ عقلاني: صراع بين عقل الإنسان وضميره من جهة، وإرادته وميله من جهة أخرى. فمن حيث العقل والضمير ما يزال الإنسان مقيَّداً بالناموس الأخلاقي، بعالم الأشياء غير المنظورة والأبدية. وما يزال يسمع في قرارة نفسه الأمر: عليك أن تفعل، ولحظة ما يريد أن يفعل الشر، يتدخل حسن الرأي بالمقاومة، فيحذِّره ويحاول أن ينهاه. وليس من مخلوقٍ بشريٍّ واحد يبلغ به الضلال بعداً نائياً أو غوراً سحيقاً بحيث لا يعود يختبر في كيانه شيئاً من هذا التنازع الثنائي. ومن الممكن أن يكون الإنسان ظافراً في هذا الصراع إذا توفرت الظروف المواتية. فهو يقدر أن يقهر نوازعه ورغباته بعقله، يقدر أن يكبحها ويُسكتها. وإذا فعل ذلك، صار كائناً بشرياً فاضلاً وباسلاً وعاش حياةً كريمة. غير أن هذه ليست الفضيلة الصحيحة، ولا هو التقديس المسيحي بعد. ذلك لأن الصراع في الإنسان الطبيعي هو دائماً صراعٌ بين العقل والعاطفة، الواجب والرغبة، وبين الضمير والشهوة. وليست الحرب مُعلَنةً على جميع الخطايا، بل فقط على بعضها، وفي الغالب فقط على بعض الخطايا الظاهرة والشائنة اجتماعياً. فالجهاد لا يُشهَر على الخطية بما هي خطية لأنها تجلب غضب الله، بل على خطايا معينة يستهولها أهلُ العالم ويصحبها الخزي أو الخُسران. ثم إن الكائن البشري قد يكبح جماح الشر في ظرفٍ مؤاتٍ ولا يُسلِس القياد للميل الشرير، غير أنه لا يستطيع أن يستأصل الشر ولا أن يُحدِث داخل قلبه تغييراً داخلياً.

فإن للجهاد الروحي الذي ينبغي للمؤمنين أن يواصلوه داخل أنفسهم طبيعةً مختلفة جداً. فهو ليس صراعاً بين العقل والعاطفة، بل بين الجسد والروح، بين الإنسان العتيق والإنسان الجديد، بين الخطية التي تبقى ساكنةً في المؤمنين وبذرة الحياة الروحية التي غُرست في قلوبهم.[1] وهاتان القوتان ليستا منفصلتين مكانياً، وكأن جزءاً من الإنسان (العقل مثلاً) قد تجدد، وجزءاً آخر (القلب مثلاً) لم يتجدد. بل إن هاتين القوتين، بالأحرى تنتشران في الإنسان بكامله، وتمتدان إلى جميع قدراته وقواه، بحيث إن كلاً منهما يمكن أن تُدعى إنساناً – فواحدةٌ هي الإنسان العتيق، والأخرى هي الجديد.

على هذا النحو يعبّر بولس عادةً عن التباين، ولكنه في (رومية 7) يستخدم تسميات أخرى. ففي ذلك الفصل يصوّر الإنسان الروحي الجديد باعتباره الإرادة التي تحب الصلاح وتريد أن تفعله، والإنسان الباطن الذي يُسرّ بناموس الله. أما الإنسان العتيق فيدعوه الجسد، والخطية الساكنة في الإنسان، والناموس الذي في أعضائه والذي يحارب ناموس ذهنه ويسبيه إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائه. هذا الأمر يشكّل اختلافاً في التعبير، ولكن المسألة هي نفسها. ففي ما كتبه بولس غالباً ما يكون الجسد هو الاسم المستعمل للدلالة على الطبيعة الشرير التي تظلُّ في المؤمن والتي تبقى بكل تأكيد مقيمةً في كيان الإنسان الداخلي – في نفسه وقلبه وروحه. فإن أعمال الجسد، رغم كلِّ شيء، ليست فقط زنىً وعهارة وما شابه، بل أيضاً عبادة أوثان وعداوة وخصام وغضب وما شاكل ذلك (غل 5: 19، 20). وعندما يفكر الرسول في الإنسان الباطن، لا يفكر فقط في شيءٍ ما قابع داخل الكائن البشري في الأعماق يبقى مخبأً هنالك ولا يبلغ بطريقةٍ من الطرق حدّ التعبير الظاهر، إذ إنه يفيد صراحةً أن المؤمنين يسلكون حسب الروح ويقدمون أعضاءَهم آلات برٍّ. ولكنه يدعو الإنسان الجديد باسم الإنسان الباطن في هذا السياق، لأن هذا الإنسان غالباً ما يبقى، في الصراع الرهيب ضد الجسد، منطمراً في الأعماق وقلما يُظهر ذاته.

وقوام الصراع بين القوتين هو أن روح المسيح الساكن في كلِّ مؤمن يحاول أن يوقظ في ذهنه وقلبه وإرادته كلَّ نوعٍ من الأفكار الصالحة والنيات الحسنة والميول والنزعات الخيِّرة (كالمحبة والفرح والسلام وما إليها – غل 5: 22) وأن الجسد على النقيض يرفع صوته في وجه ذلك ويحاول أن يدنِّس الإنسان كلَّه بشهواته الرديئة ورغباته الشريرة (غل 5: 19، 20). وفي هذا الجهاد يظهر الجسد مرة بعد مرة قوياً جداً بحيث أن المؤمنين لا يفعلون – بالطريقة والمقدار الذين عزموا عليهما – ما أرادوا أن يفعلوه (غل 5: 17). فعندما يريدون أن يفعلوا الحُسنى يجدون الشر حاضراً عندهم (رو 7: 21). بالحقيقة أن الروح نشيط، وأما الجسد فضعيف (مت 26: 41).

[1]- رو 6: 6؛ 7: 14 – 26؛ 8: 4 – 9؛ غل 5: 17 – 26؛ أف 4: 22 – 24؛ كو 3: 9، 10.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وبعبارة أخرى، ليس الصراع قائماً بين العقل والإرادة، ولا بين الواجب والرغبة، بل هو على خلاف ذلك تماماً بين الإرادة والعمل، بين النزعة الداخلية والفعل الخاطئ الذي يتدخل ويعترض سبيلها، بين إنسان القلب الباطن المخلوق من جديد لله في البرّ الحق والقداسة الحقيقية. والإنسان العتيق الذي وإن فقد مقام السيادة والقيادة ما يزال يريد أن يحقق ذاته، والذي يزداد ضراوةً في المحاربة بالنسبة إلى مقدار إفلات الزِّمام من يده. وهذه ليست معركةً بين قدرتين أو جزأين في الإنسان كما تكون الحال لو أن الرأس كان يشنُّها على القلب، أو العقل على العاطفة، أو النفس على الجسد. غير أن هاتين القوتين بالأحرى تقومان متحاربتين وهما مسلَّحتان، الواحدة في مواجهة الأخرى، لكسب معركة السيطرة على شخص الإنسان بجملته. ففي الإنسان الواحد بعينه تدور داخل عقله الواحد بالذات معركةٌ بين الإيمان وعدم الإيمان، بين الحق والباطل؛ ويقوم في قلبه الواحد بالذات تنازعٌ بين الميول والرغبات الطاهرة وغير الطاهرة؛ وتجري في الإرادة الواحدة في الذات مقاومةٌ بين شهوة شريرة وأخرى صالحة ومصارعةٌ بين نزعة نجسة وأخرى مقدسة. فالجهاد هو بالحقيقة صراعٌ بين كائنين داخل المخلوق الواحد بعينه.

وبتعبيرات علم النفس، يمكننا شرح الأمر بالقول إنه في مجال الإدراك قد تمركزت مجموعتان من الأفكار إحداهما في مواجهة الأخرى، وفي مجال القلب والرغبات تتعارض مجموعتان من الأهواء. صحيحٌ أننا نتحدث عن إنسانٍ عتيق وإنسان جديد في المؤمن، وبذلك نعبّر عن حقيقة واقعة مفادها أنه في الحياة الجديدة قد حصل تغيير في الإنسان بكامله من حيث المبدأ وأن قوة الخطية تظلُّ رغم ذلك كامنةً في جميع مَلَكاته وأعضائه. ولكن حقيقة الأمر هي وجود مجموعتين من الاهتمامات والأفكار والميول، وما شابه ذلك، تتحاربان فعلاً إحداهما مع الأخرى دون أن تتمكن واحدةٌ منهما من إحراز السيطرة الكاملة على أية ملكة من مَلَكات الإنسان الفرد. ولو كان حق الله قد تولى زمام السيطرة كلياً واستولى على إدراك المؤمن، لما بقي بالطبع مكان للضلال والباطل؛ ولو كانت محبة الله قد ملأت القلب كلياً، لما كان مكانٌ للعداوة والحسد والغضب وما شابه. على أن واقع الحال، كما يعلم كلُّ امرئ بالاختبار، ليس على هذا المنوال؛ ويشهد الكتاب المقدس أننا لا نستطيع أن نأمل بلوغ مثل هذه الحالة من الكمال في هذه الحياة. فسوف يستمر الجهاد إلى النهاية لأن الإيمان والرجاء والمحبة، وسائر الفضائل المسيحية، لن تكتمل في هذه الحياة، ولذلك يبقى في نفوسنا مكانٌ لعدم الإيمان والشك واليأس والخوف، وما إليها.

وعليه ففي كل فكر وعمل المؤمن، يكمن الخير والشر – كأنهما ممتزجين أحدهما بالآخر. وبالطبع يتفاوت المقدار والدرجة اللذَين بهما يحضر أيهما في أي فكرٍ أو عمل، ولكن في جميع أفعالنا وأفكارنا مع ذلك شيئاً من الإنسان العتيق وشيئاً من الإنسان الجديد. وبالتالي فإن أفكارنا وأقوالنا وأعمالنا جميعاً تلوثها الخطية، وهي كلُّها بحاجة إلى المصالحة والتطهير. ورُغم ذلك، فمن الجائز أن تُدعى أعمالاً صالحة بمقدار ما تكون ممتزجة بالإيمان. لهذه الأسباب جميعاً ينبغي أن نحترس من المبدأ القائل بنبذ كلِّ ناموس، لأن هذا المبدأ الضلالي يفصل الإنسان العتيق عن الجديد ويجعلهما الواحد في مواجهة الآخر بتمييز مكاني شبيه إلى حدٍّ ما بذاك الفاصل بين الروح والمادة، وبين النفس والجسد.

ونتيجة هذا النوع من التفكير الخاطئ تأتي العقيدة الضارة القائلة بأن الأفكار والأفعال الأثيمة ينبغي أن تُقيَّد في حساب الإنسان العتيق وليس لها أية علاقة بالإنسان الجديد. والحال أن الكلمة المقدسة والاختبار كليهما يعلّمان أن المؤمن ليس مزيجاً خارجياً لكائنين، بل إنه يبقى كائناً واحداً له نفسٌ واحدة وإدراك واحد وقلبٌ واحد وإرادة واحدة وإن ما يتصارع داخل الشخص الواحد نفسه ليس كائنين منفصلين بل بالأحرى مجموعتا رغباتٍ وميول.

ومن شأن خطورة هذا الصراع أن يوحي للتوّ أنه لابد أن يمضي وقتٌ طويل قبل أن يُحرز الإنسان الجديد الغلبة. ومع ذلك يعتقد كثيرون من المسيحيين أن المؤمنين يبلغون الكمال الآن على هذه الأرض، وأنه بمقدورهم حالياً وفي هذه الدنيا أن يقهروا كل عملٍ خاطئ وميل شرير. وقد علّم البيلاجيون بهذا منذ عهدٍ بعيد. كما أن روما وقفت موقفاً مماثلاً في مجمع ترانت، وتجاريها في ذلك أكثر من جماعة من البروتستانت. فما أكثر الذين ينزعون إلى الاستناد على حقيقة كون الكتاب المقدس كثيراً ما يستخدم كلمات مجيدة للغاية في وصف وضع المسيحي، كما جاء مثلاً في (**1**بطرس **2**: **9**، **10** و **2**بطرس **1**: **4** و **1**يوحنا **2**: **20**). ويُشيرون إلى أن بولس، بعد اهتدائه، موقن تماماً بخلاصه، وهو لا يذكر ماضيه الأثيم إلا على سبيل الذكرى، وأن التحريضات الموجهة إلى القديسين كي يكونوا بلا لوم في سلوكهم هي تحريضات مُطلقة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

(مت 5: 8)، وأن هذه التحريضات تجعل إحراز الكمال أمراً ممكناً كحقيقة بديهية،[1] وأن نعمة الله التي يمكن أن تُنال بالصلاة قادرةٌ على الإفادة في كلِّ مجال.[2] ووفقاً لذلك، يُجادل هؤلاء بأن في اعتبار الكمال الخُلقي عند المؤمن مستحيل البلوغ في هذه الحياة إساءةً إلى غنى محبة الله، ناهيك بأن من يقول بغير ذلك يحرم المؤمنين في الوقت عينه حافزاً قوياً قائماً في بذل كل طاقتهم للسعي في إثر كمالٍ كهذا.

والآن، ليس في الحقيقة أيُّ شكٍّ بأن الكتاب المقدس يتحدث عن مقام أولاد الله ووضعهم الشرعي بطريقة لافتة للنظر. فهو يشير إلى شعب العهد القديم باعتباره مملكة كهنةٍ اختارها الله من بين شعوب الأرض كلِّها خاصةً له، وغرضاً لمحبته، ونصيباً له ومفخرة، وابناً له وعبداً، وعروساً له زيّنها وكملها بالمجد الذي أضفاه عليها.[3] كذلك أيضاً يُدعى المؤمنون في العهد الجديد ملح الأرض (مت 5: 13)، ونور العالم (مت 5: 14)، وأولاد الله المولودين منه والمقبولين عنده (يو 1: 13؛ غل4: 5)، والمختارين والمدعوين والقديسين (1كو 1: 2)، وجنساً مختاراً وكهنوتاً ملوكياً (1بط 2: 9، 10)، وشركاء في الطبيعة الإلهية (2بط 1: 4)، وممسوحين بالروح القدس (1يو2: 20)، وقد جعلهم المسيح نفسه ملوكاً وكهنة (رؤ 1: 5)، وورثة لله ووارثين مع المسيح (رو 8: 17). فإن ما لم ترَ عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان، قد أعدّه الله للذين يحبونه، أي أعدّه لخاصته الآن في أيام العهد الجديد (1كو 2: 9). وكل من يرفض تعليم الكتاب المقدس فيما يتعلق بالخطية والنعمة لا يمكنه إلا أن يرى في هذا كلِّه مغالاةً فادحة. وعندئذٍ لا يكون ضرورياً ولا ممكناً حصول تغيير جذري كالذي يحدث في التبرير والولادة الجديدة. غير أن الكتاب المقدس يعتبر التغيير الذي يجري للإنسان في الإيمان والتجديد انتقالاً من الظلمة إلى النور، من الموت إلى الحياة، من العبودية إلى الحرية، من الباطل إلى الحق، من الخطية إلى البرّ، من انتظار غضب الله إلى رجاء المجد. والمؤمنون الذين يلوحون أمام أنظارنا في العهد القديم والعهد الجديد، والذين يدركون هذا التحوّل الهائل، لا يسعهم إلا أن يفتخروا بإله خلاصهم ويبتهجوا بشركته. ما أبعدنا عنهم في موقفنا من فرح الإيمان هذا!

ثم إن الكلمة المقدسة تضع نُصب أعين المؤمنين أسمى المُثُل الخُلُقية. وثمة نزعة إلى معاملة هذه الحقيقة بقسوة وخشونة. إذ يُقال إن الحياة الأخلاقية التي ينشدها العالم المسيحي متغرِّضة وبالغة الروحانية، لكونها موجهة حصراً إلى الحياة في السماء، ومعاكسة كلياً لنطاق الاهتمامات الأرضية، ومعادية للحضارة والتقدّم، ما دامت شيئاً يرمي للمساكين والمُضطهدين لقمة الحياة الأبدية فيما بعد ولكنه لا يبالي البتة بتحسين حالهم هنا على الأرض، شيئاً ربما كان غنياً بالفضائل الخاملة ومليئاً بالتوصيات المطالبة بالخضوع وطول الأناة والصبر ولكنه فقيرٌ في الفضائل العامة التي قد تُفضي إلى فتح العالم وإصلاحه. ومن هنا قام كثيرون يتطلعون، إلى تعليم أخلاقي يُرسي قواعد تكريس لخدمة الإنسانية باعتبارها الواجب الأعلى، ويقصر اهتمامه على شؤون الحياة على هذه الأرض.

على أن الاهتمام بالمصالح الأرضية لا يتضارب كثيراً مع الخلقية المسيحية، بحيث يمكن بالحقيقة أن يُقال إنه مؤسَّس وقائم على خَلق الإنسان بحسب صورة الله. فقد كان الإنسان، وما يزال بمعنى من المعاني، حاملاً لصورة الله، ولذلك هو مدعوّ للتسلّط على سمك البحر، وطير السماء، والبهائم، وجميع الدبابات التي تدبّ على الأرض (تك 1: 26 – 28؛ مز 8). وليس من كتابٍ مثل الكتاب المقدس يُنصِف الطبيعة كلَّها أكثر إنصاف. فالوثنية تترجح دائماً بين إساءة استخدام العالم باعتداد ومكابرة وبين خوف استعبادي وخرافي من قواها الغامضة. غير أن موسى والأنبياء، والمسيح والرسل، يقفون على أرض الحرية الكاملة في مواجهة العالم، لأنهم مرفَّعون فوقه في الشركة مع الله. ومع أنه صحيح أن الكلمة المقدسة توصينا بأن نطلب أولاً ملكوت الله، ومع أنه صحيح أيضاً أن مسيحيي تلك الفترة المبكرة، وهم الفئة القليلة، كان عليهم أن ينسحبوا من كثير من دوائر الحياة وأن يمتنعوا عن أشياء كثيرة لأنه في عالم ذلك الزمان كانت الروح الوثنية تتخلل كل شيء، فإن المسيحية – من حيث المبدأ – تضمنت في ذاتها جميع العناصر التي لم تقتصر على إعطاء الحرية لإخضاع العالم والتسلط على الأرض بل تعدّت ذلك أيضاً إلى جعل هاتين المهمتين واجب الإنسان ودعوته.

---

[1]- في 2: 5؛ 1تس 2: 10؛ 3: 13.
[2]- يو14: 13، 14؛ أف 3: 20؛ 2كو 12: 10؛ فل 13.
[3]- خر 19: 5، 6؛ 29: 43؛ تث 7: 6 وما يلي؛ 32: 6 وما يلي؛ إش 41: 8 وما يلي؛ حز 16: 14.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وبعد، فليس علم الأخلاق المسيحي شيئاً آخر سوى ما تلخِّصه الوصايا العشر بدقة وإيجاز، وما هو – فيما تبقّى – مكشوفٌ ومشروحٌ في سائر أجزاء الكلمة المقدسة. ففي تلك الوصايا تبرز محبة الله في المقدمة، ولكن محبة القريب هي الوصية الثانية العظمى، شأنُها شأن الأولى. هذه المحبة للقريب، إذا فُهمت على نحو صحيح، لا بمعنىً خامل كما في البوذية، بل بمعناها المسيحي العامل، تشتمل على واجب الكرازة والإصلاح والتهذيب. فبالكرازة تُتاح لجميع الشعوب والأمم الإفادة من مضمون المسيحية الديني والخلقي. وبالإصلاح يحدث التجدد التدريجي للقلب والحياة، وللأسرة والمجتمع بحسب مطاليب مشيئة الرب – ولاسيما لأن الإصلاح لا يقتصر على فترة واحدة في كنيسة المسيح، ولا على لحظةٍ واحدة في حياة المسيح، بل ينبغي أن يكون الإصلاح عاملاً مستمراً وفعالاً. وبالتهذيب يتمُّ إخضاع الأرض لسيطرة الإنسان، وتسلُّط الروح على المادة، والعقل على الطبيعة.

فإن ملكوت الله الذي يجب أن يُطلَب أولاً يأتي بجميع الخيرات الأخرى في طريقه (مت **6**: **33**). والتقوى نافعة لكل شيء إذ لها موعد الحياة الحاضرة والآتية (**1**تي **4**: **8**). وليس شيءٌ نجساً بذاته، لأن كل خليقة الله جيدة؛ ولا شيء يُرفض إذا أُخذ مع الشكر، لأنه يُقدَّس بكلمة الله والصلاة (رو **14**: **14**؛ **1**تي **4**: **4**). فالمسيحية، ولها أساس كل حضارة في خلق الإنسان على صورة الله وإصلاحها بقيامة المسيح، تدعو المؤمنين المعترفين بها إلى التفكير في كل ما هو حقٌ وجليل وعادل وطاهر ومُسرّ وحسن الصيت، وإن كان من فضيلة أخرى ومَدْح ففي هذه أيضاً (في **4**: **8**).

فليس من تصرف خُلُقي أسمى ولا ديانة أرفع مما نبشر به في الإنجيل. قد يسعى المرء في إثر فلسفة أخرى، لكنه إن فعل فسريعاً ما ينحرف في متاهات مُهلكة. والزمان الذي نعيش فيه يقدم لنا أسطع دليل على هذا الواقع. فقد لقيت أخلاقيات الكتاب المقدس رفضاً، ولكن ما يحلُّ محلَّها يتضارب وأبسط مبادئ السلوك الأخلاقي القويم.

وأول شيء يحدث إذ ذاك هو استبعاد جميع الوصايا المتعلقة بمحبة الله من ساحة التعليم الأخلاقي. وعندئذٍ لا يتبقّى بعد أي اهتمام بمحبة الله، وباسمه وحقه وخدمته. فبالحقيقة، كيف يتمكن الناس من محبة الله وهم في الواقع يشكّون أو ينكرون أنه يُمكن أن يُعرَف وأن يُعلن ذاته، أو أن يكون موجوداً أيضاً؟ ولكن الذين يُنكرون لزوم وصايا اللوح الأول، بعملهم هذا، يقوِّضون دعائم وصايا اللوح الثاني – فإن لم يكن هناك إله يوجب على الإنسان أن يُحب قريبه، فأي أساس يبقى لمثل هذه المحبة؟ ومن ثم فإن أنصار التعليم الأخلاقي المستقل عن الدين ينقسمون على نحوٍ مأساوي حول المسألة التالية: أي مبدأ يكمن وراء محبة الإنسان لقريبه؟ وهكذا يحاول بعضُهم تأسيس هذه المحبة على المصلحة الشخصية، وبعضُهم على السعادة التي تجلبها، وآخرون على فضيلة العطف والشفقة، وغيرهم على الضمير؛ ولكن الثابت في محاولاتهم أجمعين هو أن الوازع الأخلاقي ينتفي عند استبعاد السلطان الإلهي الكامن وراء الواجب المُلزِم للضمير.

ونتيجةً لذلك يتورط أنصار مثل هذه الخُلُقية في صعوبات متعلقة بكلٍّ من الوصايا المخصوصة التي تبرز فيها محبة القريب وتُطلب بصورة محددة. ويُقال عموماً إن الناس، وإن اختلفوا كثيراً في الدين، يظلون مع ذلك متقاربين بعضهم مع بعض في مجال الأخلاق. ربما كان في ذلك بعض الحق، لأن الطبيعة أقوى من النظرية – وهذا أمرٌ معقول – ولأن عمل الناموس يقوم مكتوباً في قلب كلِّ إنسان. غير أن الواقع، فيما عدا ذلك يعلِّمنا أمراً مختلفاً جداً. فما من وصية واحدة في اللوح الثاني من الناموس هي بمنجى من التحدي في أيامنا. إذ إن سلطة الأب والأم وجميع القوامين علينا تلقى التحدي العلني والرفض السافر. والقتل تُنظر إليه نظرة تفقد قوتها مع مرور الزمن: ففي حال الانتحار غالباً ما يُهوِّن أمره، وفي حال الإجهاض نادراً ما يلقى الشجب. ويُعتبر الزواج عقداً يتم الارتباط به لفترة من الزمن تطول أو تقصر، كما أن للزنى من يُحامي عنه ويناصره. والملكية في تقدير كثيرين هي اسم آخر للسرقة. والحق يُجعل في خدمة المصلحة، ويُعلَّق على التطور النشوئي والارتقائي، ويميَّز من الباطل فقط في الزمان والمكان أو في الدرجة والشكل. أما الاشتهاء فيحتفل بانتصاره في روح عبادة المال الشائعة في عصرنا.

وفي مقابل هذه التزييفات الكثيرة للأخلاق السليمة، يرفع الكتاب المقدس لواء المثال الخُلُقي على نحوٍ صريح وصافٍ لا يشوبه شيء. فالكتاب لا يسيء البتة إلى قداسة الله وطهارة شريعته، بل يضع هاتين بكلِّ جلالهما أمام ضمائر البشر بوضوحٍ وجلاء. فإن ما قاله المسيح لتلاميذه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

"كونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل" يكرره جميع الرسل بكلمات أخرى في تحريضاتهم للمؤمنين. ذلك أن الخطية لا حق لها بالوجود، على الأقل لدى الذين يُسمَّون باسم المسيح. وما من شيء يجوز أن يُنقِص من مطالب الناموس الأدبي، ولاسيما عند الذين ماتوا مع المسيح وأُقيموا معه لحياةٍ جديدة. فإن كان الإنسان العتيق، في عناية الله، يموت يوماً فيوماً في المؤمن، بينما الإنسان الجديد ينمو ويتجدد باستمرار، ليبلغ الكمال في الدهر الآتي، فإنما يُشير ذلك كلُّه إلى عظمة طول أناة الله وإمهاله – هذين اللذين يُبديهما تعالى لأن المسيح يستر خطية الكنيسة ببرّه وقداسته ويضمن تكميل شعبه.

ومع أن الناموس الأدبي الذي يستمد منه المؤمنون قواعد سلوكهم لا يمكن أن تفي به إلا المحبة الكاملة لله وللقريب، فإنه من الواضح كذلك تماماً بحسب كلمة الله إن أيَّ مؤمن لم يبلغ الكمال قط، ولا يمكن أن يبلغه البتة، في هذه الحياة. فإن قديسي الكتاب المقدس كانوا جميعهم أناساً غالباً ما ضعفوا أو سقطوا، وبعضُهم – كداود وبطرس مثلاً – ارتكبوا خطايا شنيعة، إلا أنهم بعد ذلك اعترفوا بخطاياهم مُبدين أسفهم الشديد وندمهم الكلي. وأياً اخترنا منهم لنصغي إلى ما يقوله، لا نسمع أبداً التوكيد الذي يتفوه به أحياناً بعض المسيحيين: لم أعد أفعل أية خطية، وليس لي خطية بعد! بل على النقيض، فإن إبراهيم (تك **12**: **12**) وإسحق (تك **26**: **5**) ويعقوب (تك **26**: **35**) وموسى (عد**20**: **7 – 12**، مز **106**: **33**) وداود (مز **51**) وسليمان (**1**مل **8**: **46**) وإشعياء (إش **6**: **5**) ودانيال (دا **9**: **6**)، هؤلاء كلّهم – وغيرهم مثلهم – يعترفون بآثامهم ويقرّون بخطاياهم وأخطائهم.

ويصدق القول نفسه على الرسول بولس. فقد صُلبَ مع المسيح وسلك من ثم في جِدّة الحياة. وهو يقوم أمام الله مبرَّراً وموقناً بخلاصه إلى التمام. وبمنطق البشر، كسب مجداً لأجل عمله الرسولي، وهو مدركٌ الأمانة التي بها أكمل رسالته.[1] لكنه فضلاً عن إرجاع ذلك كلِّه إلى نعمة الله،[2] يعترف بأنه لا يسكن في جسده شيءٌ صالح (رو **7**: **18**)، وأن الجسد يشتهي ضد الروح (غل **5**: **17**)، وأن الإرادة والعمل عنده في صراعٍ دائم (رو **7**: **7 – 25**)، وأنه يسعى لإدراك الكمال ولكنه لم يدركه بعد (في **3**: **12**).

ويشهد موسى والأنبياء شهادةً مماثلة عن الشعب القديم، كما يشهد مثلَها المسيح عن تلاميذه، والرسل عن الكنائس التي اؤتمنوا على رعايتها. فالرب يسوع يدعو تلاميذه إلى الكمال (مت **5**: **48**) ومع ذلك يعلِّمهم أن يصلوا طالبين مغفرة ذنوبهم (مت **6**: **12**). والمسيحيون في رومية قد أُقيموا مع المسيح للسلوك في جدّة الحياة (رو **6**: **3** وما يلي)، إلا أنهم رغم ذلك يحرِّضون على تقديم أعضائهم لخدمة البر في سبيل القداسة (رو **6**: **19**). ومع أن الكورنثيين اغتسلوا وتقدّسوا وتبرّروا باسم الرب يسوع وبروح الله (**1**كو **6**: **11**) فقد كانوا جسديين (**1**كو **3**: **1 – 4**). والغلاطيون قبلوا الروح القدس بسماع بشارة الإيمان (غل **3**: **2**)، لكنهم مع ذلك سمحوا لأنفسهم بأن يسقطوا في تجربة عدم الإذعان للحق (غل **3**: **1**). والفيلبيون بدأ فيهم العمل الصالح لكنه لم يكن قد كُمِّل (في **1**: **6**). فقد كان في كلِّ ظروف وأخطاء ونقائص لا توافق الحياة المسيحية. والرسل أنفسهم مقتنعون جميعاً بأن الخطية ستظلُّ ملتصقة بالمؤمنين ما داموا على قيد الحياة. ونحن جميعاً نعثر في أشياء كثيرة (يع **3**: **2**). وإن قلنا إنه ليس لنا خطية، نُضِلُّ أنفسنا وليس الحق فينا (**1**يو **1**: **8**).

ولكن مع أن الكمال لا يمكن إحرازه في هذه الحياة، فإن التحريضات والمناشدات تظلُّ مع ذلك نافعةً وجدّية. طبعاً، إن القائلين بإمكانية بلوغ المؤمنين الكمال في هذه الحياة يعترضون قائلين إن التحريضات التي لا يمكن تنفيذها – أو على الأقل تنفيذها بالتمام – لابد أن تفقد قوتها وتوهن طاقة المؤمنين عاجلاً أو آجلاً. غير أن هذه الحجة باطلة. فلا ينشأ من حقيقة كون واجبٍ ما مطلوباً من الإنسان أنه قادرٌ على القيام به. فربما كان على أحدهم أن يدفع مبلغاً من المال ومع ذلك لا يكون قادراً على دفعه: وفي هذه الحال يظلُّ رغم ذلك ملزماً أن يدفع. وبهذه الطريقة عينها لا ينفكّ الناموس الأدبي يقدم مطاليبه، وإن كان البشر لا يقدرون على الوفاء بها بسبب الخطية. وعلى نقيض هذا، يُمكن الاحتجاج على نحوٍ أكثر إنصافاً بأن الشخص الذي يعلِّم بإمكانية بلوغ المؤمنين الكمال يتكشف دائماً عن تخفيض مستوى المثال الخُلُقي وتهوين أمر الخطية.

---

[1]- رو 5: 17 وما يلي؛ 1كو 4: 3؛ 9: 15؛ 15: 31؛ 2كو 1: 12؛ 6: 3 وما يلي؛ 11: 5 وما يلي؛ في 2: 16 وما يلي؛ 3: 4 وما يلي؛ 1تس 2: 10 وما يلي.
[2]- 1كو 15: 10؛ 2كو 12: 9؛ في 4: 3.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ومن المؤكد أن كلَّ من لا يقصر تفكيره في الخطية على الأفعال الأثيمة الظاهرة بل يقرن بها الأفكار الأثيمة والميول الفاسدة فبالكاد يعتقد جاداً أن المؤمنين يستطيعون التحرر كلياً من الخطية في هذه الحياة. فلا يستطيع المرء أن يقول بإمكانية بلوغ القديسين الكمال إلا إذا استهان بخطورة كون طبيعة الإنسان شريرة، واعتبر أن أفكاره الأثيمة وميوله الفاسدة ليست خطيّة، وأجحف بحق القداسة الكلية التي يتّسم بها الناموس الإلهي. وفي صيغة ممارسة العشاء الربّاني لدى الكنائس المُصلحة يُقال إننا واثقون من أن أي خطية أو ضعف يبقى فينا ضد إرادتنا لا يمكن أن يؤخرنا عن قبول الله لنا بنعمته. وقد ثار جدلٌ كثير حول المسألة: هل يمكن أو لا يمكن أن يسقط المولود ثانيةً بعدُ في تلك الخطايا التي لا تصدر عن الضعف البشري بل هي تعمُّدية بطبيعتها، وينبغي بالتالي أن تُسمى خطايا شرٍ مُدبَّر. ولكن مهما كان يبقى أمران مؤكدان: أولهما أن الذي يتصدى لمقاومة خطايا من هذا النوع في الأشخاص المولودين ثانيةً بالحق ليس هو الضمير فقط، بل الحياة الجديد أيضاً مع الفكر والإرادة، بدرجاتٍ تزيد أو تنقص. أما الأمر الثاني فهو أنه حتى خطايا الضعف التي نرتكبها رغم إرادتنا هي خطايا حقاً، وهي مناقضة لقداسة الناموس الإلهي.

أضف أن التحريضات على السيرة المقدسة، وهي أبعد كثيراً من أن تكون عديمة المنفعة والفائدة، إنما هي بالتحديد الوسيلة التي يُطبِّق علينا المسيح البرّ والقداسة الموهوبين فيه للمؤمنين والتي بها يجعلهما عامِلَين فينا. فالمسيح في الصلاة التي رفعها بوصفه رئيس الكهنة يطلب إلى الآب أن يقدِّس المؤمنين به في الحق، أي بواسطة كلمته التي هي الحق (يو **17**: **17**؛ قارن **15**: **3**). والكلمة التي أعطانا إياها الله هي بالحقيقة الأكيدة الوسيلة الرئيسية لتقديسنا: فما أعظمها من بركة فائقة الحصر، بالنسبة إلى تغذية الحياة المسيحية وتعزيزها، تلك البركة الحاصلة لا من جراء الاستماع إلى الوعظ العلني وحده بل أيضاً من جراء قراءة الكلمة ودراستها والتأمل فيها في عزلة دائرة الأسرة! إلى هذه الكلمة باعتبارها واسطة التقديس تُضاف الصلاة باسم يسوع (يو **14**: **13** و **14**؛ **16**: **23** و **24**)، وهي تخوِّل لنا القدوم إلى حضرة الجلالة الإلهية وتملأنا ثقة، بما أنه ليس في السماء ولا على الأرض من يُحبُّنا أكثر من الرب يسوع. ويُضاف أيضاً إلى هاتين الواسطتين ترنيم المزامير والتسابيح والأغاني الروحية (أف **5**: **19**؛ كو **3**: **16**)، لأن لذلك تأثيراً عميقاً في موقف القلب واستعداد الإرادة. ثم هنالك أخيراً الأسهار والأصوام،[1] وهي ممارساتٌ طالما لقيت غير إنصافٍ إهمالاً كلياً بالفعل. هذه الوسائط الفعالة في التقديس تبرهن كُلُّها أن الله لا يحتقر استخدام الوسائط في هذا المجال أيضاً.

إن الله، بطبيعة الحال، هو القدير على كل شيء، وكان يستطيع – لو أراد – أن يقدّس على نحوٍ كامل جميع أولاده عند لحظة الولادة الثانية. ولكن يبدو واضحاً أن هذه ليست مشيئته – وهو في الخليقة الجديدة لا يتنكّر لكونه الخالق. فحياة كل مخلوق إنما تبدأ بالولادة ثم تنمو ولا تصل إلى البلوغ إلا بالنمو التدريجي. ولما كانت الحياة الروحية حياةً فعلية، فإنها توجد وتتطوّر على هذا النحو عينه. فإن الله لا يحقِنُنا ببرِّ المسيح وقداسته بصورة آلية، ولا يسكبهما فينا كما يسكب المرء الماء في إناء، بل يُجري ذلك فينا بطريقة عضوية. وهكذا، فإن جانباً واحداً للحقيقة، لا يتعارض مع الجوانب الأخرى، عندما يتعرض الكتاب المقدس لهذا الموضوع، مُظهراً أن من واجب المؤمنين أن يصيروا ما هم عليه. فإن ملكوت الله هبةٌ من عنده تعالى (لو **12**: **32**)، لكنه مع ذلك شيء عظيم القيمة ينبغي أن نجدّ في طلبه (مت **6**: **33**). والمؤمنون هم أغصان الكرمة، وعليه فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً بمعزل عن المسيح، ومع ذلك توصيهم كلمته بأن يثبتوا فيه وفي كلامه وفي محبته (يو **15**). وهم مختارون في المسيح قبل تأسيس العالم، ومع ذلك عليهم أن يجعلوا دعوتهم واختيارهم ثابتَين (أف **1**: **4**؛ 2بط **1**: **10**). إنهم مقدَّسون بذبيحة المسيح الواحدة، ولكن عليهم رغم ذلك أن يتبعوا القداسة التي بغيرها لن يرى أحدٌ الرب (عب **10**: **10**؛ **12**: **14**). وهم كاملون، لكنهم مع ذلك يحتاجون إلى تكميلٍ وتثبيت دائمين (كو **2**: **10**؛ 1بط **5**: **10**). ولقد لبسوا الإنسان الجديد، وعليهم أيضاً أن يلبسوه دائماً (أف **4**: **24**؛ كو **3**: **10**). وهم قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات، وعليهم رُغم ذلك أن يُميتوا أعضاءهم التي على الأرض (غل **5**: **24**؛ كو **3**: **5**). والله هو العامل فيهم أن يريدوا وأن يعملوا ما يوافق مسرّته الصالحة، وعليهم مع ذلك أن يتمّموا خلاصهم عملياً بخوفٍ ورعدة (في **2**: **12**، **13**).

هذه المعطيات لا تتضارب فيما بينها. فالواحد هو في الواقع أساس الآخر وضمانه. ولأن التقديس، شأنه شأن الخلاص كلِّه، هو عمل الله، فنحن نناشد ونُلزَم أن نسلك في طاعةٍ جديدة، ونحن مؤهَّلون لذلك أيضاً. وهو تعالى يُغدق علينا نعمته الجزيلة لا لكي نصير قديسين حالاً أو فجأة ثمّ نستريح في رحاب هذه القداسة بصورة دائمة، بل لكي نحاضر في الجهاد ونحن ثابتون. إنه يسمع صلواتنا، لكنه يستجيبها وفقاً للقانون والنظام

[1]- مت 17: 21؛ 26: 41؛ أف 6: 18.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

اللذين جعلهما للحياة الروحية. ومن هنا نجدنا دائماً مستبشرين، لأن الذي ابتدأ فينا عملاً صالحاً هو يكمِّل إلى يوم يسوع المسيح. فالمؤمنون قادرون على أن يصيروا قدّيسين، لأنّهم في المسيح هم قدّيسون.

أم نتجاسر كثيراً حين نقول هذا؟ وهل يحق للمؤمنين فعلاً أن يعترفوا ليس فقط بأنهم أعضاء أحياء في كنيسة المسيح بل أيضاً بأنهم سيظلُّون هكذا إلى الأبد؟ كثيرون يعترضون على هذا. وكقاعدة عامة، فإن أنصار إمكانية بلوغ القديسين الكمال في هذه الحياة هم في الوقت عينه أنصار لإمكانية ارتداد المؤمنين وكلاهم. وفي الواقع أن هذين الموقفين متقاربان في علاقتهما الواحد بالآخر. فكلتا الثمرتين حصيلة أصلٍ واحد، وفي أساس كلتا الفكرتين يمكن الاعتقاد بأن التقديس هو من عمل الإنسان وأنه ينبغي أن يتحقق بإرادته. وخُلاصة أفكارهم أن المؤمن، بعون النعمة، إذا ما استخدم إرادته حسناً واستنفد كل طاقاته، يستطيع أن يبلغ الكمال الكلّي ولو في هذه الحياة. وعلى نقيض هذا، يرون أيضاً أنه إذا تراخى وتهاون ولم يبذل طاقته يتأخر ويتقهقر ويبدأ يُخطئ، وإذ ذاك يُخرج نفسه من حالة النعمة ويعود إلى سابق سيرته. بل إنه، في نظرهم، قد يصير من جديد فاجراً وهالكاً إلى الأبد. ثم إنّ هاتين الفكرتين يغذّيهما أيضاً خوفٌ واحد بعينه، تماماً كما أن كلتيهما تصدران عن الضلالة الواحدة بعينها، وهي تلك القائلة بأنّ التقدّيس شأنٌ متعلق بإرادة الإنسان وعمله. وذريعتهم أنّ التعليم بثبات القديسين وحفظهم إلى الأبد يجعل الحياة الأخلاقية تعاني الضرر، وجهد المؤمن واجتهاده يفتقران إلى الحافز، وأنّ من شأن الافتراض القائل "من هلك مرةً هلك إلى الأبد" أن يشجِّع على حياة الفجور.

على أننا إذا كنّا – في توكيد العقيدة المختصّة بثبات القديسين وحفظهم – نلتمس كامل قوتنا في إرادة الإنسان وقدرته، فلابد أن ينهار من تحت أقدامنا كلُّ أساس ويصير لزاماً علينا أن نشكَّ في ثبات كلِّ مؤمن وحفظه. وذلك لأن لجميع القديسين بداءاتٍ يسيرةً من الطاعة الكاملة لا غير: فإنهم جميعاً، بحسب شهادة ضمير كلٍّ منهم، ما زالوا نزاعين إلى كلِّ شر، وهم يسقطون يومياً في زلّات كثيرة، وفي كل حين يُخطئون فيُحرَمون النعمة الموهوبة لهم. فلو كانت القضيّة كلُّها متعلقة بهم شخصياً، لما كان مؤمن واحد يثبت إلى النهاية. وليس في وسع رافضي الاعتراف بثبات القدّيسين وحفظهم أن يتخلَّصوا من هذه الاستدلالات والاستنتاجات الحتميّة إلا بإقامة فارق بين نوعٍ من الخطايا وآخر. وما دام جميع المؤمنين يُذنبون بتعدّياتٍ شتّى للناموس الإلهي، كان ينبغي لهؤلاء المناقضين فعلاً أن يعلِّموا بأن ضعف القديسين ليس أمراً ممكناً وحسب بل إنه بالفعل حال جميع المؤمنين. وعلى نقيض هذا، عندما يعتقدون – رُغم كلِّ شيء – أن كثيرين من المؤمنين، أو حتى معظمهم، يحتفظون بهذه النعمة ويثبتون فيها، لا يسعهم أن يعتقدوا ذلك إلا بالتفريق بين خطايا مُميتة وأخرى قابلة للصفح وبالقول إن فقدان النعمة يكون من جرّاء النوع الأول لا الثاني.

غير أن في القيام بذلك إتياناً بتفريقٍ مريب للغاية إلى التعليم المختصّ بالخطيّة، لأن مختلف الخطايا لا تقوم جنباً إلى جنب في استقلالٍ غير مترابط بل إنها تنبع جميعاً من مصدر واحد نجس، وبالتالي فإنها كلَّها تؤدي إلى الموت، وجميعها تُغفر بالنعمة التي في المسيح يسوع – ما عدا التجديف على الروح القدس. وفضلاً عن هذا، من ذا الذي يستطيع أن يحدِّد لنفسه، أو أيُّ كاهنٍ يستطيع أن يحدد لأي إنسان آخر، هل الخطية المُرتكَبة في حالٍ معينة هي خطية مميتة أو عرضية كما يقولون، وهل حُرِم مرتكبها النعمة أم ما زال مقيماً فيها؟ فإن التعدّيات التي غالباً ما يعدّها البشر يسيرة وصغيرة قد تكون عظيمة في نظر الله فاحص القلوب ومُختبر الكُلى. ثمّ إن الخطايا التي يعدّها العالم العديم الرحمة حارمةً للنعمة قد يكون حكمها مختلفاً جداً لدى الله العليم بجميع الظروف والأحوال. ولا يُعقل أن تكون النتيجة إذ ذاك شيئاً غير بقاء المؤمن في خوفٍ دائم من أن يكون قد ارتكب ما يُسمّى خطيئة مميتة فحُرِم النعمة بالتالي، أو أن يستريح على أمانٍ زائف بناءً على حكم كاهِنه.

ونحن نضع حداً نهائياً لجميع هذه الشكوك والرِّيب في الحال عندما نفكّر في ثبات القديسين وحفظهم لا كإنجاز تحققه الإرادة البشرية بل كعملٍ من أعمال الله يُجريه تعالى من البداية إلى النهاية. وبكلمة أُخرى، إننا نضع حدّاً نهائياً لجميع الشكوك والمخاوف إذا اعتبرنا أن ثبات القديسين وحفظهم هما حفظٌ إلهي قبل أن يصيرا مثابرةً بشرية. وكلمة الله لا تتركنا في شكٍّ من جهة هذا كلِّه، بل تقدِّم لنا جمهرةً من البيّنات والتوكيدات في عمل الآب والابن والروح القدس فيما يتعلق بعهد النعمة وجميع خيراته.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فإن الآب اختار المؤمنين في المسيح قبل تأسيس العالم (أف 1: 4) وعيّنهم للحياة الأبدية (أع 13: 48) وحتم أن يكونوا مشابهين صورة ابنه (رو 8: 29). وهذا الاختيار غير قابل للنقض (رو 9: 11؛ عب 6: 17) وهو يأتي معه في الزمان بالدعوة والتبرير والتمجيد (رو 3: 39). والمسيح الذي تلقى جميع وعود الله فيه النَّعم والآمين (2كو 1: 20) مات لأجل الذين أعطاه الآب إياهم (يو 17: 6، 12) لكي يُعطيهم الحياة الأبدية ولا يهلك أحد منهم (يو 6: 39؛ 10: 28). والروح القدس الذي يجدّد هؤلاء يمكث معهم إلى الأبد (يو 14: 16) ويختمهم ليوم الفداء (أف 4: 30). فإن عهد النعمة وطيد ومثبّت بقسم (عب 6: 16 – 18؛ 13: 20) وغير ممكن أن يُنقَض، شأنه شأن الزواج الصحيح (أف 5: 31، 32) والوصية المُلزِمة (عب 9: 17). وبفضل ذلك العهد، يدعو الله مختاريه ويكتب شريعته في قلوبهم ويضع فيها خوفه أيضاً (عب 8: 10؛ 10: 14 وما يلي). وهو لا يدعهم يجرّبون فوق طاقتهم على الاحتمال (1كو 10: 13) ويوطِّد ويكمِّل العمل الصالح الذي ابتدأه فيهم (1كو 1: 9؛ في 1: 6)، ويحفظهم حتى المستقبل السعيد مع المسيح ليجعلهم شركاء في الميراث السماوي (1تس 5: 23؛ 1بط 1: 4، 5). وبفضل شفاعة المسيح عند الآب يبقى له المجد عاملاً لأجل مصلحتهم لكي لا يفنى إيمانهم (لو 22: 32) ويُحفظوا من الشرير في العالم (يو 17: 11، 20) ويخلصوا إلى التمام (عب 7: 25) وينالوا غفران الخطايا (1يو 2: 1) ويكونوا جميعاً معه ذات يومٍ ويروا مجده (يو 17: 24). وأخيراً، فإن بركات المسيح التي يشركهم فيها الروح القدس هي جميعاً بلا ندامة (رو 11: 29) ومترابطة على نحوٍ لا تنفصم عراه: فالمدعوُّ مُبرَّر وممجَّد (رو 8: 30)، والمقبول ولداً من أولاد الله وارثٌ للحياة الأبدية (رو 8: 17؛ غل 4: 7)، والمؤمن له حياةٌ أبدية في الحال (يو 3: 16). وتلك الحياة، إذ هي أبدية، لا يمكن أن تُفقَد: إنها حياةٌ لا يمكن أن تخطئ (1يو 3: 9) ولا يمكن أن تفنى (يو 11: 25، 26).

ولكن كما هي الحال في التقديس، يطبَّق ثبات القديسين ويتمُّ في المؤمنين بطريقةٍ تجعلهم هم أيضاً يثبتون في النعمة الموهوبة لهم من لدن الله. ذلك أن الله لا يلجأ إلى القوة والإكراه، بل يتعامل مع الإنسان بطريقة معقولة. فبالولادة الثانية يغرس في الإنسان إمكانيات جديدة ويُغيِّر الإرادة العاصية بحيث لا تعود عاصية بعد. وبتلك الطريقة الروحية عينها يظل عاملاً في المؤمنين بعد تجديدهم أول مرة. ويجب ألا يفهم خطأ أنه يجعلهم خاملين، بل بالأحرى يحفزهم ويجعلهم يسلكون في الأعمال الصالحة المعدّة لهم. وفي عمله هذا، يستخدم الكلمة وسيلةً له.

فإن الله لا ينفكّ يحثُّ المؤمنين على الصمود إلى النهاية، [1] والثبات في المسيح وفي كلامه ومحبته،[2] وعلى الصحو والسهر،[3] وعلى حفظ الإيمان والبقاء على الأمانة حتى الموت.[4] وهو يحذّرهم من تعالي القلب، وينبّه المرتدّين إلى عقابهم الشديد،[5] إلا أنه يُنيط أيضاً بالتقديس والثبات مواعيد سخيّة بالمكافأة.[6] وفي الحقيقة أن لنا في داود وبطرس مثلين على الانحراف الشديد، كما أن لنا في أشخاص مثل هيمنايس وألكسندر (1تي 1: 19، 20؛ 2تي 2: 17، 18) وسواهم (عب 6: 4 – 8؛ 2بط 2: 1) أمثلةً على الضلال والارتداد الكلّي جاءت على سبيل التحذير.

ولكن جميع هذه التحذيرات والتحريضات لا تبرهن على أن المقدّس حقاً يمكن أن يسقط لغير قيام. ففي الأمثلة المذكورة أخيراً أعلاه يصدق قول يوحنا إنهم خرجوا من الكنيسة ولكنهم لم يكونوا منها قطّ في قلوبهم (1يو 2: 19). كما نرى في داود وبطرس بكل وضوح أن الله لم يتخلَّ عنهما في سقوطهما، بل على العكس حفظهما وردّهما إلى الاعتراف بالذنب والتوبة. هذان مثلان أُعطيا لنا للتحريض، بل للتعزية أيضاً، حتى إذا كنا نحن أيضاً من جرّاء الضعف نسقط في خطيّة ما لا يدعونا داعٍ إلى الشك في نعمة الله إلى البقاء في الخطيّة، بل نتقوى إذ نذكر أن لنا مع الله عهد نعمةٍ أبدياً. وفي طريق هذا العهد يجعلنا الله نسلك بواسطة كلمته وروحه. وكلّ تعليم بإمكانية سقوط القديسين لهلاكهم يُسيء إلى أمانة الله، ويجعل الخلاص والحفظ وقفاً على الجهد البشري وبالتالي عرضةً للتغيير والشكّ، كما يُسيء أيضاً إلى وحدة الحياة الروحية ونموّها نحو الكمال. فإنسان كهذا ينبغي أن يعتقد أيضاً أن هذه الحياة يمكن أن تُنقض فعلاً مرةً بعد مرة ثم تبدأ من جديد. ولكن من يؤمن بثبات القديسين وحفظهم

---

[1]- مت 10: 22؛ 24: 13؛ رو 2: 7، 8.
[2]- يو 15: 1 – 10؛ 1يو 2: 6، 24، 27؛ 3: 6، 24؛ 4: 12 إلخ.
[3]- مت 24: 42؛ 25: 13؛ 1تس 5: 6؛ 1بط 5: 8.
[4]- كو1: 23؛ عب 2: 1؛ 3: 14؛ 6: 11؛ رؤ 2: 10، 26.
[5]- يو 15: 2؛ رو 11: 20 – 22؛ عب 4: 1؛ 6: 4 – 8؛ 10: 26 – 31؛ 2بط 2: 18 – 22.
[6]- مت 5: 12؛ 6: 4؛ 10: 22؛ 16: 27؛ 24: 13؛ 25: 21 وما يلي؛ رو 2: 7؛ رؤ 2: 7؛ 22: 12 ومواضع أخرى.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الأبدي ينطلق من نعمة الله ويستريح في رحابها، ويفتخر بأمانة الله، ويؤكد في الوقت عينه تماسك الحياة الروحية الأبدية. فإن هذه الحياة لا يمكن تدميرها، بالرغم من سكنى الإنسان العتيق فيه يجري، تغييراً وتذبذباً من كلّ نوع؛ إذ إن الزرع الذي غرسه الله يبقى ثابتاً في المؤمن (1يو 3: 9).

على أن يقينية الثبات والحفظ بعيدةٌ جداً عن أن تولد في المؤمنين روحَ التكبّر أو أن تُشعرهم أنهم في مأمن ولو انغمسوا في شهوات الجسد، بل إنها، على النقيض، المصدر الحقيقي للتواضع والمهابة البنوية، والتقوى الحقيقية، والصبر على كلّ تجربة، والصلوات الحارّة، والثبات وسط الألم، والاعتراف الحقّ، والابتهاج الدائم بالله. حتى إن التفكير بهذه البركة ينبغي أن يكون بمثابة حافز على الممارسة الجدّية والدائمة للإقرار بالفضل والقيام بالأعمال الصالحة، على حدّ ما يظهر من شهادات الكلمة المقدسة وقدوة القديسين (قوانين دورت، ج5، ص 12).

وإذا كنا نبتغي إنتاج هذا الثمر الثمين، ينبغي لنا أن نؤمن بثبات القديسين كما يريد لنا الله أن نؤمن به. وبعد، فهل السبب الكامن وراء إعلان الله لهذا الحق في كلمته هو أن نقبله كعقيدة ونرفع لواءه في وجه الآخرين قائلين: هذا هو التعليم الصحيح والحقّ الصريح؟ طبعاً، شاء الله هذا وقصده أيضاً في إعلانه، لأن للحقّ في حدّ ذاته قيمةً عظيمة جداً. ولكن هذا ليس هو السبب الوحيد، ولا السبب الرئيسي. فإننا إذا اعتقدنا ثبات القديسين بإيمانٍ حقّ، نكون معترفين أيضاً بأن الله ما يزال يعمل مع أولاده بهذه الطريقة. فليس حِفظ القديسين أو ثباتهم حقيقة تاريخية، إذ إنه ليس أمراً حصل في الماضي في زمانٍ ما ومكانٍ ما. وليس هو حقيقة علمية كحاصل جمعٍ لبعض الأرقام أو نتيجة الأرقام أو نتيجة ضرب بعضها ببعض. بل إن هذا الأمر هو بالأحرى حقٌّ أزلي، حقٌّ يلتزمه الله من عصر إلى عصر ومن جيل إلى آخر، وهو حقيقة نعيش فيها ونعيشها، حقيقةٌ يوجدها الله ويبقيها ثابتة في حياة أولاده جميعاً.

وبهذا المعنى، الوحيد الذي يؤمن بحفظ القديسين هو من يعرف في قرارة نفسه أنه واحد منهم ومن يعرف حقيقته بالاختبار. ومن ثم يتضح جلياً أن أي من يؤمن بثبات القديسين – بما في ذلك ثباته هو أيضاً – لا يُعقل أن يجعل هذا الاعتراف فرصة للجسد، كما أن الشخص الذي غُرِس المسيح فيه بالإيمان الحقّ لا يُعقل أن يخفق في الإتيان بثمار الإقرار بالفضل. وينتج عن هذا أيضاً شيء آخر. فما دام حفظ القديسين ثابتين عملاً من أعمال الله يجريه باستمرار في قلوب المؤمنين وحياتهم، يتكوّن بالنتيجة في إدراك هؤلاء المؤمنين يقينٌ راسخ بهذه الحقيقة ينمو مع الزمن. ولو لم يكن يوجد هذا الأمر، أي حفظ القديسين ثابتين لما كان في وسع أيّ مؤمن أن يحوز يقيناً كاملاً من جهة خلاصه، ولو لحظةً واحدة، إذ يكون حينئذ في خوف مقيم: لعله غداً أو في يوم آخر يفقد نعمة الله من جرّاء خطيئة مميتة يرتكبها. ولكن ما دام الله يحفظ خاصته ثابتين، فإن من حقّ المؤمن – بل من واجبه أيضاً – (ولا نقول "من الجائز له" وحسب) أن يتيقّن في قلبه من هذه الحقيقة يقيناً راسخاً. فلولا مثلُ هذا اليقين بالخلاص لفقد حفْظ القديسين ثابتين كامل قيمته فيما يتعلق بحياة المؤمنين العملية. فأي نفع لأولاد الله في عقيدة حفظ القديسين وثباتهم إذا كانوا لا يستطيعون البتة أن يبلغوا المعرفة اليقينية بأنهم أولاده؟ وعليه، فإن حفظ القديسين ثابتين ويقين الخلاص مترابطان على نحوٍ لا تنفصم عراه – فبغير الحقيقة الأولى لا تكون الثانية ممكنة البتّة، كما أن الثانية تجعل الأولى سنداً فعّالاً للمؤمنين وعزاءً منعشاً لقلوبهم.

وهكذا نجد أن جميع القديسين الذين يخطرون ببالنا، في العهدين القديم والجديد، كان لهم مثل هذا اليقين – ليس إبراهيم وحده (تك 15: 6؛ رو 4: 18وما يلي) ولا يعقوب فقط (تك 49: 18) ولا داود وحسب (2صم 22: 2 وما يلي؛ حب 3: 17 – 19)، بل أيضاً جميع المؤمنين الذين توصف أحوالهم في المزامير والأمثال وكتبُ الأنبياء. فهؤلاء غالباً ما يعيشون في بؤسٍ شديد إذ يطغى عليهم أعداؤهم ويلقون الاضطهاد والعذاب. ورُبّ شامتٍ يقول لهم: أين هو إلهك الآن؟ اتّكلت على الله، فلينقذك![1] وأحياناً يستولي اليأس على نفوسهم كما لو أن الله قد نسيهم وحرمهم في غضبه حقّ التمتّع بمراحمه.[2] وهم أيضاً يقرّون بعدالة أحكام الله ويعترفون بخطاياهم.[3] ومع ذلك، فإن الله هو أبوهم، وهم شعبه وغنم مرعاه.[4] ولا يمكن أن يتخلى عنهم لأجل اسمه ولأجل عهده (مز 79: 8، 9). غضبه إلى لحظة، وفي رضاه حياة (مز 30: 5). وهو لا

[1]- مز 22: 9؛ 42: 4؛ 71: 11.
[2]- مز 10: 1، 11 وما يلي؛ 13: 2؛ 28: 1؛ 44: 10 وما يلي؛ 77: 8 وما يلي؛ وآيات أخر.
[3]- مز 51: 5؛ نح 9: 33؛ دا 9: 14؛ وآيات أخر.
[4]- مز 95: 7؛ 100: 3؛ إش 63: 16؛ 64: 8.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يعاملهم حسب خطاياهم، ولا يجازيهم حسب آثامهم (مز 103: 10). كما أن الرب صخرتهم وحصنهم، مجنُّهم وملجأهم، ترسهم وقرن خلاصهم، نورهم وفرحهم، وخيرهم الوحيد الذي ليس غيره وهو لهم كل شيء (مز 18: 2؛ 73: 25 ومواضع أخرى).

واللهجة التي بها يتحدث الرسل والمؤمنون في العهد الجديد عن خلاصهم هي لغة الثقة واليقين لا يشوبها أدنى شكّ. فهم يعلمون أن الله لم يُشفق على ابنه الوحيد بل بذله لأجلهم أجمعين، وهو الآن لابد أن يهبهم كل شيءٍ مجاناً (رو 8: 32)، وأنهم مبرَّرون بالإيمان، ولهم سلامٌ مع الله، ولا أحد يستطيع أن يوجِّه إليهم أية تهمة ضدهم (رو 5: 1؛ 8: 33)، وأنهم قد وُلدوا ثانية لرجاء حيّ وقد انتقلوا من الموت إلى الحياة،[1] وأنهم قد نالوا روح التبنّي باعتبارهم أولاد الله، وهذا الروح يشهد مع أرواحهم أنهم أولاد الله (رو 8: 15، 16).

وهذه المعرفة التي عندهم لها علاقةٌ لا بالحاضر فقط، أي بما هم عليه الآن، بل إنها تمتدّ أيضاً إلى المستقبل الذي سيكون لهم. لأن الذين عرفهم الله ودعاهم وبرّرهم، فهؤلاء قد مجَّدهم أيضاً (رو 8: 30). وما داموا أولاداً، فهم أيضاً ورثة (رو 8: 17). وهم في الإيمان قد نالوا منذ الآن الحياة الأبدية ولا يمكن أن يخسروها (1يو 3: 9؛ 5: 1). وقد وُلدوا ثانية لرجاءٍ حيّ، وهم بقوة الله محروسون للخلاص العتيد (1بط 1: 3 – 5). والعمل الصالح الذي ابتدأه الله فيهم سيكمِّله إلى يوم يسوع المسيح (في 1: 6). وبالاختصار، قد خُتِموا بالروح القدس كأمان وضمان حتى يوم الوفاء بالوعد.[2]

وإذا ما ثبت المؤمنون على يقين هذا الإيمان الراسخ، يصدر منهم مزيد من القوة والتأثير. لكنهم غالباً ما يكونون أقل من واثقين بقضيتهم الخاصة، فكيف يتسنّى لهم إذاً أن يقدموا شهادة واضحة ويثيروا غير العالم بشهادتهم المقرونة بالفرح؟ وفي الكنيسة الكاثوليكية يُعتبر هذا اليقين منافياً للإيمان، حتى إنّ المؤمن لا يمكنه أن يكون موقناً كلياً بخلاصه إلا بإعلانٍ خاص، الأمر الذي هو وقفٌ على قلّة قليلة فقط. أما جميع المؤمنين الآخرين فليس لديهم أكثر من مجرّد ظن أو أملٍ أو احتمال. وفي اعتقاد الكنيسة الكاثوليكية أن هذا الواقع ليس من السيئات بل من الحسنات، وذلك لكونها تُنشئ قلقاً نافعاً وتشكّل حافزاً على التقديس. من هنا أيضاً لا يعتمد المسيحي الكاثوليكي على شهادة الروح القدس في قلبه، بل على تصريح الكاهن، أي على التوكيد الذي تمنح إياه الكنيسة من جهة الخلاص. وهذا، على العموم، بمنحه ثقةً رفيعة.

على أن الإصلاح كانت له فكرة مختلفة تماماً عن التبرير والإيمان، وبالتالي عن يقينية الخلاص أيضاً. فالإيمان، في نظر روما، هو مجرد تطبيق تعاليم الكنيسة، أما التبرير فهو انسكاب النعمة الفائقة في القلب، وعمله هو أن يجهِّز الإنسان من جديد للقيام بالأعمال الصالحة كي يكسب الحياة الأبدية بالتالي. وعليه، فإن الإيمان – من حيث طبيعته بالذات – لا يمكن أن يؤتي أحداً اليقين من جهة خلاصه. وبالقدر الذي يكون به هذا اليقين ممكناً، يجب أن يتأتّى من المحبة، والأعمال الصالحة، ولذلك لا يُعقل أن يكون البتة يقيناً مطلقاً، بل ينبغي أن يظل أمنية أو رجاء على نحوٍ يزيد أو ينقص. غير أن الإصلاح رأى أن التبرير قيمةٍ ذاتيةً بالغة الأهمية، ووجد فيه استعادة لعلاقة الإنسان بالله، فكان حتمياً بالتالي أن يرى في الإيمان شيئاً يزيد ويختلف عن مجرد تصديق الحقّ. وذلك الشيء الإضافي هو الاتكال الشخصي من القلب على نعمة الله التي في المسيح يسوع.

فإن هذا الإيمان أتى باليقين في ركابه. ولكن اللوثريين والأرمينيين اعتبروا هذا اليقين متعلقاً بالحاضر فقط. ذلك أن المؤمن يستطيع أن يتأكد أنه الآن، في اللحظة الحاضرة، مؤمنٌ حقاً، ولكنه لا يستطيع أن يتأكد أنه سيظلُّ مؤمناً طول حياته وأنه سيُخلَّص فعلاً في النهاية. غير أن الكنائس المُصلحة أدخلت المستقبل أيضاً ضمن نطاق اليقين؛ وذلك هو السبب الكامن وراء كون يقين الخلاص يحتلّ مكاناً كبيراً للغاية في حياة القديسين. وفي الفترة الأولى، حين شهدت حياة الإيمان إحياءٍ ونهضة قوية، لم يكن مثل هذا البحث العمدي ضرورياً. فلقد سلك المؤمنون وتكلموا من فضلة القلب، كما هو واضح بجلاء في إقرارات الإيمان وصيغ العبادة والصلوات عندنا. ولكن لما ضعف الإيمان، جاء بعد ذلك التأمل في الإيمان والبحث عن خصائصه المميِّزة. وبدلاً من الوصول إلى اليقين، تورَّط الناس أكثر فأكثر في أحابيل الشكّ. وليس من الممكن أن يتمّ الحصول

[1]- 1بط 1: 3؛ يع 1: 18؛ 1يو 3: 14.
[2]- رو 6: 23؛ 2كو 1: 22؛ 5: 5؛ أف 1: 13؛ 4: 30.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

على يقينية الإيمان بأية عملية تحليل أو استدلال. فاليقين أمرٌ يصدر فقط عن الإيمان في حدّ ذاته. وعليه، فعندما يذوي الإيمان ويخبئ، يبرح اليقين أيضاً في القلب ولا يمكن إحياؤه بأية وسيلة اصطناعية.

وقد عبّرت قوانين دورت عن هذا بصورة جميلة جداً، إذ جاء فيها "إنّ المختارين يبلغون في الوقت المناسب، وإن كان بدرجات متفاوتة ومقادير مختلفة، يقين اختيارهم هذا الأبدي وغير المتغيّر، وذلك ليس بالاستقصاء المتلهّف لسرّ الله وأموره العميقة، بل بملاحظتهم داخل أنفسهم – بفرحٍ روحيّ وابتهاجٍ مقدّس – لثمار اختيارهم الحتمية المشار إليها في كلمة الله، ومنها مثلاً: الإيمان الحقيقي بالمسيح، المهابة البنوية، الحزن على الخطية بحسب مشيئة الله، الجوع والعطش إلى البرّ، إلخ..."

ذلك ما جاء في المادة **12** من مجموعة القوانين الأولى، وفي المادتين **9**، **10** من المجموعة الخامسة نقرأ إلى ذلك: "فيما يتعلق بحفظ المختارين للخلاص وثباتهم في الإيمان، يستطيع المؤمنون الحقيقيون أن يحصلوا على اليقين – وهم يحصلون عليه فعلاً – بحسب مقدار إيمانهم الذي بواسطته يؤمنون إيماناً وثيقاً بأنهم أعضاء في الكنيسة حقيقيون وأحياء، وهكذا سيظلون دائماً، وبأن لهم غفران الخطايا والحياة الأبدية. على أن هذا اليقين لا ينتج من أي إعلانٍ خصوصي مناقض لكلمة الله أو مستقلّ عنها، بل ينبع من الإيمان بمواعيد الله التي أعلنها بكل وفرة في كلمته لعزائنا، ومن شهادة الروح القدس إذ يشهد مع أرواحنا أننا أولاد وورثة لله، وأخيراً من رغبة جادة ومقدسة للحفاظ على ضمير صالح والقيام بأعمال صالحة".

وعليه، فليس يقين الخلاص شيئاً يُضاف إلى حياة الإيمان من الخارج، بل هو بالأحرى شيءٌ يطلع من حياة الإيمان نفسها كثمرٍ لها. من هنا "تفاوت اليقين بحسب مقدار الإيمان". ففي هذه الحياة ينبغي للمؤمنين أن يجاهدوا ضدّ شكوك جسدية شتّى، وهم في بعض الأحيان يجربون تجارب فادحة، وبالتالي لا يشعرون دائماً بيقين خلاصهم الكامل ويقينية حفظهم وثباتهم (قارن القوانين، ج **5**، ص **11**).

غير أن ذلك لا يُنقص شيئاً من حقيقة كون الإيمان الخلاصي، كما يحدده الكتاب المقدس وكما استعاده الإصلاح، ليس هو اليقين في جوهر طبيعته، ومن أن هذا اليقين يزداد قوةً بالنسبة إلى مدى ازدياد قوة الإيمان. وإيمان كهذا ليس نقيضاً للمعرفة، بل هو نقيض لكل شكّ مهما كان. فالشك لا يصدر عن الإنسان الجديد بل عن العتيق، فهو لا يأتي من الروح بل من الجسد. إن الإيمان يقول "نعم وآمين" لكل وعود الله، ويصدّق هذه الوعود، ويستند عليها. وإذ يقوم الإيمان بذلك، وبمقدار ما يقوم به، تصبح ثقةُ الالتجاء المنوطة بالإيمان ثقةً وطيدة، وتؤتي المؤمن حقّ اتخاذ مواعيد الله هذه لنفسه والإفادة منها. وإذا بالثقة الناشئة تصير ثقةً راسخة بأنه ليس للآخرين فقط بل لي أنا أيضاً قد أُعطي من لدن الله غفران الخطايا والبرّ والخلاص الأبديان، وذلك بمحض النعمة ولأجل استحقاقات المسيح فقط.

وهذه الثقة تمتدّ أيضاً إلى المستقبل، لا بمقتضى التحليل أو التعليل العقلي بل بالنظر إلى طبيعتها وكينونتها الذاتيتين. فما أغرب الإيمان القائل: أنا الآن ولدٌ من أولاد الله، ولكن لست أدري هل سأظلّ هكذا في المستقبل! ولكن إذا كان الإيمان حقيقياً قوياً، فمن الطبيعي أن يبتهج قائلاً: الرب راعيّ، فلا يعوزني شيء. إذا سرت في وادي ظلّ الموت لا أخاف شرّاً، لأنك أنت معي؛ عصاك وعكازك هما يعزيانني. والإيمان يبتهج ويشهد على هذا النحو لا لأنه يتكل على ذاته بل لأنه يثق بوعود الله. ومن تلك المواعيد: سأكون إلهك الآن وإلى الأبد؛ محبةً أبدية أحببتك، فلن أخذلك ولن أتركك البتّة. وبكلمات أخرى، إن الإيمان الذي لا يؤتينا اليقين في الحاضر والمستقبل يسيء إلى صدق مواعيد الله وأمانته في محبته.

إلى هذه النقطة، ينبغي أن تُضاف نقطةٌ ثانية، ألا وهي شهادة الروح القدس. ذلك أن الروح القدس هو الشاهد العظيم والقدير للمسيح، إذ يشهد للمسيح في قلوبنا، ويأتي بنا إلى حدّ الإيمان باسمه، ويجعلنا نعرف الأشياء التي أعطانا الله إياها في المسيح.[1] ولكن روح المسيح هذا يجعلنا في الوقت عينه نعرف أنفسنا، لا في مذنوبيتنا ونجاستنا فقط، بل أيضاً في شركتنا مع المسيح ونصيبنا فيه. فبعد أن يكون قد أقنعنا فيما يتعلق بالخطيّة

[1]- يو 15: 26؛ 16: 13 – 15؛ 1كو 12: 3؛ 2كو 4: 3 – 6؛ ومواضع أخرى.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والبرّ والدينونة، وقد ولَّد فينا الإيمان – بوصفه روح الإيمان (2كو 4: 13) – يواصل عمله بإعطائنا اليقين من جهة الإيمان. وإذ ذاك يصير هو لنا روح التبنّي (غل 4: 6)، روحاً يناسب أولاد الله ويسكن فيهم (رو 8: 15)، روحاً يجعلنا نعلم أننا أولاد الله.

ويفعل الروح القدس ذلك بطرق شتى. إنه يفعل ذلك إذ يشهد مع أرواحنا أننا أولاد الله (رو 8: 16) ويدفعنا بكل قوة إلى الاعتراف بفرح: أبّا، أيها الآب (رو 8: 15) ويؤكد لنا أن لنا سلاماً مع الله، ويسكب محبة الله في قلوبنا (رو 5: 1، 5) ويحيي فينا حياةً جديدة، ويقودنا بالتدريج في حياتنا المسيحية، ويملأ نفوسنا بفرحٍ لم نعرفه قبلاً؛[1] وهو يقوم بهذا كله – ناهيك بسائر الأشياء التي يعملها – لكي يختمنا ليوم الفداء.

والفعل "ختم"، بالإشارة إلى الأشخاص أو الأشياء (كالرسائل وما شابه)، يعني أحياناً وضعها بعيداً عن متناول أي شخص آخر وحفظها من أيِّ ضرر.[2] كما أن هذا الفعل يستعمل أحياناً لإثبات مصداقية أشخاص أو شهود معينين أو لتوكيد وضعهم.[3] فبهذا المعنى الأخير خُتِم المؤمنون بالروح القدس كعربون لبلوغهم يوم الفداء.[4] فالروح القدس الذي أُعطي للمؤمنين، والذي غرس فيهم الإيمان ويتعهده كل حين، ويشهد لهم، ويرشدهم، وهلمّ جرّا، هو الذي يختم خلاصهم. في هذا كله ومن خلاله يُثبِت أنه الضمان والأمان للمؤمنين كي يُحفظوا إلى يوم الفداء ويرثوا السعادة السماوية. فإن ذلك الروح لن يتركهم أبداً، بل يمكث معهم إلى الأبد (يو 14: 16). وكلُّ من له الروح فهو للمسيح، أي أنه من خاصته (رو 8: 19)، وهو محفوظ به إلى الأبد (يو 17: 24). فالمسيح في السماء والروح القدس على الأرض هما الضمان اليقيني لخلاص المختارين، وعلى هذا قد وُضِع الختم في قلوب المؤمنين.

وهذان الطريقان اللذان بهما يتأتّى للمؤمنين يقين الخلاص ليسا في الواقع طريقين منفصلين، ولا متوازيين، بل هما طريق واحد منظور إليه من نقطتين مختلفتين. فرغم كل شيء، لا يعمل الروح القدس ويشهد ويختم المؤمنين إلى جانب الإيمان أو خارجه، بل يقوم بهذه الأمور دائماً عبر وسيلة الإيمان. وليس الإيمان إيماناً ميتاً، بل هو إيمان حيّ، وهو يُظهر جوهره ويبرهن قوته بالأعمال الصالحة.

من هنا نستطيع التحدّث عن الأعمال الصالحة باعتبارها مرافقة للإيمان بمواعيد الله وشهادة الروح القدس. هذه الأعمال تستحقّ الذكر، أخيراً، كوسيلة بها يؤكد الله للمؤمنين تبنّيه لهم كأولاد في المسيح (التعليم المسيحي لهيدلبرج – السؤال 68؛ قوانين دورت، ج5، ص 10). ولكن ينبغي لنا أن نلاحظ أننا في سعينا إلى اليقين لا نستطيع أن نبدأ بهذه الأعمال الصالحة، وأن الإيمان لا يمكن أن يستند إليها أو يتوطّد عليها البتة، وأننا أيضاً لا نستطيع القيام بها ونحن نتوخّى إحراز يقين الخلاص بواسطتها. ذلك لأن جميع الأعمال الصالحة ناقصة، وكمالها يزيد أو ينقص نسبةً إلى مدى صدورها عن إيمان أقوى أو أضعف. ولكن بمقدار ما تصدر عن إيمان حقيقي، يمكن أن تؤدي دور التعزيز ليقين الخلاص. فكما أن الإيمان يُثبت ذاته ويتبرهن بالأعمال الصالحة، كذلك أيضاً تؤيد هذه الأعمال الإيمان وتقوّيه. وإذ يرى الناس نتيجةً لهذا أعمالنا الحسنة، يمجِّدون إذ ذاك أبانا الذي في السماء.

[1]- رو 8: 10، 11؛ 14: 17؛ 15: 13.
[2]- تث 32: 34؛ نش 4: 12؛ إش 8: 16؛ 29: 11؛ دا 6: 17؛ 12: 4؛ حز 9: 1 - 6؛ مت 27: 66؛ رؤ 5: 5، 6؛ 7: 1 – 4؛ 20: 3؛ 22: 10.
[3]- أس 3: 12؛ 8: 8؛ 1مل 21: 8؛ نح 9: 38؛ إر 32: 10؛ يو 3: 13؛ 6: 27؛ رو 4: 11؛ 1كو 9: 2.
[4]- رو 8: 32؛ 2كو 1: 22؛ 5: 5؛ أف 1: 13؛ 4: 30.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الخامس

كنيسة المسيح

كل الخيرات الوفيرة التي يهبها المسيح لتابعيه على الأرض تبلغ اكتمال أوجها في التمجيد الذي يكون من نصيبهم جزئياً عند موتهم ويكتمل فقط بعد يوم الحساب. لكن بركة التمجيد هذه لا يمكننا أن نبحث فيها الآن، لأنه علينا أولاً أن نولي بعض الانتباه للطريقة التي بها – أو السبيل الذي بواسطته – أتى المسيح بخيرات: الدعوة والولادة الثانية، الإيمان، والتوبة التبرير والتبنّي كأطفال، التجديد والتقديس إلى حيز الوجود في المؤمنين به على الأرض ويعولهم ويعززهم وقد سبق أن أشرنا إلى أن المسيح يهب جميع هذه الخيرات بواسطة كلمته وروحه، إنما ينبغي لنا بعدُ أن نتبين أنه أيضاً يمنح هذه الخيرات فقط من خلال الشركة التي تربط جميع المؤمنين بعضهم ببعض. فهو لا يوزّعها على أفراد متفرقين ولا على جماعة صغيرة من الأشخاص، بل يوزعها على جمهورٍ عظيم، على مجمل الخليقة الجديدة التي اختيرت فيه من قِبَل الآب قبل تأسيس العالم (أف **1**: **4**).

فالمؤمن إذاً لا يقوم وحده بمعزل عن الآخرين أبداً ولا يكون منفصلاً عن سواه البتة. وفي العالم الطبيعي يولد كلّ مخلوق بشري في شركة مع أبويه، ولذلك، بدون أي جهد من جانبه، عضواً في عائلة ما وشعبٍ من الشعوب وفرداً من أفراد الجنس البشري كله. هكذا هي الحال في الدائرة الروحية. فالمؤمن يُولد من فوق، من الله، لكنه لا ينال الحياة الجديدة إلا في شركة عهد النعمة الذي فيه المسيح الرأس والمضمون في نفس الوقت. وإذا كان الله بفضل الولادة الجديدة هو أب للمؤمن، فلنا أن نعتبر الكنيسة أُمّاً لنا بمعنىً من المعاني الحميدة. حتى إن عالم الوثنية أيضاً لا يصير فيه مؤمنٌ أو تجمّع مؤمنين إلا بطريقة التبشير الذي تتولّى أمره كنيسة المسيح. وعليه، فإن المؤمن، بغير إرادته وبغير عمله الخاص، ومنذ اللحظة الأولى التي فيها يُولَد من جديد، يُضَمّ إلى كيانٍ عظيم ويُدخَل في شركة غنية، إذ يصير عضواً في أمة جديدة ومواطناً في مملكة روحية ملكها مُمجَّد بكثرة رعاياه (أم **14**: **28**).

هذه الشركة عضد قوي لكل مؤمن بمفرده. علينا أن نكون أقوياء بحيث لا نشك ولا نخاف ولو كنّا وحدنا تماماً، ولو كان هنالك شياطين بعدد الآجر على السقف – على حدّ تعبير لوثر. فإنه إن كان الله معنا، فمن علينا، إن كان الرب معنا فماذا يصنع بنا الإنسان؟[1] ولكننا على العموم لسنا أكفاء لمثل هذا الاستقلال والعزلة والوحدة. صحيح أن ثمّة حالات خاصة يُدعى فيها المرء لإطاعة صوت الرب حيث يقطع كل علاقة له ببيئته كلها ويخالف أهل جيله كلياً؛ وحيث يكون ذلك ضرورياً يمنح الله الإنسان نعمةً خاصة وقوةً فائقة، كما وهب مثلاً إبراهيم وموسى وإيليا وأمثالهم. ولكن العزلة، حتى في تلك الحال، تكون شديدة الوطأة. فإيليا اشتكى أنه بقي وحده من المؤمنين (**1**مل **18**: **22**؛ **19**: **10**)، وبولس كان حزين القلب في أواخر حياته إذ رأى أن الجميع قد تركوه (**2**تي **4**: **10**). ذلك أن الكائن البشري مخلوق اجتماعي يألف العشرة ويأنف من الوحدة.

والاختيار الإلهي شاملٌ لجمهور عظيم جداً من جميع الأجيال واللغات والشعوب والأمم. حقاً إنه أيضاً شخصي وفرديّ، وغرضه خلائق من البشر معيّنون ومعروفون لدى الله بأسمائهم، ولكنه يختار هؤلاء على نحوٍ ما ويجمعهم على نحوٍ ما بحيث يشكلون معاً هيكل الله، جسد المسيح وعروسه. فهدف الاختيار هو تكوين كيانٍ عضوي، بالفداء والتجديد والتمجيد على بشرية مولودةٍ ثانيةً تُخبر فضائل الله وتحمل اسمه على جبينها. وعندما يتمّم الله هذا الاختيار في الزمان، يفعل ذلك فقط عن طريق عهد النعمة؛ وهو لا يشمل أحداً في ذلك العهد البتة بالاستقلال عن الآخرين جميعاً، بل يدعو في الوقت عينه من خلال ذلك الشخص أسرته وجيله. هكذا فعل مع آدم ونوح وإبراهيم، وهكذا ما زال يفعل مع كل من ينقله من خدمة هذا العالم إلى شركته تعالى. فهو يثبت عهده مع مثل هذا ومع نسله ويمكّنه من جيل إلى جيل.

بالإضافة إلى هذا العمل العضوي من جانب الله، يوجد في قلب كلّ مؤمن نزوع اجتماعي، وتوقٌ إلى الشركة، يتجاوبان مع هذا العمل العضوي من جانب الله. من جهة ليس في العالم، قوةٌ أعظم من هذه تفصل بين الناس بعضهم عن بعض على نحوٍ عظيم بهذا المقدار، ومن جهة

[1]- مز 56: 11؛ 118: 6؛ رو 8: 31.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أخرى، ليس في العالم أيضاً قوة أعظم من هذه تجمعهم معاً وتوحّدهم على نحوٍ عظيم بهذا المقدار. فخارج نطاق المسيحية، على كل حال، تكاد الشركة الدينية تطابق في كل حين وحدة القبيلة أو الشعب. بعبارة أخرى، لا يكون الدين، على ما يظهر، قوياً إلى حدٍّ كافٍ بحيث يقف على قدميه بغير سندٍ قبليّ أو قومي. من هنا لا توجد في العالم الوثني كنيسةٌ بالمعنى الصحيح للكلمة. أما في العالم المسيحي فالحال مختلفة جداً.

صحيح أن المجمع والأمة عند بني إسرائيل كانا، بصورة عامة، متوافقين في الزمان والمكان. ولكن الوحدة القومية قامت منذ البداية على الوحدة الدينية، وليس بالعكس. وفي ولادة إسحق العجيبة بيّنة على هذا؛ إذ أن عهد النعمة يكوّن شعباً خاصاً له كان إبراهيم حاملاً ورائداً. ففي هذا الشخص من الآباء جعل الله، بوصفه القدير على كل شيء، الطبيعة في خدمة النعمة. من هنا يظهر في العهد القديم من أن إله العهد وشعب إسرائيل وأرض كنعان كانت تربط بينها جميعاً علاقة متبادلة قوية جداً. فالفضل في قومية الشعب ووحدته يعود لحقيقة كون الله قد اختاره؛[1] وكنعان هي أرض الرب (لا **25**: **23**؛ **1**صم **26**: **19**) وقد أُعطيت ميراثاً لإبراهيم ونسله بمحض النعمة.[2] وقد عبّرت راعوث عن هذه الحقيقة عندما قالت لمّا رجعت إلى أرض يهوذا مع حماتها: "حيثما ذهبت أذهب، وحيثما بتِّ أبيت؛ شعبك شعبي وإلهك إلهي". ولهذا السبب أيضاً لمّا زاد ارتداد الشعب حتى سيقوا أخيراً إلى السبي والشتات، بقيت رغم ذلك بقيةٌ ظلت أمينة لله ولخدمته، فكانت في وسط جمهور الشعب كله هي إسرائيل الحقيقي، نسل إبراهيم الحقّ.[3] وإذ انفصل هؤلاء القديسون عن غير الأتقياء، انجذبوا بالتبادل بعضهم إلى بعض وتقوّوا بشركتهم بعضهم مع بعض.[4]

هذا الانفصال استمرّ واكتمل في العهد الجديد. فبعدما هيّأ يوحنا المعمدان الطريق بمناداته بالتوبة وغفرة الخطايا، باشر الرب يسوع خدمته موجّهاً إياها في بادئ الأمر إلى الشعب كله. فقد علَّم في الجليل واليهودية، في المدن والقرى، وجال في أنحاء البلد يصنع خيراً ويشفي جميع الذين تسلَّط عليهم إبليس (أع **10**: **38**). ولكنه سرعان ما تبيّن أن الشعب تحت قيادة الكتبة والفريسيين لم يريدوا أن يسمعوا شيئاً عن مسيانيّته وملكوته الروحي؛ وكلما تقدَّم في خدمته ازداد الشعب عداءً له، حتى أسلموه إلى الصلب أخيراً. وكلما اقتربت هذه النهاية كثر كلام الرب بالتالي عن مدن كورزين وبيت صيدا وكفرناحوم (مت **11**: **20** وما يلي) وعن الكتبة والفريسيين (مت **23**: **13** وما يلي) وأورشليم وبنيها (مت **23**: **37**) وشعب إسرائيل (مت **24**) ناطقاً له المجد بدينونته الرهيبة على هذه كلها. ولمّا رفضت الأمة مسيحها، كان ينبغي أن يحلَّ محلَّها آخرون.

وفي أول الأمر لم يعترف سوى جماعة التلاميذ الصغيرة بيسوع رباً لها، ولكن هذا الاعتراف ربطهم بعضهم ببعض في وحدةٍ جعلتهم، بعد ترك المسيح لهم أيضاً، يواظبون بنفس واحدة على الصلاة والدعاء (أع **1**: **14**). وفي يوم الخمسين أُلبسوا قوة من الأعالي إذ نالوا الروح القدس فكان لهم في ذلك مبدأ حياة مستقلٌّ أعتقهم من كل رباط قومي وجعلهم ينتظمون في شركة خاصة في هذا العالم، مستقلة تماماً عن أي شعبٍ وأي بلد. فإن انسكاب الروح القدس أعطى كنيسة المسيح كيانها المستقلّ.

وقد أُطلق منذ البداية على جماعة المؤمنين المعترفين بيسوع رباً لهم اسم الجماعة أو الكنيسة. وكان في العهد القديم قبل ذلك كلمتان تُطلقان على تجمّعات الشعب، ولكن لم يكن بينهما فارق في الاستعمال أول الأمر. إنما يبدو أن اليهود المتأخرين قد ميّزوا بين الكلمتين بحيث أُطلقت الأولى على "الكنيسة" في حالتها الفعلية، فيما أُطلقت الثانية على الكنيسة في مقامها المثالي، أي باعتبارها جماعةً مؤلفة من أُناس دعاهم الله إلى خلاصه. وقد تُرجمت الكلمة الأولى إلى اليونانية باللفظة "سيناجوج" (أي: مجمع أو محفل) والثانية باللفظة "إكليزيا" (أي: كنيسة أو جماعة). والتمييز الذي كان حاصلاً عند اليهود بين هاتين الكلمتين ساهم في الواقع في تفضيل المسيحيين للكلمة الثانية. وعلى أية حال، فإن الكنيسة المسيحية هي تلك الجماعة من المؤمنين التي حلّت محل إسرائيل القديم وحققت فكرة محبة الله القائمة بالاختيار.

---

[1] - خر 19: 5؛ تث 4: 20؛ 7: 6.
[2] - تك 12: 7؛ لا 20: 24.
[3] - عا 5: 15؛ إش 1: 9؛ 4: 3؛ 8: 18؛ ومواضع أخرى.
[4] - مز 1: 1؛ 16: 3؛ 22: 23؛ 26: 4 – 12؛ 35: 18؛ 40: 10؛ 66: 16؛ 122: 1 وما يلي؛ 133: 1 وما يلي.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ولّما انفصل المسيحيون عن اليهود ومضى كلٌّ في طريقه إلى غير رجعة، درج شيئاً فشيئاً إطلاق كلمة "المجمع" على اجتماع اليهود، وكلمة "الكنيسة" (جماعة المؤمنين) على المسيحيين؛ وما زال هذا الاستعمال سارياً حتى اليوم. ولم يكن مثل هذا التمييز محدداً لمعنى اللفظتين في الاستعمال الأصلي. ففي يعقوب 2: 2 (وعب 10: 25) تستعمل الكلمة اليونانية المترجمة مجمعاً أو اجتماعاً للدلالة على اجتماع الكنيسة المسيحية، وفي (أعمال الرسل 7: 38) (وعب 2: 12)تستعمل الكلمة المترجمة كنيسة للدلالة على جماعة الشعب القديم. بل إن الكلمة الأخيرة تستعمل في (أعمال الرسل 19: 32، 39، 41) للدلالة على اجتماع شعبٍ حاشد ("محفل" هنا هي ترجمة "إيكليزيا"). ولكن انفصال المسيحيين عن اليهود عزّز التمييز في المعنى بين اللفظتين.

وقد ظلّ تلاميذ المسيح، بعد يوم الخمسين أيضاً، يجتمعون غالباً في الهيكل أو في المباني الملحقة،[1] حفاظاً منهم على ساعات الصلاة المقدسة في السلوك الأخلاقي عند اليهود، ورغبةً في الكرازة بالإنجيل للشعب في نفس الوقت. وكرازة الرسل هذه، في يوم الخمسين وبعده حتى أمد غير قصير، كانت مباركة بركةً عظمى. فقد انضمّ إلى الكنيسة آلاف المخلّصين.[2] ولكن بعد ذلك ثارت موجة اضطهاد بلغت ذروتها في رجم استفانوس، الشهيد الأول (أع 6: 8 – 7: 60)، وتشتّت التلاميذ من أورشليم إلى جميع أنحاء اليهودية والسامرة بل وصلوا بعيداً إلى فينيقية وقبرص وإنطاكية (أع 8: 1؛ 11: 19). ومن جرّاء كرازة التلاميذ هناك في عدد من الأماكن قَبِل كثير من اليهود الإيمان، وتأسست كنائس عديدة؛ وهذه الكنائس نعمت بالسلام مدة من الزمن وتكاثر عددها جداً.[3] وغنيٌّ عن البيان أن هؤلاء اليهود الذين صاروا مسيحيين ظلوا مدة طويلة يحتضنون الرجاء بأن يرجع الشعب كله إلى الرب (أع 3: 17 – 26). إلا أن هذا الرجاء أخذ يذوي ويتلاشى، وبالتدريج أخذ مركز الجاذبية ينتقل من الكنيسة اليهودية الأصل إلى الكنيسة الأممية الأصل.

وفي الفترة التي قضاها المسيح على الأرض وُجِد بعض الدخلاء من اليونانيين، ومنهم أولئك الذين صعدوا ليسجدوا في العيد وعبّروا عن رغبتهم في رؤية المسيح (يو 12: 20 وما يلي). وكان أيضاً بين أفراد الكنيسة في أورشليم بعض اليونانيين (أع 6: 1)، يُحتمل أنهم شابهوا إستفانوس في النظر إلى علاقة المسيحيين بالهيكل والشريعة بنظرة أكثر تحرراً (أع 6: 13، 14). وإذ تشتّت التلاميذ من أورشليم كرزوا بالإنجيل أيضاً للسامريين (أع 8: 5 وما يلي) وللوزير الحبشي (أع 8: 26 وما يلي)، ولقائد المئة الروماني كرنيليوس (أع 10) ولليونانيين في إنطاكية (أع 11: 20).

وقد كانت هذه الوقائع كلها إعداداً للعمل التبشيري العظيم الذي اضطلع به بولس ومعه برنابا امتثالاً لأمر الروح القدس وبعد وضع الأيدي عليهما من قبل الكنيسة (أع 13: 2 وما يلي). وفي هذا العمل التبشيري عمل بولس بقاعدة ثابتة في التوجه بالدعوة إلى اليهود أولاً.[4] ولكن لّما ازدرى هؤلاء كعادتهم، بكرازته، تحوَّل نحو الأمم.[5] وقد سبّب له تعثر إخوته حسب الجسد بصليب المسيح وسعيهم إلى إثبات برّهم الذاتي حزناً عظيماً ووجعاً لا ينقطع (رو 9: 2). ولم يكفّ قطّ عن محاولة إثارة غيرتهم لعل بعضاً منهم يخلصون (رو 11: 14). وكان هنالك بقية بحسب اختيار النعمة، وبولس نفسه دليل حيّ على ذلك (رو 11: 1 – 5).

ولكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخل ملء الأمم (رو 11: 25). فإن أغصان الشجرة الطبيعية قد قُطِعَت بسبب عدم الإيمان، وفي مكانها طُعِّمَت أغصان الشجرة البرية (رو 11: 17 – 24). ويوجد اختلاف بين إسرائيل حسب الجسد وإسرائيل حسب الروح[6] كنيسة المسيح هي الآن نسل إبراهيم الحقيقي، وهي شعب إسرائيل الله.[7] ورافضو لمسيح من بين اليهود ليسوا هم اليهود الحقيقيين؛ إنهم ليسوا من الختان بل من القطع (في 3: 2)، وهم متمردون يتكلمون بالباطل ومخادعون يضطهدون المؤمنين (1تس

---

[1]- أع 2: 46؛ 3: 1؛ 5: 12.
[2]- أع 2: 41؛ 2: 47؛ 4: 4؛ 5: 14؛ 6: 7.
[3]- أع 8: 4، 14، 25؛ 9: 31، 35، 38.
[4]- أع 13: 5، 14؛ قارن رو 1: 16؛ 2: 9؛ 3: 1؛ 9: 6؛ 11: 13 وما يلي؛ 1كو 1: 22 وما يلي؛ 9: 20.
[5]- أع 13: 46؛ 17: 17؛ 18: 4، 6؛ 28: 25 – 28.
[6]- رو 2: 28، 29؛ 9: 8؛ 1كو 10: 18.
[7]- أع 15: 14؛ رو 9: 25، 26؛ 2كو 6: 16 – 18؛ غل 3: 29؛ 6: 16؛ عب 8: 8 – 10؛ يع 1: 1، 18؛ 1بط 2: 9؛ رؤ 21: 3، 21.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

2: 14 – 16؛ تي 1: 10، 11). والذين يضايقون الكنيسة في سميرنا يقولون إنهم يهود، لكنهم ليسوا يهوداً، بل هم مجمع الشيطان (رؤ 2: 9؛ 3: 9). وهكذا سار اليهود والمسيحيون كلٌّ في طريقه منفصلاً عن الآخر. ومع أن المعترفين الأوائل بيسوع كانوا في أول الأمر يُعتَبَرون طائفة من طوائف اليهود (أع 24: 5، 14؛ 28: 22) فقد أُطلق عليهم اسمهم في إنطاكية، أولاً "مسيحيين" (أع 11: 26). وهكذا بدأ الفصل بين اجتماع اليهود واجتماع المسيحيين، الأمر الذي أدّى من الناحية اللغوية إلى إطلاق الاسم "مجمع" على جماعة اليهود، و"الكنيسة" على جماعة المسيحيين.

وقد استخدم المسيح كلمة "الكنيسة" أول مرة بالإشارة إلى جمهور المعترفين به (مت 16: 18؛ 18: 17). وليس في هذا الأمر ما يدعو إلى الغرابة لو تذكرنا أن الكلمة العبرية التي استخدمها المسيح وردت مراراً وتكراراً في العهد القديم وكانت معروفة ومألوفة. أما الجديد في الأمر فهو أن المسيح أطلقها على دائرة تلاميذه، وبذلك أعلن كنيسته ستحلُّ محل "كنيسة" الشعب القديم. أضف أن المسيح لم يستعمل اللفظة للإشارة إلى اجتماع للمؤمنين في مكانٍ ما، بل يشمل بدائرتها جميع الذين يؤمنون به عبر الأزمنة بواسطة كلام الرسل. إنه يستعملها على أشمل نطاقٍ ممكن. وفيما بعد فقط أضفي على الكلمة معنىً أكثر تحديداً، وذلك بحسب نموّ الكنيسة.

وفي (أع 2: 47؛ 5: 11؛ 8: 1؛ 11: 22) يُطلق اسم "الكنيسة" على اجتماعات المؤمنين المحلّية في أورشليم. آنذاك لم يكن في أورشليم فعلاً إلا كنيسةٌ واحدة. ويُحتمل جداً أن بعض التلاميذ وُجدوا في أماكن متفرقة، في اليهودية والسامرة والجليل، وعندما نشب الاضطهاد في أورشليم وتشتّت التلاميذ لاحقاً شكّل هؤلاء نقطة تواصل لعمل التبشير الجاري بين اليهود. ولكن اجتماعاً للمؤمنين، أو كنيسة، لم يوجد في البداية إلا في أورشليم وحدها. على أنه لمّا حصلت مثل هذه الاجتماعات أيضاً في أماكن أخرى بواسطة كرازة الرسل بالكلمة، أُطلقت الكلمة "كنيسة" على هذه الجماعات المحلّية أيضاً. فلم تكن الكنيسة في أورشليم منظَّمة كوّنت لها فروعاً في أماكن أخرى، بل بالأحرى نشأت مع هذه الكنيسة تجمّعات أخرى للمؤمنين دُعيت "كنائس" أيضاً.

وهكذا، مثلاً، نجد ذكراً للكنيسة في إنطاكية (أع 11: 26؛ 13: 1)، ولكنائس في لسترة ودربة والبلدان المجاورة (أع 14: 23). ويستعمل بولس باستمرار اسم "الكنيسة" بالإشارة إلى جماعات المؤمنين في روما وكورنثوس وأفسس وفيلبي كولوسي، وأماكن أخرى، كما أنه أيضاً، ووفقاً لهذه القاعدة، يتحدّث بصيغة الجمع عن كنائس غلاطية (غل 1: 2) وكنائس اليهودية (غل 1: 22). وليس هذا كلّ ما في الأمر. بل إن المؤمنين الساكنين في منطقة معيّنة سرعان ما أخذوا يجتمعون بانتظام، يومياً في بعض الأحيان (أع 2: 46)، ولكن كلَّ يوم أحدٍ فيما بعد.[1] إنما لم تكن لديهم مبانٍ خاصة بالكنائس – وربما كانت الكلمة "مجمع" في يعقوب 2: 2 هي أول إشارة في العهد الجديد إلى مكان مخصص للاجتماع معاً – ولذا دعت الضرورة لأن يجتمع المؤمنون في بيت أخٍ أو أخت مناسب لهذا الغرض.

ففي أورشليم اجتمع المسيحيين أولاً في الهيكل فترةً من الزمن،[2] ولكن فضلاً عن هذا كانت لهم أيضاً اجتماعات خاصة (أع 1: 14؛ 2: 42) في بيوت بعض الإخوة (أع 2: 46؛ 5: 42). وهكذا جرى أن بيت مريم أم يوحنا مرقس أولاً (أع 12: 2) وبيت يعقوب فيما بعد (أع 21: 18) صارا مركزاً للحياة الكنسية في أورشليم. فلأن الكنيسة كانت كبيرة، توزّعت في جماعات، وكانت تجتمع في بيت واحد في أوقات مختلفة، أو في بيوت مختلفة في وقت واحد. هذه الممارسة حصلت في أمكنة أخرى أيضاً: في تسالونيكي (أع 17: 11) وترواس (أع 20: 8) وأفسس (أع 20: 20) وكورنثوس (1كو 16: 19) وكولوسي (فل 2) ولاودكية (كو 4: 15) وروما (رو 16: 5؛ 14، 15). ومن اللافت للنظر أن كلاً من هذه الكنائس (البيوت أو البيوت الكنائس) أُطلق عليها الاسم "كنيسة".[3] لم تكن واحدة من هذه الكنائس تابعة للأخرى، بل كانت كلٌّ منها مستقلة عن الأخرى ولها الحقوق الواحدة بعينها.

[1]- 1كو 16: 2؛ أع 20: 7؛ رؤ 1: 10.
[2]- أع 2: 1، 46؛ 3: 11؛ 5: 12، 20، 42.
[3]- رو 16: 5؛ 1كو 16: 19؛ كو 4: 15؛ فل 2.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ومع ذلك كانت الكنائس كلها كياناً واحداً. فقد تكلّم المسيح عن جميع تلاميذه معاً باعتبارهم كنيسته (مت 16: 18؛ 18: 17)، ويتحدث الرسل – ولاسيما بولس – بالطريقة عينها عن مجموع المؤمنين. فالكنيسة، منظوراً إليها بمجملها، هي جسد المسيح، والمسيح هو رأسها.[1] والكنيسة هي عروس الخروف مزيَّنة لعريسها،[2] وهي أيضاً بيت الله وهيكله الذي بناه الرسل على أساس المسيح (1كو 3: 10 – 16)، أو باستعمال صورة أخرى للتشبيه عينه هي البيت المبنيّ على أساس الرسل والأنبياء حيث المسيح نفسه هو حجر الزاوية والمؤمنون هم الحجارة الحية.[3] والكنيسة جنسٌ مختار، كهنوت ملوكي، أمة مقدسة، شعب اقتناء، وهي مدعوة للإخبار بفضائل الذي دعاها من الظلمة إلى نوره العجيب (1بط 2: 9).

وبالنظر إلى الفضائل المجيدة التي ينسبها الرسل إلى الكنيسة، شاء بعض المراقبين أن يقيموا فاصلاً بين الكنيسة الحاضرة والكنيسة المثالية. ولكن مثل هذا الفصل الغربي غريب على العهد الجديد. فعندما يتحدّث الرسل عن الكنيسة على هذا النحو المجيد، ولاسيما في (يوحنا 14 – 17)، وذلك نسجاً على المنوال الذي وضعه المسيح، لا يكون في فكرهم شيء مجرد موجود في المطلق أو نظرياً وحسب، ولا عن مثالٍ ينبغي أن نسعى إليه ويُحتمل ألا نبلغه البتة. بل إنهم بالأحرى يفكرون في الكنيسة القائمة كلها، في الجسد الواحد تعبيرات محددة عنه. صحيح أن هذه التعبيرات ما تزال كلها تشكو النقص إلى حدّ بعيد – ويشهد بذلك الرسل في جميع رسائلهم – ولكنها مع ذلك إعلانات لحقيقة كامنة وراءها، وصورٌ لتحقيق مشورة الله السارية من جيل إلى جيل.

في هذه المشورة، أو المرسوم، يرى الله أمامه كنيسة المسيح كلها في كمالها، يراها في المسيح الذي اشتراها بدمه كامنةً كالثمرة في البذرة. وفي الروح القدس الذي يأخذ كل شيء من المسيح تكمن جذور وجود الكنيسة وضمانة اكتمالها. فالكنيسة إذاً ليست فكرة، ولا مثالاً، بل هي حقيقة واقعية صارت شيئاً ما وستصير شيئاً ما لأنها الآن في الوجود. وفي واقع الحال فإن الكنيسة تشهد تغيّراً ثابتاً كلّ حين؛ فهي كيان منذ بداية العالم ولسوف تظل كذلك حتى نهاية العالم. فكل يومٍ يرحل عنها قومٌ جاهدوا الجهاد الحسن وأكملوا السعي وكسبوا إكليل البرّ، وهؤلاء تتألف منهم الكنيسة الظافرة – كنيسة الأبكار وأرواح الأبرار المكمَّلين (عب 12: 23). وكل يوم يضمّ أعضاء جدد إلى الكنيسة المجاهدة على الأرض، إذ هم يولدون في الكنيسة عينها من بين أبنائها أو يُدخَلون إليها عن طريق العمل التبشيري.

وقسما الكنيسة هذان ينتميان إلى كيانٍ واحد بعينه. فهما طليعة جيش المسيح وساقته. وأولئك الذين سبقونا يشكلون الآن حولنا سحابة عظيمة من الشهود، فخلال حياتهم اعترفوا بالإيمان الاعتراف الحسن وبذا يدفعونا على الأمانة والصبر. ولا يمكن أن يكملوا من دوننا، كما لا يمكن أن نكمل نحن من دونهم (عب 11: 40). فالقديسون أجمعون وحدهم يمكن أن يدكوا كلياً محبة المسيح الفائقة ويمتلئوا بكل ملء الله (أف 3: 18، 19). وعليه، فإن التاريخ باقٍ إلى أن نصل جميعاً إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح (أف 4: 13).

وكون الرسل، يعزون خصائص عظيمة كهذه إلى الكنيسة ككلّ، لا يقصدون بذلك فكرةً ولا مثالاً، بل حقيقة واقعة، أصبحت واضحة المعالم كونهم يتكلمون بالطريقة نفسها عن كل كنيسة محلية، بل أيضاً عن كل مؤمن بمفرده. فالكنيسة المحلية في كورنثوس مثلاً، رغم نقائصها وأخطائها الكثيرة، تُدعى هيكل الله، ومسكن الروح القدس، وجسد المسيح (1كو 3: 16؛ 12: 27). وهكذا أيضاً نقرأ عن كل مؤمن أن جسده هيكل للروح القدس وأنه مِلكٌ لله جسداً وروحاً (1كو 6: 19، 20). فالمؤمنون جميعاً، أي الكنيسة بمجملها، وكل كنيسة محلية، وكل مؤمن بمفرده، يتشاركون جميعاً في البركات عينها، ولهم نصيب في المسيح عينه، ويمتلكون الروح عينه، وبذلك الروح ينقادون للآب الواحد

[1]- أف 1: 22، 23؛ 4: 15؛ كو 1: 18، 24.
[2]- أف 5: 32؛ 2كو 11: 2؛ رؤ 21: 2.
[3]- أف 2: 20 – 22؛ 1تي 3: 15؛ 1بط 2: 5؛ رؤ 21: 3.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بعينه.[1] ثمة فرق في مقدار النعمة التي يمنحها المسيح لكل واحد من مؤمنيه (رو 12: 6؛ أف 4: 7) – فرقٌ في الموهبة والخدمة والعمل والممارسة (1كو 12: 4 – 6). غير أن هذا الفرق ليس عائقاً لوحدة المؤمنين، بل بالأحرى يعززها ويقويها.

وإذا كانت الكنيسة بالفعل كياناً عضوياً واحداً، أي جسداً حياً، فذلك يعني ضمناً أنها تشتمل على أعضاء كثيرين ومتنوعين، يتلقى كل واحد منهم اسمه مكانه ووظيفته ودعوته داخل الجسد. وإن كانوا كلهم عضواً واحداً فأين الجسد؟ (1كو 12: 19). فكما أن الجسد واحد وله أعضاء كثيرة، وجميع الأعضاء هي أعضاء في الجسد الواحد، كذلك أيضاً حال الكنيسة (1كو 12: 12). وعليه، فكلّ عضوٍ في الجسد، أي الكنيسة، يتلقى من المسيح موهبته الخاصة، مهما كانت وضيعة أو صغيرة، وعليه أن يخدم الكنيسة، لا نفسه، بتلك الموهبة التي أخذها كلّ واحد، عليه أن يخدم الكنيسة، لا نفسه، بتلك الموهبة. وبحسب طبيعة الموهبة التي أخذها كلّ واحد، عليه أن يخدم إخوته، كوكيلٍ صالح على نِعَم الله المتنوعة (1بط 4: 10). وهو لم يُعطَ موهبته لأجل نفسه بل لنفع الآخرين بها (1كو 12: 7)، لبنيان الكنيسة (1كو 14: 12)، للاعتناء بالآخرين كاعتنائهم به.

وهكذا تبقى كنيسة المسيح، في تنوّعها، وحدة واحدة. ولا يعني هذا فقط أنه لم تكن إلا كنيسة واحدة، بل يعني أيضاً أن هذه الكنيسة في كل زمان ومكان هي هي، ولها الفوائد والامتيازات والخيرات نفسها. فهذه الوحدة لا تُضفى على الكنيسة من الخارج، ولا تُفرَض عليها بالقوة، ولا توجد بالترتيبات التعاقدية، ولا تُنَظّم مؤقتاً لمواجهة عدو مشترك. حتى إنها أيضاً لا تنشأ من الغرائز الاجتماعية في الحياة الدينية. بل هي بالأحرى وحدةٌ ذات طبيعة روحية. فمستندها وأساسها ومثالها الوحدة الكامنة بين الآب والمسيح من حيث هو الوسيط (يو 17: 21 – 23). إنها وحدة تنبع من المسيح بصفته الكرمة التي تنبت جميع الأغصان وتغذّيها (يو 15: 5)، والرأس الذي منه يُحصِّل كامل الجسد نموّه وقوته (أف 4: 16)؛ وهي وحدةٌ يحققها الروح الواحد الذي به ننقاد للآب الواحد.[2] ذلك أن محبة الآب ونعمة الابن وشركة الروح القدس هي نصيب كل مؤمن، وكل كنيسة محلية، ونصيب الكنيسة ككل. هذا هو سر وحدة الكنيسة الراسخة وغير المتغيرة.

وهذه الوحدة تظل ناقصة وغير مكتملة في الكنيسة هنا على الأرض. فكما الكنيسة ذاتها، كذلك وحدتها أيضاً ما تزال في طور التكوين. إنها قائمة في كلّ حين، لكنها تنمو وتُطبَّق بالتدريج. وقد صلى المسيح لأجلها (يو 17: 21)، قدمها الرسول بولس باعتبارها أمراً لن يتحقق بالكامل إلا في المستقبل (أف 4: 13). غير أنها ليست صنيعة الخيال بغير أساس في الواقع. بل إن هذه الوحدة، على النقيض، موجودة حقاً ومُعبَّر عنها في حياة الكنيسة بصيغة ما. فهي حاضرة ليس في الكنيسة غير المنظورة فقط بل إنها تلقى تعبيرها أيضاً في مظهر الكنيسة المنظورة. وقد تجلّت هذه الوحدة عند الكنيسة في أورشليم بالطريقة المعروفة، إذ إن جميع الإخوة والأخوات، بعدما انضموا إلى الكنيسة إذ قبلوا المعمودية، واظبوا على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات (أع 2: 42)، وكان لهم جميعاً قلبٌ واحد ونفس واحدة، وكان عندهم كل شيء مشتركاً (أع 2: 44؛ 4: 32 – 35). ولّما تأسست فيما بعد كنائس في أماكن أخرى أيضاً استمرت وحدة المؤمنين هذه.

ولقد واجهت الكنيسة عقبة كبيرة في سبيل الحفاظ على هذه الوحدة، من جراء اختلاف الخلفيات والعوائد بين المسيحيين ذوي الأصل اليهودي والمسيحيين ذوي الأصل الأممي، فغالباً ما وقف الطرفان في مواجهة أحدهما الآخر داخل الكنائس المختلطة، وأحياناً – بل غالباً كان يحصل نزاع سافر بين الطرفين. حتى بطرس بالذات أثبت أنه ضعيف ذات لحظة فيما يتعلق بذلك النزاع، لما كان نازلاً في إنطاكية، فاستحق أن يوبّخه بولس (غل 2: 11 – 14). ولكن رسول الأمم الذي كان يهودياً لليهود، وصار للكل كل شيء، جعل هدف الوحدة نصب عينيه دائماً وحثّ الكنيسة كلها على المحبة والسلام. وقد أكّد بولس أن الجميع جسدٌ واحد، ولهم جميعاً روحٌ واحد، ومعمودية واحدة، وإيمان واحد، وإله آبٌ واحد فوق الجميع وفي الجميع (أف 4: 4 – 6). ولم يكن ينبغي بالضرورة للجميع أن يكون أحدهم مثل الآخر في كل شيء، لأن الجسد يحتم وجود أعضاء مختلفة، وكلّ عضوٍ يجب أن يخدم الجماعة بقدراته الخاصة (1كو 12: 4 وما يلي)، وعلى الجميع أن يحترم كل حرية الآخر (رو 14). وبموت المسيح نقُض الجدار الفاصل، وتصالح الاثنان – اليهود والأمم أحدهما مع الآخر وخُلقا في المسيح إنساناً واحداً جديداً

[1]- 1كو 8: 6؛ أف 2: 18؛ 4: 3 – 6.
[2]- 1كو 12: 13؛ أف 2: 18؛ 4: 4.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

صانعاً سلاماً (أف 2: 14 وما يلي). وبالاعتراف بالمسيح رباً يظهرون أن الجميع واحد (1كو 12: 3) وهم جميعاً ملتزمون واجباً واحداً، ألا وهو فعل كل شيء لمجد الله.[1] وقد بارك الله بولس في عمله هذا، فتلاشت المقاومة بين الطرفين تدريجياً، وذلك لصون وحدة الكنيسة.

ولكن كنيسة المسيح أصابها فيما بعد الانقسام بسبب مختلف أنواع البدع والشقاق عبر القرون المتعاقبة, حتى إن كثرة الطوائف والمذاهب في الكنيسة اليوم تشكّل مظهراً يرثى له من مظاهر انعدام الوحدة. ومع ذلك ما تزال آثار الوحدة في الماضي ظاهرة للعيان، حيث أن جميع الكنائس المسيحية منفصلة عن العالم بالمعمودية الواحدة بعينها، إن الكنائس ثابتة على تعليم الرسل كما يظهر في الاعتراف بمواد قانون الإيمان الرسولي، وما زالت تشترك في كسر الخبز والصلوات – ولو بصِيَغٍ وأشكال مختلفة. فالكنيسة في وحدتها غرضٌ من أغراض الإيمان؛ ومن أننا لا نستطيع الآن أن نرى هذه الوحدة، أو لا نستطيع أن نراها بالوضوح الذي نرجوه، فهي وحدة موجودة الآن وسوف تُكمَّل ذات يوم.

والأمر ذاته يصحّ فيما يتعلق بخاصية أخرى من خصائص الكنيسة، ألا وهي قداستها. فمنذ البداية كان سبيل القدوم الوحيد إلى الكنيسة هو سبيل الإيمان والتوبة: فكل من تاب واعتمد نال غفران الخطايا وعطية الروح القدس (أع 2: 38). ومع أن المسيح نفسه لم يكن يعمِّد (يو 4: 2)، ومع أن الرسل لم يفعلوا ذلك كقاعدة عامة (أع 10: 48؛ 1كو 1: 14 – 17)، فقد كانت المعمودية تُجرى لجميع الذين رغبوا في الانضمام إلى الكنيسة. ولكن هذه المعمودية فُهِمَت دائماً باعتبارها جامعةً في ذاتها للعلامة المنظورة والدلالة الروحية غير المنظورة، لا من حيث كونها إزالة لوسخ الجسد بل تعهّد ضمير صالح أمام الله (1بط 3: 21)، وتبعاً لذلك وضعت مقابل الختان. من وجهة النظر هذه كانت المعمودية بالحقيقة وسيلة حفظ، شأنها شأن الفلك الذي نجا فيه نوح (1بط 3: 20، 21)، كما كانت دفناً مع المسيح وقيامةً معه (رو 6: 3، 4)، وغسلاً للخطايا (أع 22: 16)، وقطعاً للعلاقة بالعالم ودخولاً في شركة جديدة.

وهكذا تضمنت المعمودية على موقف مختلف كلياً تجاه العالم، وكان المرء في حاجة إلى شجاعة عظيمة لقبولها وإعلان انتمائه إلى كنيسة المسيح. فلم تكن تلك الكنيسة تضم أغلبية من البسطاء والعاميين وحسب (1كو 1: 25 – 29)، بل كان على المنتمي إليها أيضاً أن يكابد الازدراء والاضطهاد غالباً. وفي بادئ الأمر صدر هذا العداء والاضطهاد من جانب اليهود، سواء في ذلك السلطات[2] أو الشعب الذين حرّضوا الأمم غير مرة على المعارضة والشغب.[3] كما أن الأمم أيضاً في بعض الأحيان بادروا من تلقاء أنفسهم إلى إبداء العداء نحو المسيحيين، ولكن هذا كان استثناء، إذ لم تكن الحكومة في أغلب الأحيان منحازة ضدّ المسيحيين.[4]

وقد بدأ اضطهاد الكنيسة من قِبَل روما أولاً تحت حكم نيرون في السنة 64م. ولذلك سبق أن توقَّع المسيحيون من السلطات الرومانية الحماية لا الاضطهاد،[5] ورأوا في الحكومة الرومانية سلطةً رتبها الله، وشجعوا الناس على الخضوع لقوانينها والصلاة لأجل خيرها.[6]

وفيما خصّ الحياة الاجتماعية، نصح الرسل المؤمن والمؤمنة بألا يترك كلٌّ زوجه (1كو 7: 12؛ 1بط 3: 1)، بل أن يعيش المتزوج في حال الزواج كما يريد الرب (1كو 7: 39؛ 2كو 6: 13). وأوصوا بأن يبقى كلّ واحد، عبداً كان أو أمة، على الحالة التي كان عليها لما دُعي (1كو 7: 20)، وألا ينسحب المؤمنون كلياً من التعامل مع غير المؤمنين (1كو 5: 10)؛ كما سمحوا للمؤمنين قبول الدعوة إلى وليمة ما، على أن يمتنعوا عن الأكل من ذبيحة مقرَّبة لوثن، وذلك لأجل الضمير والقدوة الحسنة (1كو 10: 27، 28؛ 8: 12؛ 10: 20). وقد علّم الرسل فيما بعد أنه ينبغي للمؤمنين أن يعيشوا في سلامٍ ومحبة مع جميع الناس، ومع الأعداء أيضاً،[7] وألا يعتبروا شيئاً ما نجساً في ذاته، ما دامت كل خليقة الله طاهرة (رو 14: 14؛ 1تي 4: 4).

---

[1]- رو 14: 6 – 8؛ 1كو 10: 31؛ كو 3: 17.
[2]- أع 4: 1 وما يلي؛ 5: 17 وما يلي؛ 6: 12 وما يلي؛ 9: 1 وما يلي.
[3]- أع 9: 23 وما يلي؛ 13: 50؛ 14: 2؛ 17: 5، ومواضع أخرى.
[4]- أع 17: 9؛ 18: 17؛ 19: 35 وما يلي؛ 21: 32؛ 23: 17 وما يلي.
[5]- أع 16: 37؛ 22: 25؛ 25: 10؛ 2تي 2: 7.
[6]- رو 13: 1 – 7؛ 1تي 2: 2؛ تي 3: 1؛ 1بط 2: 3 – 17.
[7]- رو 12: 14، 17؛ 13: 10؛ غل 6: 10؛ كو 4: 5؛ 1تس 3: 12؛ 2بط 1: 17.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وتبعاً لذلك، فإن علاقة الكنيسة هذه بالعالم هي علاقة حرية، وهي بعيدة كلّ البعد عن أي تقشّف أو اعتزال زائف. ولكن لا يمكن أن تكون العلاقة على هذه الصورة إلا إذا ظلّت الكنيسة مُدركة لدعوتها وسالكة في القداسة قدّام الله. فالكنيسة مقدسة، وهي شعب ومقدس، والمؤمنون أشخاص مقدسون أو قديسون (رو 1: 7؛ 1كو 1: 2)، لأنهم – جماعة وأفراداً – هياكل للروح القدس (1كو 3: 16، 17؛ 6: 19)، وبفضل ذلك الروح هم مغتسلون ومقدسون في المسيح يسوع.[1] ولذلك عليهم أن يتجنبوا ويجاهدوا حتى الموت ضد كل خطية، ويميتوا أعمال الجسد كلها، والشهوات العالمية جميعها،[2] ويمارسوا – على نقيض ذلك – جميع الفضائل يدعموا كلّ ما هو صالح.[3] وأن يسلكوا في المحبة (أف 5: 2) لأن المحبة هي أعظم الفضائل (1كو 13: 13) ورباط الكمال (كو 3: 14) وتكميل الناموس (رو 13: 10).

إن التأديب وسيلة أعطاها المسيح للكنيسة كي تحافظ بها على طبيعتها المقدسة. ولذا يجب أن يُمارَس التأديب لا في السر فقط، كأن يمارسه أخٌ من الإخوة تجاه الآخر مثلاً،[4] بل يجب أن تطبّقه الكنيسة على أي من أفرادها في حال وجود خطية علنية.[5] وفي كل الرسائل يتضح إلى إلى أي مدى كانت هذه القداسة ما تزال مفتقدة في زمن الرسل، كما أن العصور اللاحقة غالباً ما شهدت انحلالاً يصعب فهمه في الدين والأخلاق. ولكن روح المسيح كان يحرك نهضةً وانتعاشاً مرةً تلو الأخرى بعد استشراء التراخي والفساد. وقداسة الكنيسة هذه أيضاً هي خاصية من الخصائص التي اكتسبها المسيح للكنيسة والتي يُجريها إلى التمام في الكنيسة وبها.

وأخيراً هنالك صفة الجامعة الرسولية التي تتصف بها الكنيسة. وقد أُشير إليها أولاً إلى كون الكنيسة "كاثوليكية" أي جامعة في نص كتب في الفترة التالية لزمن الرسل، وكان القصد من ذلك هو التصريح بأن الكنيسة الصحيحة، في مواجهة جميع أنواع البدع والانشقاقات، هي تلك التي تطيع الأسقف وتبقى مع الجماعة الرئيسية، ما دامت الكنيسة الكاثوليكية أي الجامعة الرسولية هي تلك الكنيسة التي فيها المسيح. وفيما بعد أُضيفت إلى هذه التسمية تأويلات أخرى مختلفة، فصار الناس يفهمون منها أن الكنيسة منتشرة في جميع أنحاء العالم، وأنها منذ البداية حتى الزمن الحاضر تشتمل على جميع المؤمنين على مرّ العصور، وأنها وسيلة لإعلان الخلاص الكافي والوافي للجميع حيث أنها تشترك فعلاً في كامل الحق والنعمة. هذه التعاليم ليست على خطأ إذا كنا عند التفكير في الكنيسة لا نفكر فقط في منظومة كنسية واحدة، كالكنيسة الكاثوليكية مثلاً، بل نعتبر ذلك منطبقاً على الكنيسة المسيحية المتمثلة في جميع الكنائس الكاثوليكية معاً وعلى درجات متفاوتة من النقاوة وسلامة العقيدة. فإن تلك الكنيسة هي في الواقع كنيسة كاثوليكية، أي جامعة، فعلاً. حتى إن الوعد الرئيسي قُطِع في العهد القديم لآدم وحواء، وللجنس البشري كله بالتالي. ومع أن أحوال الزمان أدت فيما بعد إلى انتخاب شعب خاص من خلال إبراهيم ليقوم بدور حامل الإعلان الإلهي، فإن ذلك الإعلان كان وسيظل موجهاً على البشرية كلها. ففي نسل إبراهيم أُعدَّت البركة لجميع قبائل الأرض (تك 12: 2). وظلت عين النبوة شاخصة دائماً على غاية الفداء العامة.[6]

ولما باشر المسيح خدمته، بدا واضحاً أنه توجّه فقط إلى خراف بيت إسرائيل الضالة (مت 15: 24)، ومع ذلك كان الملكوت الذي كرز به جامعاً شاملاً، وخالصاً إلى التمام من أية حدود قومية، ومفتوحاً أمام جميع الذين يؤمنون ويتوبون (مر 1: 15). وقد قال المسيح إنه إذا رفض اليهود إنجيله يُطرح بنو الملكوت خارجاً ويأتي كثيرون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب (مت 8: 11، 12). ولابد له هو بالذات من أن يقع في الأرض ويموت، كحبة الحنطة، لكنه فيما بعد يأتي بثمر كثير (يو 12: 24). وله خرافٌ أخر من خارج حظيرة بني إسرائيل، فينبغي أن يأتي بتلك أيضاً كي تكون رعية واحدة ولها راعٍ واحد (يو 10: 16؛ 11: 52). وبعد قيامته أمر تلاميذه أن يكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها ويتلمذوا جميع الأمم (مت 28: 19؛ مر 16: 15). وقد أتمّ الرسل هذه المأمورية، فانطلقوا شهوداً للمسيح، في أورشليم وفي جميع أنحاء اليهودية والسامرة، وإلى أقاصي الأرض أيضاً (أع 1: 8).

---

[1]- رو 17: 17، 19؛ 1كو 1: 2؛ 6: 11؛ أف 26: 27.
[22]- غل 5: 19؛ كو 3: 5؛ عب 12: 1، 4.
[3]- غل 5: 22؛ في 4: 8؛ كو 3: 12؛ تي 2: 14، وآيات أخر.
[4]- مت 18: 15 – 22؛ 1تس 5: 14؛ عب 10: 24.
[5]- مت 18: 17؛ 1كو 5: 5؛ 2كو 5 – 10؛ تي 8: 10.
[6]- يؤ 2: 32؛ ميخا 4: 1، 2؛ صف 2: 11؛ إش 25: 6 – 10.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ومن اللافت للأنظار أنه بينما تحدّث المسيح كثيراً عن ملكوت السماء ومرّات قليلة عن الكنيسة، يذكر الرسل – على النقيض – ملكوت الله في النادر نسبياً فيما يفصّلون الكلام عن كنيسة المسيح، بيد أن لهذه الظاهرة ما يفسرها.

فإن ملكوت السماء الذي يتحدث عنه المسيح ليس، في المقام الأول ورغم كلّ شيء مجموعة من الناس أو رعية من المواطنين، بل هو جملة خيرات وبركات روحية – إنه كنز (مت 13: 44) ولؤلؤة ثمينة (مت 13: 45) وبرّ وسلام وفرح في الروح القدس (مت 6: 33؛ رو 14: 17). ذلك الملكوت هو من السماء، وها قد نزل الآن إلى الأرض مع المسيح، لأنه فيه – له المجد – يوزّع الآب جميع هذه البركات والخيرات (1كو 1: 30؛ أف 1: 3). وقد جعل الآب الملكوت للمسيح الذي بدوره يجعله لتلاميذه (لو 22: 29). وهو فعل ذلك على الأرض فيما مضى، فعندما أخرج الشياطين بروح الله قدّم بذلك بيّنةً على أن ملكوت الله قد أقبل (مت 12: 28). كما أن هذا الملكوت يوالي الإقبال إذ يُتاح للإنسان أن يكون له نصيب فيه وفي جميع خيراته من طريق الإيمان (لو 17: 21). هذا الملكوت ينمو ويتعاظم كشجرة تنمو وكخميرة تخمّر العجنة كلها (مت 13ك 31 – 33)، ولسوف ينتشر بملئه الكامل في المستقبل عند مجيء المسيح.[1]

على أن هذا الملكوت، بهذا المفهوم، ومنذ مجيء المسيح الأول حتى مجيئه الثاني، مُعطى لأناسٍ هم المولودون من الماء والروح والمؤمنون باسم المسيح (يو 1: 12، 13؛ 3: 3 – 5). ولهذا السبب هو مشبَّه ببذرة تُغرَس في الأرض لكي تأتي بثمر، أو بشبكة تُطرَح في البحر فتجمع سمكاً من كل نوع (مت 13: 24، 46). أما الرسل فهم الصيادون الذين ينطلقون حاملين تلك الشبكة ويجمعون الناس ليتيحوا لهم الاشتراك في بركات الملكوت الحاضرة والآتية (مت 4: 19).

وبينما كرز المسيح بالملكوت هكذا، مفسِّراً طبيعته وصفاته وتطوره على ذلك النحو، دعا تلاميذه وأهّلهم ليجمعوا الكنيسة بواسطة إنجيل الملكوت – الكنيسة التي لها نصيب في كنوز الملكوت وخيراته الثمينة والتي سوف تمتلكها جميعاً ذات يوم وتتمتع بها جميعاً. وكلمة "الملكوت" تركّز انتباهنا خصوصاً على الكنوز والبركات والخيرات التي يوزعها علينا المسيح من قبل الآب؛ أما كلمة "الكنيسة" فتجعلنا، بالمقارنة، نفكر في جَمْع الناس الذين تلقوا هذه الخيرات والذين يتقدمون نحو التمتع بها إلى التمام. بعبارة أخرى، إن الكنيسة هي في المسيح صاحبة ملكوت الله، ومالكته والحافظة له، وناشرته ووراثته. ذلك هو كنزها ومجدها، وليس لديها شيء سواه ذو قيمة ثمينة. وما قاله بطرس مرةً، تستطيع الكنيسة أن تردّده من بعده بطريقتها الخاصة – ليس لي فضة ولا ذهب، ولكن الذي لي فإياه أعطيك: باسم يسوع الناصري قم وامشِ (أع 3: 6).

ولما كانت جميع كنوز الملكوت التي تمتلكها الكنيسة روحية بطبيعتها، وليست من الذهب والفضة، ولا من السلطة والقوة، بل من البرّ والسلام والفرح في الروح القدس، فإن صفة الجامعة الرسولية تُنسَب إلى الكنيسة. فليست الكنيسة وقفاً على أرض أو شعب، ولا على زمان أو مكان، ولا على جيلٍ من الأجيال، ولا على أموال وأملاك؛ بل هي مستقلة عن جميع الفروق الأرضية والتمايزات الدنيوية. إنها تحمل الإنجيل إلى البشرية جمعاء، وذلك الإنجيل هو – فقط ودائماً – البشارة بكل معنى الكلمة: خبر مفرح مناسب وضروري لجميع الشعوب، في جميع الأزمنة، وتحت جميع الظروف، وعلى جميع الأحوال. وليس ملكوت الله متعارضاً مع شيء ما خلا الخطية.

وقد كان لهذه الكنيسة منذ البداية تنظيم خاص باعتبارها جمع للمؤمنين، ولابد لكل جماعة تضمّ بشراً تجنّباً للفوضى والانحلال، من نُظُمٍ تتحكم في اجتماعاتها ونشاطاتها، ولكي تفي بالغرض الذي أُنشئت لأجله. فكنيسة المسيح أيضاً خاضعة لهذا القانون العام للمجتمع البشري. إذ ليس الله إله تشويش، بل إله سلام، وهو قد وضع فرائض لجميع خلائقه، وقصده أن يكون كلّ شيء في الكنائس أيضاً بلياقة وترتيب (1كو 14: 33، 40). ووضع النظم على هذا النحو أكثر لزوماً لحياة الكنيسة لأن الله يريد استخدامها لغرضٍ محدد. وعلى كل حال، فإن الكنيسة ما تزال غير كاملة ما دامت على الأرض: فأفرادها جميعاً، وكلّ واحد منهم بمفرده، يجب أن يجاهدوا دائماً ضدّ الخطية ويسعوا في إثر القداسة؛ وفي كل حين يحتاج هؤلاء إلى التعليم والتوجيه والإرشاد، والتقوية والتعزية، والحثّ والتأديب. ليس ذاك فقط، بل على الكنيسة أيضاً أن تتكاثر من جيلٍ

[1]- مت 5: 3 وما يلي؛ لو 12: 32؛ أع 14: 22؛ 1كو 15: 24 – 28؛ 2تس 1: 5؛ ومواضع أخرى.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

على جيل؛ ولا تقتصر على الأفراد أنفسهم، إذ إنها تفقد يومياً أولئك الذين يُنقلون إلى الكنيسة الظافرة، وينضم إليها دائماً أعضاء جدد يتربون فيها وينبغي أن يُدخلوا إلى حياة الكنيسة. إضافة إلى هذا، تلقّت الكنيسة من المسيح المأمورية بأن تكرز بالإنجيل للخليقة كلها. وبالتالي، فإن الكنيسة، داخل ذاتها وخارجها على السواء، دعوة مقدسة وخطيرة من واجبها أن تضطلع بأعبائها.

وإذ يلقي الله على الكنيسة واجب هذه الدعوة، ويؤهّلها ويجهّزها في الوقت عينه لكي تقوم به. فهو يرتّب الأمور على نحوٍ معين، ويعطي الكنيسة ما يلزم من المواهب والقوات والتدابير، لكي يُعدّها للقيام بالمهمة الملقاة على عاتقها. فقد أعطى الله الكنيسة، على حدّ قول بولس، رسلاً ومبشرين ورعاةً ومعلمين، لكي يقوم هؤلاء بعمل الخدمة في الكنيسة، وبذلك يبنون جسد المسيح ويعملون على تكميل القديسين. وعليه، فإن هذه السلسلة من الترتيبات ينبغي أن تظل سارية المفعول إلى أن يتحقق الغرض منها فينتهي الجميع إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح (أف **4**: **11** – **13**). وبكلامٍ آخر، فإن الكنيسة، باعتبارها جماعة المؤمنين ونظراً إلى الدعوة التي ينبغي لها أن تضطلع بأعبائها، وتسلّمت من المسيح مؤسسة قائمة بذاتها، أي ترتيباً خاصاً من المواهب والقدرات، والوظائف والخدمات، التي من خلالها تستطيع أن تستجيب لدعوتها. شريعة القوانين والنظم هذه لم تُضَف إلى الكنيسة لاحقاً، بل رافقتها منذ البداية. ولما كان من المتعذر النظر في مختلف الموضوعات معاً، فمن الضروري أولاً أن ننظر في كون الكنيسة جماعة المؤمنين، ومن ثم نتحدّث عن النظم السائدة في حياتها وخدماتها. ولكن لا يُستنتج من هذا أن الأمر الأول وُجِد عملياً قبل حصول الأمر الثاني ببعض الزمن، أو أن ذاك كان قائماً دون هذا. فإن الله أنشأ الكنيسة على الأرض حال وجودها على النحو الذي تقتضيه مكانتها ورسالتها في العالم.

ولكن بين الأمرين فرقاً، وإن لم يكن بينهما فارقٌ زمني. ويظهر ذلك جلياً من حقيقة كون النظام الذي جُعل للكنيسة قد اختلف بصورة لافتة على مرّ العصور. فمنذ زمن جنة عدن كان على الأرض مؤمنون، وليس من شكّ في أنهم اجتمعوا أيضاً بعضهم مع بعض. إذ نقرأ في (تكوين **4**: **26**) أنه في أيام أنوش ابتدأ الناس يدعون باسم الرب، ولاشك أن في هذه العبارة وصفاً لواقع الحال الحاصل في أيام بني قاين إذ انفصل عنهم بنو شيث واجتمعوا معاً حول الاعتراف باسم الرب. إذاً منذ ذلك الحين وُجدت العبادة الجمهورية. وكان قوامها على العموم الوعظ وتقديم الذبائح والصلاة. ولكن، فيما يتعلق بغير هذا، لا نجد ذكراً للتنظيم. فقد تركّزت "الكنيسة" آنذاك في الأسرة. وفي زمن الآباء كان الأب هو أيضاً الملك والكاهن في أسرته، فهو يُجري الختان (تك **17**: **23**) وهو يقدّم الذبائح (تك **22**: **2**؛ **26**: **1**).

ولما أُعطي الناموس في سيناء، وأقام الله عهده مع الشعب، حصل تغيّر كبير. فقد أُنشئت حينئذ مؤسسة خاصة تضم الكهنة واللاويين، وحدّد لتقريب الذبائح مكان محدد وزمان معيّن. والتقدمات بعينها تميّزت إحداها عن الأخرى وترتبت وفقاً لنظام مخصوص. وقد نظّم بدقة وحُدّد بالتفصيل كل ما يتعلق بالأمور المقدسة – الأشخاص والأوقات والأماكن والممارسات. وكان الناموس نيراً أثقل من أن يُحمَل (أع **15**: **10**)، لكنه كان ضرورياً يومذاك للإحساس بثقل الخطية، وإثارة الحاجة إلى الغفران، وإلقاء الضوء على أهمية الذبائح وحتميتها، ولتمهيد السبيل بالتالي أمام المسيح.

ولكن إلى جانب هذا النظام الرسمي والشرعي، وفي ظله، نشأت أيضاً ممارسة منظمة للحياة الدينية عند شعب العهد القديم. وينبغي أن نذكر أن الشعب أقاموا في جميع أنحاء كنعان، وفي عبر الأردن أيضاً إلى حدّ ما. فغنيٌّ عن البيان أن قسماً ضئيلاً فقط، وعلى نحو نسبيّ، كان يمكنه أن يذهب إلى أورشليم في الأعياد الكبرى. وإلى ذلك كانوا جميعاً ملزمين بكل تدقيق أن يراعوا تقديس يوم السبت، الأمر الذي مارسوه في أماكن إقامتهم. فقد كان ميسوراً وعملياً، كما يُحتمل جداً، أن يقوم المؤمنون في مثل هذه الأيام بعقد اجتماعات دينية حيث تتاح لهم المشاركة في التأمل بالشريعة، والترتيل، والصلوات. وعليه، ففي (أعمال الرسل **15**: **21**) نقرأ أن موسى منذ أقدم الأجيال له في كل مدينة من يكرز به، وأنه كان يقرأ في المجامع كلّ سبت.

وبينما نجهل أصل هذه المجامع، من المؤكد أنها قديمة العهد وأنها اكتسبت أهمية جديدة وشأناً جليلاً خلال السبي وبعده، إذ تشتت العبرانيون في جميع البلدان وسكنوا في أغلب الأحيان بعيداً عن موطنهم وهيكلهم. فحيثما أقام اليهود، بنوا مجمعاً، ودرجوا على الاجتماع هناك في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أوقاتٍ معلومة – كأيام السبت والأعياد وبعض أيام الأسبوع أيضاً – للتعبير عن اعترافهم بالإيمان المشترك، وللاشتراك في الصلاة، والإصغاء إلى قراءة شيء من الناموس والأنبياء، والاستماع إلى حديث حرّ (لو 4: 21)، وقبول بركة الشيخ الذي يرأس المجمع. وقد عُهِد بإدارة المجمع إلى جماعة من الشيوخ كان لهم حقّ إجراء التأديب والفرز من الشركة، وكانوا يشرفون على سائر أجزاء الخدمة، وينظمون الخدمات الدينية. وكان بين المسؤولين أمين الصندوق، ومهمته تلقّي الهبات التي يتم التبرع بها لأجل الصدقات، والخادم (لو 4: 20) وهو مكلَّف أن يوزع الأسفار المقدسة ويعيدها إلى مكانها. وقد كان هذا التنظيم في إدارة المجامع بالغ الأهمية بالنسبة إلى حياة اليهود الدينية، كما شكّل أيضاً، وبطرقٍ شتى مثالاً لتنظيم اجتماعات الكنيسة المسيحية.

فإن الرب يسوع درج على عادة القيام بزيارة هذه الاجتماعات في المجامع (لو 4: 16) والتزم راحة السبت أيضاً عملاً بجميع الأحكام الواردة في ناموس موسى، وهكذا أكمل كلّ برّ (مت 3: 15). على أنه جاء لكي يكمل الناموس بحفظه ومن ثم يضع على أكتاف التلاميذ حملاً يختلف عن نير الناموس الثقيل. هذا الحِمل المختلف هيّن وخفيف ومريح للنفوس (مت 11: 29، 30). وقد كرز المسيح بإنجيل ملكوت الله، وجمع حوله تلاميذاً اعترفوا به سيداً لهم، واقتادهم إلى التعمّق أكثر فأكثر في معرفة شخصه وعمله.

ومن بين مجموعة التلاميذ، اختار المسيح، بالنظر إلى أسباط إسرائيل الاثني عشر (مت 19: 28)، اثني عشر تلميذاً سمّاهم أيضاً رسلاً (لو 6: 13). وتتضح خطورة هذا الاختيار وأهميته من حقيقة كون المسيح قد قام به بعدما قضى ليلة كاملة على الجبل وهو يصلي وحده لله (لو 6: 12). فبحسب المنطق البشري، مستقبل ملكوت الله، يتعلق جزء كبير منه، بهذا الاختيار. والاسم "رسول" الذي أطلقه على كل واحد من هؤلاء التلاميذ، يعني مبعوثاً أو مُرسَلاً، ولم يكن نادر الاستعمال يومذاك. ويرجَّح جداً أن اليهود أطلقوا اسم "الرسل" على الرجال الذين أرسلوهم من أورشليم ليجمعوا الأموال للهيكل. كذلك في العهد الجديد يُدعى المسيح نفسه رسولاً (عب 3: 1)، وهكذا يُدعى برنابا أيضاً (أع 14: 4، 14)، وربما دعي بهذا الاسم أيضاً خادمٌ أو آخر من خدّام الإنجيل هنا أو هناك. ولكن سرعان ما أصبح الاسم "رسول" مقتصراً على الاثني عشر الذين اختارهم المسيح، وعلى بولس الذي دعي فيما بعد وبطريقة خاصة جداً ليكون رسولاً إلى الأمم.[1]

أما الغرض المباشر لاختيار الرسل هذا فكان أن يرافقوا المسيح وأن يرسلهم ليكرزوا ويشفوا المرضى (مر 3: 14، 15). وبحسب (متى 10: 1 وما يلي) (مر 6: 7 وما يلي؛ لو 9: 1 وما يلي)، أرسل الرب هؤلاء فعلاً إلى مختلف المدن والقرى في الجليل. ولا شك أن المسيح قصد من وراء هذه الإرسالية أن يصل الإنجيل إلى اليهود الذين لم يتسنّ له هو أن يصل إليهم، لكنه كان في الوقت عينه يُعِدّ رسله لمهمتهم المقبلة. ولم تكن دعوتهم في المستقبل شيئاً سوى هذا الأمر: أن ينطلقوا في وسط العالم شهوداً للمسيح يعد قيامته ويثبتوا بنيان كنيسته على أساس هذه الشهادة. وقد أعدَّهم لهذا الغرض بطريقة خاصة، بدخوله وخروجه معهم وبتعليمه لهم، وبالإفساح لهم كي يكونوا شهوداً لكلامه وأعماله، وسيرته وآلامه، وموته وقيامته أيضاً على الخصوص،2 وبوعده أن يرسل إليهم روح الحق الذي يرشدهم إلى جميع الحقّ ويعزيهم ويمكث معهم إلى الأبد.3 ومع هذا الإعداد زوّدهم أيضاً بسلطة خصوصية، ألا وهي سلطة الكرازة والتعليم، وشفاء المرضى بطريقةٍ خاصة، وإجراء المعمودية، وممارسة عشاء الرب والتأديب الكنسي، وفتح ملكوت السماء وإقفاله بغفران الخطايا أو إمساكها.4 وقد كان الرسل خداماً للمسيح ووكلاء سرائر الله (1كو 4: 1).

وكان لبطرس المقام الأول بين الرسل. فقد كان ابن يونا، صياد سمك من بيت صيدا (يو 1: 43، 44)، وكان قد تزوج في كفرناحوم قبل تعرّف المسيح إليه (مر 1: 21، 29). أما اسمه في الأصل فهو سمعان، ولكن المسيح زاد عليه الاسم "صفا"، أو بطرس، ويعني صخراً، وذلك حالما التقاه أول مرة (يو 1: 42). وهذا الاسم يعبِّر عن طبع بطرس، عن حبه للمغامرة واستقلاليته ورحابة صدره وصلابة عوده. وعلى هذه

[1]- أع 1: 2؛ 2: 37؛ غل 1: 17؛ 1كو 9: 5؛ 15: 7؛ رؤ 2: 2؛ 18: 20؛ 21: 14.
[2]- أع 1: 8، 22؛ 2: 32؛ 3: 15، وآيات أخر.
[3]- يو 14: 17؛ 15: 26؛ 16: 17؛ 20: 23.
[4]- مت 16: 19؛ 18: 18؛ 28: 19؛ يو 20: 23.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الصورة نتعرّف به أثناء حياة المسيح على الأرض. فهو أول من اختير من الرسل (مر 3: 13) وقد تولى دور ممثلهم والناطق باسمهم. وقُدِّر لصلابته أن تجتاز امتحاناً صعباً خلال آلام المسيح حتى هانت وولّت بإنكاره الرهيب للسيد. ولكن بعدما أُنهِض ورُدَّت نفسه على يد المسيح (لو 22: 32؛ يو 21: 15 وما يلي)، صار في وسعه أن يثبت إخوته خير تثبيت (لو 22: 32). ومن هنا تولى بطرس زمام القيادة من جديد حالما صعد المسيح. ويظهر منه ذلك في اختيار متياس (أع 1: 15 وما يلي)، وكرازة يوم الخمسين (أع 2: 14 وما يلي)، وإجراء المعجزات (أع 3: 6)، والدفاع عن الكنيسة أمام المجلس (أع 4: 8 وما يلي)، والحكم المنطوق به على حنانيا وسفيرة (أع 5: 4 وما يلي)، والسفرة التفقّدية إلى السامرة (أع 8: 14)، والكرازة بالإنجيل للأمم (أع 10: 1 وما يلي)، والمجمع الذي عُقِد في أورشليم (أع 15: 7 وما يلي).

بهذه الوقائع يتذرّع الكاثوليك ليُثبتوا أن بطرس كانت له مكانة أسمى من سائر الرسل وأنه فيما بعد صار البابا الأول في روما. ولكن ذلك ليس له أيُّ أساس. صحيح أنه كان الأول والمتقدِّم بين أقرانه، غير أنه لم يكن ذا رتبة أو سلطة تفوقهم. فالأحد عشر الآخرون كانوا رسلاً، مثلهم مثله. وسلطة الكرازة والتعليم، وإجراء المعمودية والعشاء الرباني، وفتح ملكوت السماء وإقفاله، لم تُعطَ له وحده (مت 16: 19)، بل أُعطيت أيضاً لسائر الرسل.[1] وفي الواقع أن بطرس، بعد أعمال 15، ينسحب إلى المؤخرة بحيث لا نعرف عنه بعدُ إلا الأمور التالية: أنه كان في إنطاكية (غل 2: 11)، وفي بابل (1بط 5: 13)، وأنه فيما بعد مات في روما شهيداً (يو 21: 18، 19). وعلى ذلك يُفسح بطرس في المجال لبولس الذي – من جهة – يدعو نفسه أصغر الرسل (1كو 15: 9) ولكنه – من جهة أخرى – لا يريد أن يُحسب أقل شأناً منهم في الرتبة أو الوظيفة أو السلطة أو العمل،[2] حتى إنه يوبِّخ بطرس في إنطاكية (غل 2: 11).

ونقرأ في (متى 16: 18) أن الرب يسوع، بعد اعتراف بطرس بمسيانيَّته على نحوٍ واضح وصريح وجريء، خاطبه قائلاً: أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي. وإذ يقول الرب هذا لا يقصد شخص بطرس، ولا حتى الاعتراف الذي نطق به لتوِّه بمعزلٍ عن شخصه، بل يقصد بالأحرى بطرس المعترف (بطرس معترفاً بالمسيح، وعلى نحوٍ أكثر تحديداً: بطرس معترفاً بالمسيح باسم الرسل جميعاً). ولم يكن بطرس وحده من اعترف هذا الاعتراف، بل شاركه فيه أيضاً جميع الرسل، بحيث إن الكنيسة لم تُبنَ على بطرس وحده بل على الرسل جميعاً (أف 2: 20؛ رؤ 21: 14). فجماعة الرسل هي الأساس الذي بُنيت الكنيسة عليه، ولا شركة مع المسيح إلا من خلال الشركة معهم ومع كلامهم (يو 17: 20؛ 1يو 1: 3).

هؤلاء الرسل صاروا على رأس الكنيسة في أورشليم بعد صعود المسيح حالاً، وقد شكّلوا ما يمكن أن يُسمّى مجلساً كنسياً، إذا جاز التعبير. فقد كانت السلطة بأيديهم، وهم تسلّموها لا من الكنيسة بل من المسيح نفسه. ولكنا كانت سلطة قُصِد بها – على حدّ تعبير بطرس بالذات عنها فيما بعد – رعاية رعيّة الله والمناظرة عليها، لا كرهاً بل طوعاً، ولا طمعاً بالربح القبيح بل بنشاط، ولا كسادة على ما يخص الله، بل كأمثلة للرعية (1بط 5: 2 – 3). فمع أن جماعة الرسل تولّت قيادة الكنيسة، فهي لم تكن في الوقت عينه مرتّبة إلا لخدمة الكنيسة وخيرها. ذلك أن الرسل جعلوا لأجل منفعة الكنيسة (أف 4: 11، 12). ونرى هذا بوضوح في الكنيسة بأورشليم. فقد مارس الرسل القيادة في جماعات المؤمنين (أع 1: 15)، وبشّروا وعمّدوا (أع 2: 38)، وحافظوا على نقاوة الحقّ والمواظبة على كسر الخبز والشركة والصلوات (أع 2: 42). وأجروا آيات وعجائب (أع 2: 43)، وتولّوا توزيع التقدمات على الفقراء من الإخوة والأخوات (أع 4: 37؛ 5: 2). وفي بادئ الأمر لم يكن في الكنيسة وظيفةٌ أخرى غير وظيفة الرسل. فقد قاموا بكلِّ ما يقوم به الآن المعلمون والرعاة، والشيوخ والشمامسة.

ولكن لم يكن ممكناً لهذا الوضع أن يستمر طويلاً. فلما انتشرت الكنيسة، ولاسيما لما نشأ مزيدٌ من الكنائس خارج نطاق أورشليم، في اليهودية والسامرة والجليل، ثم أيضاً في العالم الأممي فيما بعد، أصبح من اللازم توفير المشورة والمعونة. وقد حدث ذلك بطريقتين: لجميع الكنائس باعتبارها وحدةً واحدة، ولكل كنيسة بمفردها.

[1]- مت 18: 18؛ 28: 19؛ يو 20: 23.
[2]- 1كو 15: 10؛ 2كو 11: 23 وما يلي؛ 12: 11.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إن الكنائس المتعددة التي نشأت وانتشرت خارج أورشليم في مدن وقرى أخرى، لم تكن تابعة للكنيسة في أورشليم، بل باتت صارت إلى جانبها على نحوٍ مستقلّ. ومن الجائز أن نسمّي الكنيسة في أورشليم "الكنيسة الأم" ما دمنا نعني بهذا أنها أول كنيسة، وأن الكنائس الأخرى وُجِدَت يتجه عملها التبشيري. ولكن هذه التسمية تعتبر خاطئة إذا قصدنا بها أن الكنائس الأخرى كانت لها علاقة التبعية بالنسبة إلى الكنيسة في أورشليم. وبهذا المعنى ليس هنالك، ولا يمكن أن يكون، ما يُسمّى كنيسةً أماً، لأن كل كنيسة، حتى الصغرى والأقل شأناً، تدين بفضل مصدرها ووجودها فقط للمسيح وروحه مباشرة، وإن كانت واسطة ذلك هي خدمة التبشير التي تقوم بها كنيسةٌ أكبر. وعليه، فكل كنيسة هي كنيسةٌ للمسيح، وليست فرعاً أو جزءاً من كنيسة أخرى، سواء كانت هذه في أورشليم أو روما أو أي مكانٍ آخر. على أنه، وإن كانت الكنائس التي نشأت بالتدريج في فلسطين وخارج البلد تعتبر "كنائس أخوات" لا "كنائس بنات" للكنيسة التي في أورشليم، فقد بقيت جميعاً – بغير استثناء وبالمعنى نفسه – معتمدةً على سلطان الرسل وخاضعةً له.

فقد كان الرسل أكثر من مجرّد مجلس كنسي محلي، إذ قاموا بدور مجلس عام للكنيسة المسيحية كلها حيثما وُجِدَت. ولذلك فحالما قبلت السامرة كلمة الله، بعث الرسل إليها بطرس ويوحنا ليصليا لأجل المؤمنين هناك ويضعا الأيدي عليهم لقبول عطيّة الروح القدس، ويكرزا من ثم بالكلمة بينهم (أع **8**: **13** – **25**). وفيما بعد جال بطرس على جميع الكنائس في اليهودية والسامرة والجليل، لكي يقويهم ويعزز الشركة المتبادلة بين الجميع (أع **9**: **31**، **32**). وهكذا كان أن الكنائس لم تُقِم الواحدة إلى جانب الأخرى على تباعد، وأنها لم تكن متروكة على هواها لتمضي كلّ في حال سبيلها، بل بالأحرى ظلّت قائمة على أساس الرسل ومركزهم.

ولكن هذا الواقع أدى إلى وضع جعل العمل يتراكم على الرسل. فبات ضرورياً توزيع العمل وزيادة الفعلة. أما توزيع العمل فقد حصل في مجمع أورشليم لما أجمع الرأي بعد التشاور على توجُّه الرسل إلى اليهود في أورشليم وانطلاق بولس إلى الأمم (غل **2**: **6** – **9**). ومن الطبيعي أن توزيع العمل على هذا النحو لم يكن المقصود منه التقسيم الصارم بحيث أن بولس لا يستطيع بعد ذلك البتة أن يتوجه بالخطاب إلى اليهود، والرسل في أورشليم لا يمكنهم البتة أن يعملوا بين الأمم فيما بعد. فقد ظلّ بولس معنياً في الدرجة الأولى ببني قومه وجنسه الذين أحبهم محبة شديدة، كما أن بطرس ويوحنا ويعقوب نشطوا أيضاً بين المسيحيين الراجعين من الأمم، على حدّ ما تبيّن الرسائل التي كتبها هؤلاء الرسل. غير أن توزيع العمل هذا أرسى حدوداً عامة، ترك لكلا الطرفين بعض الراحة والحرية في العمل.

وعلينا أن نضيف أيضاً إلى هذه النقطة نقطةً ثانية، مؤداها أن الرسل اتخذوا لهم معاونين، أي أشخاصاً ساعدوهم في مختلف نشاطاتهم. هؤلاء المعاونون كانوا أناساً مثل برنابا (أع **13**: **2**) ومرقس ولوقا (أع **12**: **25**؛ **13**: **5**؛ فل **24**) وتيموثاوس (رو **16**: **21**؛ 1تس **3**: **2**) وتيطس (2كو **8**: **23**) وسيلا (أع **15**: **40**).[1] وأحياناً دُعي هؤلاء مبشرين كفيلبس (أع **5**: **8**، **40**؛ **21**: **8**؛ أف **4**: **11**؛ 2تي **4**: **5**). وإلى هذا تلقّى الرسل مساعدة من الأنبياء – وهم أشخاص وهبهم الله موهبة خاصة ولم تُسنَد إليهم وظيفةٌ محددة. هكذا كان أغابوس (أع **11**: **28**؛ **21**: **10**) وبنات فيلبس (أع **21**: **9**). وهؤلاء أيضاً ساهموا في تنوير الكنيسة وبنيانها في الحق.[2]

هذه الوظائف كلُّها – أي وظائف الرسل والأنبياء والمبشرين – قد تلاشت ما دام أصحابها قد ماتوا ولم يخلفهم سواهم بطبيعة الحال. وقد كانت هذه الوظائف ضرورية في ذلك الزمن غير العادي الذي تخلله تأسيس الكنيسة على الأرض. غير أن عمل أصحاب هذه الوظائف لم يكن باطلاً في الرب. فإنهم، أولاً، بنوا الكنيسة فعلاً على أساس يسوع المسيح (1كو **3**: **11**). وثانياً، ما تزال شهادتهم حيّة في أسفار العهد الجديد، في الأناجيل والرسائل، في سفر الأعمال وسفر الرؤيا، ما تزال حيّة في الكنيسة كلها فعلاً حتى اليوم. وبفضل هذه الشهادة ما برحت الكنيسة قادرة في كل زمان على المواظبة على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات (أع **2**: **42**). فإن كلام الرسل، وقد قيل شفهياً أولاً ومن ثم جرى تدوينه كتابة، يؤيد ويضمن وحدة الكنيسة، ليس فقط إذ تنتشر في جميع أنحاء العالم، بل أيضاً إذ تمتدّ عبر العصور.

---

[1]- قارن رو 16: 9؛ في 2: 25؛ 4: 3؛ كو 4: 10، 11.
[2]- 1كو 12: 28؛ 14: 4؛ أف 4: 11.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وكما أن الرسل في قيامهم بعمل تدبير الكنيسة ككل وجدوا العون في وظيفتي الأنبياء والمبشرين الفائقتين للعادة، فكذلك تماماً كان لهم في خدمة الشيوخ والشمامسة عونٌ على الاعتناء بكل كنيسة محلية. وينبغي لنا أن نذكر أن الرسل أنفسهم كانوا في بادئ الأمر هم موزّعي تقدمات الرحمة (أع 4: 37؛ 5: 2). ولكن لما صارت الكنيسة أكبر بصورة واضحة، لم يعد في وسعهم أن يقوموا بهذا العمل وحدهم. فبمناسبة خلاف نشب في الكنيسة حول الخدمة اليومية، أشار الرسل باختيار سبعة رجال مملوئين من الإيمان والروح القدس، للقيام بخدمة الموائد (أع 6: 1 – 6). وطالما دار كثير من الجدل حول هذا العمل: هل تأسيس لوظيفة الشماس أولاً؟ إنما ليس بمستبعد أن تكون وظيفة هؤلاء السبعة، كما عيّنها لهم الرسل في أعمال 6، قد اشتملت في الأصل على عمل وخدمة أكثر مما اشتملت عليه وظيفة الشمامسة اللاحقة. على أننا نقرأ صراحة أن الرسل احتفظوا لأنفسهم بخدمة الكلمة والصلاة (أع 6: 4) وأن السبعة كُلِّفوا إذ ذاك لخدمة الموائد، أي تنظيم كل ما يتعلق بالولائم أو الواجبات المشتركة – وكانت ممارسة عشاء الرب تحصل في ختامها عادةً – وكل ما يتعلق بالتوزيع على الفقراء مما تم التبرع به من قبل المؤمنين للخدمة المشتركة في الولائم، ومما بقي بعدها من طعام وشراب مال.

وقد أُسِّست وظيفة الشماس في كنائس أخرى أيضاً. فنقرأ عن شمامسة في فيلبي (في 1: 1) وفي أفسس.[1] وفي (1تي 3: 8 وما يلي)، يلخّص بولس المؤهلات الواجب توفرها في الشماس. وهذا الأمر قام بمثله الرسل في أورشليم أيضاً. فقد أشاروا على الكنيسة باختيار سبعة رجال، وبيَّنوا القدرات المطلوبة وطبيعة الوظيفة ومهامها. وعلى هذا الأساس اختارتهم الكنيسة. ولكن الرسل هم الذين عهدوا إليهم بالعمل واضعين الأيدي عليهم.

وإلى جانب الشمامسة، يشغل الشيوخ مكانتهم. ولا يُقال لنا شيء عن أصل هذه الوظيفة. ولكن عندما نتذكر أنه كان بين اليهود حكمٌ للشيوخ بصورة عامة، سواءٌ في الحياة المدنية أو في المجامع، فليس مما يدعو إلى الدهشة في واقع الحال أن يتم اختيار بعض المتقدمين من أفراد الكنيسة لتولّي مسؤولية المناظرة والتأديب. وهكذا نقرأ عن هؤلاء في (أعمال الرسل 11: 30)، وكإشارة عابرة، أنهم تسلَّموا من برنابا وشاول للإخوة المقيمين في اليهودية؛ ونجدهم في (أع 15: 2 وما يلي) مشاركين في المجمع الذي عُقِد لتنظيم شؤون العمل التبشيري بين اليهود والأمم.

وسرعان ما أُدخلت وظيفة الشيوخ هذه على كنائس أخرى. فقد دبّر بولس وبرنابا اختيار شيوخٍ في كلّ كنيسة أسساها في أثناء جولاتهما التبشيرية (أع 14: 23؛ قارن 21: 18). ونجد شيوخاً في أفسس (أع 20: 28) وفيلبي (في 1: 1)، حيث يُدعون قسوساً أو أساقفة. وربما كان مشاراً إليهم في 1كورنثوس 12: 28 بالتعبير "تدابير"، كما نلتقيهم في أفسس 4: 11 كرعاةٍ ومعلمين.[2] وفي (1تيموثاوس 3: 1 وما يلي)، و(تيطس 1: 6 – 9)، يبيّن بولس مؤهلاتهم، كما يوصي تيطس في الرسالة إليه (1: 5) أن يقيم في كل كنيسة شيوخاً. وكانت المهمة الموكولة إلى هؤلاء الشيوخ هي مناظرة الكنيسة،[3] وقد عُرِفوا – حتى في العصر الرسولي – بأنهم المدبّرون والعاملون أيضاً في خدمة الكلمة وتعليم الحقّ. وربما كان ديوتريفس، المذكور عنه في 3 يوحنا 9 أنه يحبّ أن يكون الأول في الكنيسة وقد أساء استخدام وظيفته، وكذلك أيضاً ملائكة الكنائس السبع (رؤ 2: 1 – 8)، هم جميعاً معلِّمين أيضاً من الذين يتبعون في خدمة الكلمة، على خلاف رفقائهم الشيوخ الآخرين، وهكذا شغلوا مكانة مهمة وفريدة.

هكذا كانت هيئة التدبير البسيطة التي نظمها الرسل لإدارة الكنيسة. فالوظائف التي رتبوها كانت قليلة جداً، بل إنها في الواقع لم تتعدّ وظيفتين: وظيفة الشيخ، ووظيفة الشماس؛ وإن كانت الأولى يمكن أن تُقسم أيضاً إلى شيخٍ معلم وشيخٍ مدبِّر. تلك هي الوظائف التي عيّنها الرسل ونظموها بالفعل: فقد حدّدوا واجباتها ومؤهلاتها، ولكنهم تشاوروا مع الكنيسة لأجل اختيار شاغليها، وحالما تم اختيارهم هكذا، كان الرسل يعلنون حقهم في مباشرة خدمتهم بواسطة وضع الأيادي. ولم يكن في الكنيسة ما يمكن أن يسمى سلطة سيادية. لأن المسيح وحده هو رأس

[1]- 1تي 3: 8؛ قارن رو 12: 8؛ 1كو 12: 28.
[2]- 1تس 5: 12؛ 1كو 16: 15، 16؛ رو 12: 8؛ عب 13: 7؛ 1بط 5: 1؛ يع 5: 14 – 16؛ 1تي 4: 14؛ 5: 17 – 22؛ تي 1: 5 – 9.
[3]- أع 21: 28؛ أف 4: 11؛ 1بط 5: 2.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الكنيسة (أف 1: 22) والمعلم والسيد (مت 23: 8 – 10) والرب،[1] فلا يمكن أن تقوم في الكنيسة عامة أية سلطة فردية إلى جانب سلطة المسيح أو مقابلها، بل فقط تلك السلطة التي ينتدبها والتي تظلّ داخل حدودها التي رسمها لها.

ذلك كان صحيحاً بالنسبة إلى الوظائف الفائقة للرسل والمبشرين والأنبياء في تلك الفترة الأولى، إذ رُتِّبت في تلك الفترة السابقة لتأسيس الكنيسة في العالم. وقد تلقى هؤلاء وظيفتهم وسلطتهم من المسيح وليس من الكنيسة، وإن كان عليهم أن يستخدموا تلك السلطة التي أُعطيت لهم في خدمة الكنيسة (مت 20: 25 – 27؛ 1بط 5: 3). وهذا الأمر عينه ينطبق، وبمعنى أقوى أيضاً، على الوظائف التي ما تزال قائمة في الكنيسة. فإن الرعاة والمعلمين، والشيوخ والشمامسة، يدينون أيضاً بالفضل في وظائفهم وسلطانهم للمسيح الذي رتَّب هذه الوظائف والذي يغذيها باستمرار، فيهيّئ الأشخاص ويزودهم بالمواهب ويحمل الكنيسة على تعيينهم (1كو 12: 28؛ أف 4: 11). ولكن هذه الموهبة وهذه السلطة قد أُعطيت لهم لكي يستخدموها لخير الكنيسة ويعملوا بها في سبيل بنيان القديسين (أف 4: 12). وقد رُتِّبت الوظيفة لكي يُتاح للكنيسة أن تواظب على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات (أع 2: 42).

ولكن مجمل هذا الترتيب أو التدبير، كما كان على بساطته وجماله، سرعان ما لحقه التشويه والتشويش بعد العصر الرسولي. وأول ما يطالعنا هنا هو وظيفة الأسقف (في النظام الأسقفي). وفي العهد الجديد، وفي بعض الكتابات العائدة إلى العصر اللاحق للرسل أيضاً، كانت الكلمتان "شيخ" (أو قسيس) و"أسقف" (أو ناظر) ما تزالان تستخدمان للدلالة على شخصٍ واحدٍ بعينه. فإن مهمة المناظرة، أي الإشراف والتأديب، كانت هي المسؤولية الموكولة إلى الشيخ المعيَّن (أو الشيوخ).[2]

ولكن في أوائل القرن الثاني كان قد جرى في بعض الكنائس تمييز بين الأمرين: فالناظر أو الأسقف ارتفع منصبه فوق الشيوخ والشمامسة من حيث الرتبة، واعتبر صاحب منصب خاص – باعتباره خليفة الرسل والمحافظ على نقاوة التعليم وحجر الزاوية في الكنيسة. وقد كان هذا بالطبع مدخلاً إلى سبيل الترتيب الكنسي، كما أدى – من جهة – إلى حرمان الشيوخ والشمامسة كل امتيازاتهم والنزول بالمؤمنين إلى مستوى العلمانيين غير الناضجين وحسب، ومن جهة ثانية أدى إلى رفع رتبة الأساقفة والكهنة عالياً فوق الكنيسة، ومن ضمن هؤلاء أن تولي أسقف روما منصب رئيس الكهنة كلها. وباعتباره خليفة لبطرس افتُرِض أنه حامل مفاتيح الملكوت ونائب المسيح على الأرض في السيادة، كما أنه، باعتباره البابا، أُضيفت عليه في مسائل الإيمان والحياة سلطةٌ إلهية معصومة.

لقد لقي قيام حكم الكهنة في كنيسة المسيح عند كل خطوة خطاها للتقدم الرفض والاعتراض، ولكن في زمن الإصلاح فقط بلغ هذا النزاع من الشدة ما جعل العالم المسيحي ينشقّ إلى قسمين كبيرين. ومن ثم وقع بعض هؤلاء، مثل الذين يشددون على ضرورة تكرار المعمودية (ولو كان الإنسان قد اعتمد باسم الثالوث الأقدس سابقاً)، في تطرُّف آخر إذ رأوا أن كل وظيفة أو سلطة أو نفوذ هي على نقيض كنيسة المسيح. وكسر آخرون الطوق الذي كان يربطهم بالبابا في روما، لكنهم حافظوا على مقام الأسقفية، ومن هؤلاء الكنيسة الأنجليكانية في إنكلترا. واستردّ اللوثريون وظيفة الوعظ، إلا أنهم جعلوا تدبير شؤون الكنيسة والاعتناء بالفقراء كلياً في يد السلطة المدنية. وهكذا تواجدت آراء شتى فيما يتعلق بإدارة الكنيسة، بعضها إزاء بعض. وما زال حتى اليوم اختلاف في الرأي بين مختلف الطوائف المسيحية حول إدارة الكنيسة لا يقلّ عن الاختلاف حول قانون إيمان الكنيسة.

وإلى كالفن يعود الفضل في استعادة وظيفتي الشيخ والشماس، فضلاً عن وظيفة الواعظ، في حين شنّ حربه على الترتيبات الكهنوتية في الكنيسة الكاثوليكية. وعلى يده استعادت الكنيسة ما فقدته واسترجعت وظيفتها المستقلة. فقد جاهد جهاداً مريراً دام سنين في سبيل استقلال الكنيسة، وممارستها للتأديب دون قيود، وحفاظها على الطهارة في خدمة الكلمة والعشاء الرباني. ذلك أن كالفن، عند تفكيره في الكنيسة، لم يفكر بالدرجة الأولى في وظائف تلك الكنيسة، ولا في الكنيسة كمؤسسة، بل رأى فيها قبل كل شيء باعتباره جماعة أو شركة من المؤمنين الذين عليهم،

[1]- يو 13: 13؛ 1كو 8: 6؛ في 2: 11.
[2]- أع 20: 17؛ قارن أع 20: 28؛ تي 1: 5، 7؛ 1بط 5: 1، 2.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

باعترافهم وسلوكهم، أن يثبتوا أنهم شعب الله وقد مسحهم المسيح شخصياً ليكونوا أنبياء وكهنة وملوكاً. فالكنيسة في آن واحد أم المؤمنين وشركتهم. إنها شيء يختلف ويزيد عن جمهورٍ يجتمع في مكانٍ واحد يوم الأحد لسماع الوعظ؛ إذ إنها جماعة متحدة أو شركة مجتمعة تجعل تأثيرها في الداخل والخارج معاً ملموساً خلال أيام الأسبوع كلّها. وليست وظيفة الوعظ إلا واحدة من الوظائف الكنسية: فإلى جانبها وظيفة الشيخ التي لها عملها الخاص في افتقاد البيوت والإشراف والتأديب؛ وهنالك أيضاً وظيفة الشماس القائمة على إبداء الرحمة تجاه الفقراء والمرضى؛ وهنالك أخيراً وظيفة المعلم، ومهمته أن يفصل الحق ويعلّم به ويحامي عنه.

وفيما تشكّل كل كنيسة وحدةً مستقلة، وتدين للمسيح وحده بالفضل في مواهبها وسلطانها ووظائفها وخدماتها، ترتبط أيضاً ارتباطاً وثيقاً بجميع الكنائس التي تقوم معها على الأساس الواحد بعينه. هكذا كانت الحال في العصر الرسولي. فكل كنيسة مهما كانت صغيرة أو حقيرة، كانت كنيسة للمسيح، جسداً له وهيكلاً؛ ولكن كل كنيسة كانت أيضاً منذ البداية داخلة ضمن نطاق الوحدة الروحية مع جميع الكنائس الأخرى – دون أن يكون لها هي خيار أو قرار في ذلك. فقد تكوّنت من جميع الكنائس معاً كنيسة واحدة (مت 16: 18)، وكانت جميع الكنائس خاضعة لسلطان الرسل الذين وضعوا بكلامهم الأساس للكنيسة بكاملها (أف 2: 20). وجميع الكنائس واحدة في الحياة والاعتراف، ولها جميعاً معمودية واحدة، وإيمان واحد، وروح واحد، وربّ واحد، وإله وآب واحد فوق الجميع وفي الجميع (أف 4: 3 – 6). وقد حافظت الكنائس على الشركة بعضها مع بعض، كما يظهر في جولات بعض الأفراد على غير واحدة منها (كأكيلا وبريسكلا مثلاً)،[1] وفي التحيات المتبادلة،[2] وفي خدمة بعضها لبعض بتقدمات المحبة.[3] كذلك تناقلت الكنائس رسائل كتبها الرسل إليها (كو 4: 16)، ولجأ المؤمنون إلى سابقة التشاور في القضايا المختلف عليها توصلاً إلى قرارات مشتركة (أع 15).

من بين كل أشكال النظام الكنسي، فإن النظام المشيخي كما استعاده كالفن هو الأكثر مطابقة لترتيب العصر الرسولي.

إن جميع الخدمات والوظائف التي عينها المسيح لكنيسته تتركز في الكلمة المقدسة. فهو لم يعطِ تلاميذه أي سلطان عالمي (مت 20: 25 – 27) ولا أية سيادة كهنوتية (1بط 5: 3)، لأنهم جميعاً أشخاص روحيون (1كو 2: 10 – 16) وقد مسحهم الروح القدس (1يو 2: 20) وهم يشكّلون معاً كهنوتاً ملوكياً (1بط 2: 9). وللمواهب والوظائف غاية واحدة فقط، ألا وهي أن يخدم الحاصلون عليها الآخرين بها في المحبة (رو 13: 18؛ غل 5: 13). أما أسلحة محاربة المؤمنين فروحية بطبيعتها (2كو 10: 4)، وهي تتألف من منطقة الحقّ، ودرع البرّ، وترس الإيمان، وخوذة الخلاص، وسيف الروح (أف 6: 14 – 17).

ولهذا السبب فكلمة الله أيضاً هي السمة الوحيدة التي بها يمكن أن تُعرَف كنيسة المسيح في حقها وطهارتها. فبالكلمة وُلد جميع أعضاء الكنيسة الحقيقيين وجيء بهم إلى الإيمان والتوبة، وطُهِّروا وقُدِّسوا، وجُمِعوا ووُطِّدوا؛ وهم بدورهم مدعوون إلى حفظ تلك الكلمة (يو 8: 31؛ 14: 23) ودرسها (يو 5: 39) وامتحان الأرواح بواسطتها (1يو 4: 1) والإعراض عن الذين لا يعلّمون بها.[4] فكلمة الله هي بالحقيقة – على حدّ تعبير كالفن – روح الكنيسة.

وكلمة الله هذه لم تُعطَ حصراً للكنيسة كمؤسسة، ولا لأصحاب الوظائف فيها، بل لجميع المؤمنين (يو 5: 39؛ أع 17: 11) حتى بالصبر والتعزية بما في الكتب يكون لهم رجاء (رو 15: 4) ولكي يعلّم بعضهم بعضاً ويحرِّض أحدهم الآخر بالتبادل.[5] وبعدما كانت الكنيسة الكاثوليكية قد سحبت الكتاب المقدس من أيدي العامة، عاد الإصلاح فوضع الكتاب في أيدي الجميع، وبهذا مهَّد سبيل الإفادة من هذا المصدر الفريد للتعليم والتوجيه أمام الأسرة والمدرسة، والعلم والفن، والمجتمع والدولة، وأمام كل مؤمن فرد. وإلى ذلك، دبّر الله خدمة الكلمة بصورة

[1]- أع 18: 2، 18؛ رو 16: 3؛ 2تي 4: 19.
[2]- رو 16: 16؛ 1كو 16: 20؛ 2كو 13: 12؛ ومواضع أخرى.
[3]- أع 11: 29؛ 1كو 16: 1؛ 2كو 8: 1؛ 9: 1؛ غل 2: 10.
[4]- غل 1: 8؛ تي 3: 10؛ 2يو 9.
[5]- رو 12: 7، 8؛ كو 3: 16؛ عب 10: 24، 25.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

رسمية. فهو أعطى وما زال يعطي الكنيسة رعاةً ومعلمين[1] مهمتهم خدمة الكلمة علناً وفي البيوت (أع 20: 20)، يقدمونها لبناً لغير البالغين وطعاماً قوياً للبالغين في الكنيسة؛[2] وعليهم أن يقوموا بذلك وفقاً لمقتضى الحاجات لدى كل شعب وفي كلّ زمان، وعند كل كنيسة وكل مؤمن بمفرده.[3] وبعبارة أخرى، إن خدمة الكلمة تتضمن حفظها وترجمتها وتفسيرها ونشرها وحمايتها وإذاعتها على جميع الناس؛ وهكذا تظل الكنيسة مبنية على أساس الرسل والأنبياء (أف 2: 20)، كما أنها عامود الحقّ وقاعدته، وهكذا ينبغي أن تكون (1تي 3: 15).

وقد كان للكلمة تثبيتها في الممارسات الكنسية التي هي علامات وختوم لعهد النعمة والتي تعمل بالتالي على تقوية الإيمان. أما في العهد القديم فقد استخدم الله لهذا الغرض الختان (تك 17: 7) والفصح (خر 12: 7 وما يلي). وكان لكلتا هاتين العلامتين دلالة روحية بعيدة، إذ كان الختان ختماً لبرّ الإيمان (رو 4: 11) ولختان القلب (تث 30: 6؛ رو 2: 28، 29). كذلك يرمز الفصح، بما فيه من ذبيحة خطية ووليمة تذكارية، إلى المسيح (يو 1: 29، 36؛ 19: 33، 36). وعليه فإن الختان والفصح تمّ رمزاهما في آلام المسيح وموته (كو2: 11؛ 1كو 5: 7)، وقد حلّ محلهما بالتالي في العهد الجديد المعمودية (مت 28: 19) والعشاء الرباني (مت 26: 17). هاتان العلامتان هما الممارستان المعروفتان عالمياً باسم "الأسرار المقدسة" أُضيفت إليهما خمسة أسرار أخرى (الاعتراف، التوبة، الزواج، التثبيت، المسحة الأخيرة) وطقوس لا تكاد تحصى، وذلك بغير مسوّغ من الكتاب المقدس. ويجب ألا تُعتبر الممارستان المذكورتان أنهما تحتويان على نعمة الله في ذاتهما مكانياً ومادياً، بل إنهما بالأحرى تذكّران وتؤكدان النعمة التي يعطيها الله بالروح القدس لقلوب مؤمنيه. فهذان "السران المقدسان" ينطويان على كامل عهد النعمة بكل خيراته، إذ إن المسيح نفسه هو محتواهما، وبالتالي لا يمكن أن ينقلا هذه الخيرات إلا بطريق الإيمان. وتبعاً لذلك فقد رُسمت هاتان الممارستان للمؤمنين، وهما تؤكدان لهؤلاء المؤمنين نصيبهم في المسيح. إنهما لا تتقدمان الكلمة المقدسة بل تتبعانها؛ فهما لا تحويان القدرة على منح نعمة خاصة لا يمكن إعطاؤها من خلال الكلمة أو قبولها بالإيمان، بل إنهما بالأحرى مؤسستان على إقامة عهد النعمة من جانب الله وتثبيت ذلك العهد من جانب الإنسان.

وبالتحديد فإن المعمودية علامة وختم لبركة الغفران (أع 2: 38؛ 22: 16) والتجديد (تي 3: 5) ودمج المؤمن في شركة المسيح وكنيسته (رو 6: 4). ولذلك لا تجرى المعمودية فقط للبالغين الذين تمّ اكتسابهم للمسيح بالعمل التبشيري بل أيضاً لأولاد المؤمنين، لأنهم مشمولون مع آبائهم بعهد النعمة،[4] وتابعون للكنيسة (1كو 7: 14) وقد أُدخلوا في الشركة مع الرب.[5] وعندما يكبر الأولاد، يقبلون ذلك العهد شخصياً بالاعتراف العلني، وإذ يبلغون سنّ الإدراك ويستطيعون أن يميزوا جسد الرب ودمه (1كو 11: 28)، عندئذ يُدعون إلى الاشتراك مع الكنيسة كلها في المواظبة على الإخبار بموت الرب إلى أن يجيء، وهكذا يتقوون في الشركة مع المسيح. فمع أن المعمودية والعشاء الرباني ينطويان على عهد النعمة، ومع أنهما كليهما يؤكدان بركة غفران الخطايا، فإن العشاء الرباني يختلف عن المعمودية من حيث كونه علامةً وختماً ليس للاتحاد في الشركة مع المسيح وجميع أعضاء جسده بل للترقية والتقوية في تلك الشركة (1كو 10: 16، 17).

وإلى خدمة الكلمة والأسرار يجب أن تضاف أخيراً ممارسة التأديب وأعمال الرحمة. أما التأديب، ويدعى أيضاً في بعض الأحيان سلطة المفاتيح التي أُعطيت أولاً لبطرس (مت 18: 18؛ يو 20: 20) ومن ثم للكنيسة كلها كمنظمة رسمية،[6] فقوامه حقيقة كون الكنيسة بلسان المسؤولين فيها تقول – باسم الرب – للصدّيق إنه سيكون له خيرٌ، وللأشرار إنهم سيجنون ثمر أفعالهم (إش 3: 10، 11). هذا الأمر تقوم به الكنيسة عموماً وعلناً في خدمة الكلمة عند كلّ اجتماع يعقده المؤمنون، كما تقوم به خصوصاً وشخصياً في افتقاد البيوت دورياً. وقد حلّ هذا،

[1]- 1كو 12: 28؛ أف 4: 11؛ 1تي 5: 17؛ 2تي 2: 2.
[2]- 1كو 3: 2؛ عب 5: 12؛ 1بط 2: 2.
[3]- أع 20: 20، 27؛ 2تي 2: 15؛ 4: 2.
[4]- تك 17: 7؛ مت 18: 2، 3؛ 19: 14؛ 21: 16؛ أع 2: 39.
[5]- أف 6: 1؛ كو 3: 20.
[6]- مت 18: 17؛ 1كو 5: 4؛ 2تس 3: 14.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في الكنائس المصلحة، محل الاعتراف عند الكاثوليك، وهو مؤسَّس على المثال الرسولي.[1] أخيراً تمارس الكنيسة أيضاً مثل هذا التأديب في الإنذارات الخصوصية الموجهة إلى مصلِّي رقابهم في الإمعان بالخطية، وفي الفرز من الشركة.[2]

ولكن بينما تهتم الكنيسة على هذا النحو بالممارسات الكنسية باسم المسيح وتُقصي المخطئين من شركتها، تُشفق أيضاً بعطف عظيم على جميع المرضى والفقراء، وتقدم لهم ما يحتاجون إليه لسدّ فاقتهم الروحية والمادية. هذا الأمر فعله المسيح بالذات (مت 11: 5)، وأوصى رسله أيضاً به.[3] ويطلب إلى أفراد الكنيسة أن يساهموا في سدّ احتياجات القديسين (رو 12: 13) موزّعين بسخاء وراحمين بسرور (رو 12: 8) مفتقدين الأرامل واليتامى في ضيقتهم (يع 1: 27)، رافعين الصلوات لأجل المرضى، وذلك باسم الرب (يع 5: 14)، وحاملين على العموم بعضهم أثقال بعض، متممين بهذا ناموس المسيح (رو 12: 15؛ غل 6: 2).

فالإيمان والمحبة هما قوة كنيسة الرب، يُضاف إليهم الرجاء. وفي وسط عالمٍ لا يدري أين يمضي وهو يتردّى في مهاوي الفساد لافتقاره إلى العزاء والرجاء، تبثّ الكنيسة رجاءها السعيد: إننا لنؤمن بمغفرة الخطايا، وبقيامة الجسد، وبالحياة الأبدية!

[1]- مت 10: 12؛ يو 21: 15 – 17؛ أع 20: 20؛ عب 13: 17.
[2]- مت 18: 15 – 17؛ رو 1: 16، 17؛ 1كو 5: 2؛ 5: 9 – 13؛ 2كو 2: 5 – 10؛ 2تس 3: 6؛ تي 3: 10؛ 2يو 10؛ رؤ 2: 2.
[3]- مت 5: 42 – 45؛ 6: 1 – 4؛ 25: 34 وما يلي؛ مر 14: 7؛ ومواضع أخرى.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل السادس

الحياة الأبدية

إن غاية جميع الأشياء ومقصدها، شأنهما شأن بداءتها ووجودها، يكتنفهما ضباب لا يستطيع عقل الإنسان أن يخترقه. وكلُّ من يحاول النفاذ إلى هذين السرّين بالتماس النور من العلم، لابد له – عاجلاً أو آجلاً – من الوصول إلى اعتراف أحد علماء العصر الحديث إذ قال: "ما هي غاية التاريخ وما هو مقصده؟ هذا أمر لا أعلمه أنا ولا أحد يعلمه".

ومع ذلك ما تزال تجري مغامرات جديدة للوصول إلى جواب لهذا السؤال المحيِّر، أو محاولة لإزالته واستئصاله من قلب الإنسان. فليس منذ عهدٍ بعيد وقف كثير من العلماء هذا الموقف. إذ كانت المادية هي الزّي الشائع وأعلنت جهاراً أن الموت هو نهاية كل شيء وأن الإيمان بالخلود ضربٌ من السخف. وقد صرّح أحد دعاة المادية علناً بأن الوجود ما وراء القبر هو آخر عدو ينبغي أن يحاربه العلم ويدحره إن أمكن. ومن ثم اعتبر هذا العالم المرئي والمحسوس أنه العالم الوحيد الموجود فعلاً، وما من أحد يستطيع أن يتحدث عن أصل لهذا العالم ولا عن نهاية له، لأنه يهيم في متاهات أزلية. وقد كانت النتيجة العملية لهذا الاعتقاد السطحي والمزعج أنه لا جدوى من كل جهدٍ لاعتبار الأبدية ودعا الإنسان إلى التمتع بهذه الحياة الحسية بكل معانيها: لنأكل ونشرب لأننا غداً نموت!

وما زال كثيرون اليوم يفكرون ويتصرفون على هذا النحو، ولكن حدث رغم ذلك تغيير في الاتجاه. فعند النظر عن كثب في الأسئلة المتعلقة بالأبدية، لم تَبدُ هذه الأسئلة سخيفة وعميقة، ولا ظهر أن الإجابة عليها سهلة جداً كما كان يُظَنّ أولاً. فإن دراسة الأديان عند جميع الشعوب أبرزت إلى النور حقيقة كون الإيمان بالخلود مشتركاً لدى جميع البشر وموجوداً حتى عند أكثر القبائل البدائية وغير المتحضرة. وقد شهد منذ سنين عالِم هولندي، حاز شهرةً واسعة في حقل المعرفة هذا، أننا نجد الإحساس بالخلود في كلِّ مكان، وبين جميع الشعوب، وعلى كلِّ مستوى من مستويات التطور الحضاري، إلا أن بعض الأفكار الفلسفية قد بلّدت ذلك الإحساس، أو بعض العوامل الأخرى قد طمسته. وقال ذلك العالم أيضاً إن هذا الإحساس بالخلود مرتبط بالدين في كل مكان. وبالحقيقة أن جميع الشعوب والقبائل تتصرف على أساس اعتقادها أن الإنسان خالدٌ بطبيعته، وأنه لا يعوزنا إثبات الخلود بل علة تفسير الموت. ففي كلّ مكان يسود الشعور بأن الموت هو أمر غير طبيعي. وحسب معتقدات كثير من الشعوب، يُعتبر الموت عملاً من أعمال أرواح معادية للبشر. بكلمة أخرى، يعتقد هؤلاء أنه كان زمن لم يكن فيه للموت وجود وأن البشر تمتعوا حيناً بحياةٍ لم يعكرها شيء ولم يقطع استمرارها شيء.

أما فيما يتعلق بحالة النفوس بعد الموت فإن العالم الوثني يطالعنا بأفكار شتى. فبعض الشعوب تعتقد أن النفوس تبقى مع الأجساد في القبور، وأنها تستمر في شركتها مع الأحياء، وتمارس بعض التأثير عليهم، حتى إنها قد تظهر لهم. ويرى آخرون أن جميع النفوس بعد الموت تتجمع في عالم الموتى الكبير حيث تحيا في وجود شبحيٍّ باهت، أو تستغرق كلياً في حالة اللاوعي والسبات. كذلك تنتشر أيضاً على نطاق واسع الفكرة القائلة بأن النفوس، بعد خلعها الجسد البشري، تدخل للحال في جسدٍ آخر، وتبعاً لما كانت قد فعلته ولكيفية حياتها على الأرض تتخذ جسد شجرة، أو حيوانٍ ما، أو إنسان، أو مخلوق أسمى. أخيراً، تُعبِّر فكرة الخلود أيضاً عن ذاتها في الغالب بالمفهوم القائل بأن الأبرار والأشرار يواجهون بعد الموت مصيرين مختلفين ويستمر وجودهم في مكانين متغايرين. وبمقدار ما تختلف الأفكار في حالة النفوس ومقامها بعد الموت، تختلف أيضاً الطقوس التي تُمارَس عند دفن الموتى، أو إحراق جثثهم، وكذلك الخدمات التي تؤدّى للراحلين. وفي بعض الأحيان تتخذ ديانة الشعوب الوثنية عملياً صورة عبادة الأجداد. وغالباً ما تكون وجهة النظر الوثنية مقصورة على حالة النفوس بعد الموت؛ ولكن يحدث أيضاً في بعض الأحيان أن تكون الرؤية أوسع بحيث تقع الآخرة ضمن نطاقها. ومن ثم يظهر مراراً وتكراراً التوقّع بأن الأبرار سينتصرون يوماً على الأشرار وأن النور سيقهر الظلمة، والقوات السماوية ستدحر القوات التي على الأرض والتي تحت الأرض.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

جميع هذه التصورات الوثنية التي قللت المسيحية من شأنها أو أزالتها، عادت للظهور في الأزمنة الحديثة ولقيت لها عدداً من المناصرين. ولم يكن في وسع المادية بعد فترة قصيرة أن تُقنع غير قلة ضئيلة، حتى إن بعضهم جنحوا إلى النقيض المواجه. فالإنسان يبقى على حاله، وقلبه لا يتغير، فلا يستطيع أن يحيا بلا رجاء. والاعتقاد أن النفوس تبقى حية بعد الموت، وأنها تظهر وتتراءى للأحياء، وأنها عند الموت تتخذ جسداً آخر وتُرقّي ذاتها من خلاله، وذلك تبعاً لسلوكها على الأرض: هذا كله يُرحَّب به الآن في أوساط عديدة باعتباره حكمةً جديدة، بل الحكمة العليا. وفي الواقع أن أرواح الموتى، في بعض الحالات، عادت تُستحضر وتُعبد وتُتَّقى، وها هي عبادة الأرواح – أو الطريقة الأرواحيَّة – تعود لتحلَّ محل عبادة الإله الواحد الحقيقي.

ومن علامات هذا الزمان الحاضر على نحو خاص أن عبادة الأرواح هذه ترتبط بعقيدة التطور ارتباطاً وثيقاً. وقد يتصور المرء، بادئ بدء، أن ارتباطاً كهذا غريب. فكيف يُعقل أن يؤمن شخص يقبل تطور الإنسان من الحيوان بوجود للنفس بعد الموت؟ ولكن عند إعادة النظر يتبين أن الارتباط بسيط وطبيعي جداً. فإذا كان للحي أن ينشأ في الماضي مما هو ميت، وللنفس أن تنشأ من المادة، وللإنسان أن يتطور من الحيوان، فلماذا يكون مستحيلاً إذاً أن يُطوِّر الكائن البشري نفسه في المستقبل على نحوٍ أكثر تعقيداً وسمواً، لا على الأرض فقط، بل أيضاً في ما وراء القبر؟ وإذا كانت الحياة قد نشأت من الموت، فمن الممكن أن يؤدي الموت أيضاً إلى مستوى من الحياة أسمى. وإذا كان الحيوان قد صار إنساناً، فقد يكون في وسع الإنسان أيضاً أن يصير ملاكاً. هذه الفكرة بالذات من أفكار التطور بدا أنها جعلت كل شيء ممكناً وفسّرت كل شيء. ولكن ما إن أُنشئ هذا البيت الكرتوني بدقة، وعُلِّلت النفوس بهذا الأمل، حتى أخذ يتزعزع الأساس الذي بُني عليه.

وبالحقيقة أن أنصار نظريتي الفناء والتطور لا يريدون أن يسمعوا شيئاً عن تعليم الكتاب المقدس في موضوع الموت والقبر والدينونة والعقاب. فالموت برأيهم ليس هو عقوبة الخطيئة بل مجرد وسيلة انتقالية إلى حياة أسمى وأفضل. وليس في الموت من حكم إلا بهذا المعنى: أن على كل إنسان أن يتحمل عواقب إرادته وعمله. وهكذا لا يبقى مكانٌ للجحيم ما دام كل إنسان يُدخَل في عملية التطور وعليه بالتالي أن يُخرج منها عند النقطة المناسبة، عاجلاً أو آجلاً، وبعد فترة من الخطأ والضلال تطول أو تقصر. وعليه، فإذا سُئِل هؤلاء الأنصار عن إمكانية وجود ما يُدعى حياة أبدية ،حيث تعمّ الحياة سعادة ومجد لا ينتيهان، يلجأون حالاً إلى الصمت كأمر حتمي. فطالما شنّ هؤلاء حربهم على العقائد المسيحية المختصة بالموت والقبر والدينونة والعقاب، وطالما ابتهجوا بإبطال هذه العقائد على زعمهم، حتى فاتهم أن يطرحوا هذا السؤال: ألا يسقط أيضاً، بسقوط هذه العقائد، الرجاء بحياة أبدية وبسعادة لا تنتهي البتة؟ وحالما يؤتى بهذا السؤال، يتوضح أن الرجاء بحياة أبدية قد فقد بطريقة ما في حمّى المعركة. فبالسكين التي استُخدمت لاستئصال كل خوف من قلب الإنسان، استؤصل أيضاً كل رجاء.

والثابت أنه لو كان التطور هو الناموس الكلي الشمول للعالم والبشرية، حاضراً ومستقبلاً، لجُرِّد الرجاء بحياة أبدية من كل أساس متين. والفكرة القائلة بأن كل شيء في النهاية سوف يصل إلى غاية مرضية، هذه الفكرة بحد ذاتها، تبقى تخميناً بتخمين؛ وهي فكرة لا تلقى أي سند – لا في الكتاب المقدس ولا في الضمير، لا في الطبيعة ولا في التاريخ. ولكن لنفترض لحظة أن هذا التخمين كان صحيحاً، فعندئذٍ يكون لدينا وضعٌ لا يمكن أن يستمر على حاله البتة. ذلك أن ناموس الارتقاء الذي كان سارياً من قبل والذي أدى إلى هذا الوضع الجديد، لابد أن يظل سارياً حتى يجعل الكائن البشري يدخل حالةً مختلفة. فليس في أي مكان من نظرية التطور نقطة استراحة، ولا نهاية ولا غاية. أما السعادة التي ستأتي بها، حسب توقّع كثيرين من أنصارها، فهي دائماً في طور الصيرورة. وإذاً، فلا يمكن أن يكون ثمة شيء مما يدعى حياة أبدية سعيدة. ومن هنا أن بعضهم، وقد اقتنعوا بعدم وجود استقرار أو استراحة، عادوا فاستدعوا من جديد تلك العقيدة الوثنية القديمة القائلة بأنه سيكون لكل شيء تكراره الدائم أبداً، وهم الآن يقدمون هذه الفكرة باعتبارها الحلّ لمعضلة العالم. وإذا كان العالم الموجود الآن قد بلغ ذروة تطوره، فلابد أن ينهار أيضاً ليبدأ كل شيء من جديد. فبعد المدّ جزر، والجزر لابد أن يسبب المدّ من جديد. وبعد التطور يأتي التقهقر، الأمر الذي يؤدي إلى التطور من جديد. وهكذا دواليك دون توقف البتة. فليس ثمة ما يسمى أبدية، بل هنالك فقط الزمان. هناك فقط حركة، وليس من راحة. هناك فقط صيرورة، وليس من كينونة. هناك فقط المخلوق، وليس من خالقٍ كائن وكان ويكون.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هذا كلُّه يؤيد ما تقوله الكلمة المقدسة من أن الذين هم بلا مسيح، وأجنبيون عن رعوية الشعب القديم، وغرباء عن عهود الوعد الإلهي، ليس لهم رجاء وهم في العالم بلا إله (أف 2: 12). لهم أن يُخمنوا وأن يأملوا، هذا صحيح. وبالحقيقة أنهم لا يكفُّون عن التخمين والأمل، ولكن ليس لديهم أساس راسخ لآمالهم. فإنهم يفتقرون إلى يقينية الرجاء المسيحي.

ولكن ما إن نلتفت نحو الشعب القديم حتى يُفضي بنا السبيل إلى مفهوم مختلف جداً. فالعهد القديم لا يتكلم البتة عما يُسمى خلود النفس، ولا يقدم ولو بيّنة واحدة على هذا الأمر، إلا أنه يعزز فكراً في الحياة والموت لا يمكن العثور عليها في مكان آخر وتلقي على المستقبل ضوءاً مختلفاً جداً.

ولا تشير البتة إلى الموت باعتباره معادلاً للفناء أو عدم الوجود. فأن يموت الإنسان ويكون ميتاً هو أمرٌ يشير إليه الكتاب المقدس باعتباره نقيضاً للحياة الكاملة والغنية والتامة التي كانت في الأصل من نصيب الإنسان في حال الشركة مع الله هنا على الأرض. وعليه، فعندما يموت الإنسان لا يتأثر جسده فقط بل نفسُه أيضاً. فالإنسان بجملته يموت، ومن ثم يُوجَد في حال الموت جسداً ونفساً معاً؛ ولا يعود ينتمي إلى الأرض بل يصير من المقيمين في عالم الموتى (شيئول أو الهاوية)، وهو مكانٌ اعتقد الأقدمون أنه في أعماق الأرض، وتحت المياه وأسس الجبال.[1] صحيحٌ أن المتوفين ما يزال لهم وجودٌ ما هنالك، ولكن هذا الوجود لا يعود يستحق أن يسمى حياة، وهو أشبه بعدم الوجود.[2] إنهم ضعفاء وعاجزون (مز 88: 5؛ إش 14: 10)، ويسكنون في أرض السكوت،[3] وفي أرض الظلام (أي 10: 20، 21) والفساد (أي 26: 6؛ 28: 22). وكل ما يحملُ اسم الحياة ينقطع هناك؛ كما أن الله والناس لا يُرَون هناك بعد (إش 38: 11)؛ والرب لا يُسَبَّح ويُحمَد هناك بعد (مز 6: 5؛ 115: 17)، وليس هنالك من يُحدِّث بفضائله ويُعرِّف عجائبه (مز 88: 11 – 13). وليس للأموات معرفة، ولا حكمة ولا علم، وهم لا يعملون عملاً ما، وليس لهم نصيب في جميع ما يجري تحت الشمس.[4] والهاوية هي أرض النسيان (مز 88: 13). هكذا كان قديسو العهد القديم ينظرون إلى الموت: باعتباره طرحاً كلياً خارج دائرة الحياة والنور. وفي مقابل هذا كُلّه، اعتُبرت الحياة ملء السعادة والخلاص. فلم تكن الحياة تُفهَم بمعنىً فلسفي مُطلق كنوعٍ من أنواع الوجود المجرد. إذ اشتملت الحياة، من حيث طبيعتها بالذات، على ملء البركة، وذلك في الشركة مع الله قبل كلِّ شيء، ولكن بالتالي أيضاً في الشركة مع شعبه والتمتع بنصيبٍ في الأرض التي أعطاها الرب لشعبه. فالحياة إذ ذاك تتضمن وجود الإنسان الكامل والغني في وحدة نفسه وجسده، وفي اتحادٍ مع الله وانسجامٍ مع المحيط، كما تتضمن أيضاً البركة والمجد، الفضيلة والسعادة، السلام والفرح. ولو ظلَّ الإنسان مطيعاً لوصية الله، لكان قد ذاق هذه الحياة الغنية ولم يرَ الموت (تك 2: 17)، ولا حصل انقسامٌ بين جسده ونفسه، ولا انقطعت الصلة التي كانت تربطه بالله، وبالجنس البشري، وبالأرض. ولو كان ذلك كذلك، لظلَّ الإنسان حياً إلى الأبد، في الشركة الغنية التي وُضِع فيها منذ البدء؛ ولبقي خالداً كإنسان في وحدة كينونته وملئها.

وإذا كان الموت قد دخل العالم من جراء الخطية، فإن الله مع ذلك جدّد بالنعمة الشركة مع الإنسان وأقام عهده مع الشعب القديم. في ذلك العهد أُعيد تأسيس تلك الشركة التامة من حيث المبدأ. وقد اشتمل ذلك العهد، كما وُجد في العهد القديم، على الشركة مع الله، ولكن بالتالي أيضاً على الشركة مع شعبه وأرضه. أما الشركة مع الله فهي البركة الأولى والأهم من بركات العهد، ومن دونها لا يمكن التحدث عن الحياة فعلاً. وقد التزم الله عهده مع إبراهيم قائلاً: أكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك (تك 17: 7). ثم أُخرج بني إسرائيل من مصر، وفي سيناء دخل معهم في عهدٍ مُبرَم.[5]

ومن ثم لم يكن للشعب عموماً ولكلِّ واحدٍ منه بمفرده أي فرح إلا في الشركة مع الرب. أما الأشرار فلم يفهموا هذا، ونقضوا العهد، وطلبوا الحياة والسلام بطرقهم الخاصة. فقد تركوا ينبوع المياه الحية وحفروا لأنفسهم آباراً، آباراً مشققة لا تضبط ماءً (إر 2: 13). وأما

---

[1]- عد 16: 30؛ تث 32: 22؛ أي 26: 5؛ مز 63: 10.
[2]- أي 7: 21؛ 14: 10؛ مز 39: 13.
[3]- أي 3: 13، 18؛ مز 94: 17؛ 115: 17.
[4]- أي 14: 21؛ جا 9: 5، 6، 10.
[5]- خر 19: 5؛ 20: 2؛ حز 16: 8.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

القديسون فقد عرفوا الحياة الفاضلة وعبّروا عنها في صلواتهم وتسابيحهم. فالرب نصيب قسمتهم، وصخرتهم وحصنهم، وترسهم وملجأهم (مز 16: 5؛ 18: 2). ورحمته أفضل من الحياة (مز 63: 3). وهو خيرهم الأسمى الذي ليس سواه في السماء ولا على الأرض فيُرتجى (مز 73: 25). حتى لو تخلى عنهم الجميع، وطاردهم الأعداء وقهروهم، فإنهم يبتهجون بالرب ويفرحون بإله خلاصهم، ويطفرون فرحاً (حب 3: 18). وبهذه الشركة مع الله يمكّنوا من التغلب على كلِّ ما في الحياة الأرضية من شقاء، وأيضاً على رهبة الموت وخوف القبر وظلمة الهاوية. وربما أصاب الأشرار نجاحاً وقتياً، لكنهم في آخرتهم يهلكون (مز 73: 18 – 20). فطريق هؤلاء تؤدي بهم إلى الموت رأساً (أم 8: 36؛ 11: 19)، أما القديسون فمخافة الرب عندهم ينبوع حياة (أم 8: 35؛ 14: 27). وغالباً ما ينجّيهم الرب في هذه الحياة، إلا أن له أيضاً سلطاناً على عالم الموتى، فهو بروحه حاضر هناك أيضاً (مز 139: 7، 8). ولا يخفى عليه تعالى أيُّ شيء، ولو كان في قلوب بني البشر.[1] وهو يُميت ويحيي؛ وله القدرة على الهبوط إلى الهاوية والصعود منها أيضاً.[2] وقد أصعد أخنوخ وإيليا إليه دون أن يموتا (تك 5: 24؛ 2مل 2: 11)، وهو القادر أن يُحيي الموتى.[3] بل إنه قادر أن يبيد الموت ويدحره كلياً بإقامة الذين ماتوا.[4]

ولكن مؤمني العهد القديم عاشوا غالباً في جوٍّ فكريٍّ مختلف، وإن كان حقاً أنهم أدركوا – إلى مدى يطول أو يقصر – أن الشركة مع الرب لا يُمكن أن ينقضها، ولا أن يقطعها لو وقتياً، الموتُ والنزولُ إلى القبر والبقاء في حال الموت. قد اختلفوا عنّا كثيراً في التفكير بالنسبة إلى هذه الأمور. فعندما نفكر نحن في المستقبل، نفكر على أكثر تقدير في موتنا ورفع نفوسنا إلى السماء. ولكن شعب العهد القديم كانت لديهم عن الحياة فكرةٌ أغنى كثيراً مما لدينا. كان عندهم الوعي بالشركة مع الله مرتبطاً بالشركة مع شعبه وأرضه. والحياة الحقيقية الكاملة كانت الانتصار على كل انفصال، إذ تركزت في استعادة وتثبيت تلك الشركة الغنية التي كان فيها الإنسان عند خلقه أصلاً، وقد أبرم الله العهد لا مع شخص واحد، بل مع شعبه وأيضاً مع الأرض التي أعطاهم إياها ميراثاً. من ثم فأن الموت يُدحر كلياً، والحياة بكل ملئها تبرز إلى النور، عندما يأتي الرب نفسه ليسكن بين شعبه، ويطهرهم من كل إثم، وينصرهم على جميع الأعداء، ويُسكنهم آمنين في أرض ازدهار وسلام. ومن ثم كان نادراً، إلى حد ما، أن تشخص عين الإيمان عند قديسي العهد القديم إلى نهاية حياته الخاصة. فإن نظرة المؤمن كقاعدة عامة، اشتملت على ما هو أكثر: إذ شملت أيضاً مستقبل بلده وشعبه. فقد كان يشعر دائماً بأنه جزء من الكل، فردٌ من أفراد الأسرة والسلالة، والسبط والأمة، والأمة التي أبرم الله عهده معها، والتي لذلك لا يمكن أن يتخلى عنها أو يبيدها. وقد وجد مؤمن العهد القديم في مستقبل شعبه ضماناً لمستقبله هو: فإن خلوده وحياته الأبدية مضمونتان بنصيبه في مُلك الله. إلى لحيظة غضبه حياة في رضاه وإذا دام غضب الله يوماً، فإن حياة كاملة في رضاه ستعقب. وربما يوحي الحاضر أن الله قد نسي شعبه، وأن حقهم قد فات إلهم، ولكن الله سوف يعود بعد التأديب ويقيم عهداً جديداً لا يُنقَض البتة. فإن حنين قديسي الشعب القديم انصبّ على ذلك المستقبل المجيد بكل أشواق النفس، إذ كان لدى ذلك الشعب رجاء عظيم وقد كان الوعد بالمسيح الآتي هو جوهر توقعاتهم وآمالهم.

تلك التوقعات كان لها أرضية وأساس في العهد الذي أقامه الله مع شعبه. وقد نصّت شريعة ذلك العهد أن الشعب، إذا عصوا صوت الرب ومضوا يسلكون في طرقهم الخاصة، سيعاقبهم الرب عقاباً قاسياً ويرسل عليهم جميع أنواع الأوبئة. فبالذات، لأن الله اختار قديسي ذلك الشعب من بين جميع شعوب الأرض، لذلك يعاقبهم على جميع ذنوبهم (عا 3: 2). ولكن هذا التأديب سيكون وقتياً؛ فبعد اكتماله يعود الله فيتراءف على شعبه ويجعله يشترك في خلاصه.[5]

---

[1]- أي 26: 6؛ 38: 17؛ أم 15: 11.
[2]- تث 32: 39؛ 1صم 2: 6؛ 2مل 5: 7.
[3]- 1مل 17: 22؛ 2مل 4: 24؛ 13: 21.
[4]- أي 14: 13 – 15؛ 19: 25 – 27؛ هو 6: 2؛ 13: 14؛ إش 25: 8؛ 26: 19؛ حز 37: 11، 12؛ دا 12: 2.
[5]- لا 26: 24 وما يلي؛ تث 4: 29 وما يلي؛ 30: 1 – 10؛ 32: 15 – 43.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فإن الرب لا يمكن أن ينسى عهده (لا 26: 42). إنه يؤدب شعبه إلى حين، ويتركه لحيظة فقط.[1] وهو يحب شعبه محبة أبدية (مي 7: 19؛ إر 31: 3، 20)، وعهد سلامه لن يتزعزع (إش 54: 10). فهو في التزام تجاه اسمه، ومجده بين الأمم، أن يفدي شعبه عند انتهاء فترة العقاب وأن ينصره على جميع أعدائه.[2]

وعلى هذا، فإن "يوم الرب" آتٍ، وهو عظيم ورهيب،[3] وفيه سيرحم الله شعبه ويصب غضبه على أعدائه. والمملكة التي سيقيمها في ذلك الوقت لن تبرز إلى الوجود من طريق التطور التدريجي عبر سلطة الشعب الأدبية، بل بالأحرى ستأتي من فوق، من السماء، وتنزل إلى الأرض على يد مسيح الرب. والوعد بهذا المسيح يعود إلى أقدم الأزمنة في تاريخ العبرانيين والجنس البشري كلّه. ففي الفردوس أُعلن النزاع بين نسل المرأة ونسل الحية، وأُعطي الوعد بانتصار الأول على الثاني (تك 3: 15) وقد وُعِد إبراهيم بأنه فيه تتبارك جميع شعوب الأرض (تك 13: 3؛ 26: 4). ويهوذا ممدوح أكثر من إخوته لأن منه سيأتي شيلون (صاحب الأمر) الذي له ستخضع جميع الشعوب (تك 49: 10).

ولكن هذا الوعد يتخذ صورة مجسمة على نحوٍ خاص عندما تعين داود ملكاً على كل إسرائيل وقيل له إن بيته سيكون ثابتاً إلى الأبد (2صم 7: 16؛ 23: 5). ومن ثم تقدم النبوة هذا الوعد بتفصيل أكثر. فالرئيس الذي بواسطته سوف يوطِّد الله مملكته سيولد من بيت داود الملكي في بيت لحم (مي 5: 1، 2). ولسوف ينبت كقضيب من الجذع (إش 11: 1، 2)، وكغصنٍ من داود.[4] وسوف ينشأ في ظروف الفقر (إش 7: 14 – 17)، ويكون وديعاً ومتواضعاً، راكباً على جحش ابن آتان (زك 9: 9)، بصفته عبد الرب المتألم سوف يحمل آثام شعبه (إش 53). ولكن ابن داود، هذا المتواضع، هو في الوقت عينه ربّ داود (مز 110: 1؛ مت 22: 43)، والمسيح أو الممسوح، ملك إسرائيل الحقيقي، من يجمع إلى جانب جلاله الملوكي وظيفتي النبي والكاهن.[5] إنه الحاكم الذي ستُخضَع له جميع الشعوب (تك 49: 10؛ مز 2: 12)، ويدعى عمانوئيل، والرب برُّنا، عجيباً، مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام.[6]

والمملكة التي سيأتي المسيح ليؤسسها هي مملكة برّ وسلام، وسوف تجلب معها كنزاً من البركات الروحية والمادية. والمزامير والأنبياء زاخرة بمجد تلك المملكة المسيانية. فإن الرب، على يد مسيحه، يجعل شعبه يرجعون من السبي، ومع هذه العودة سيهبهم في الوقت عينه توبة القلب الحقيقية. صحيح أنهم لن يرجعوا جميعاً فيتحولوا إلى الرب، وسيهلك كثيرون منهم في الدينونة التي ستأتي على شعبه أيضاً.[7] إلا أن بقيّةً منهم ستُحفظ حسب اختيار النعمة.[8] هذه البقية تكون شعباً مقدَّساً للرب، وهو يكون أميناً نحوها إلى الأبد.[9] وسيقيم مع هذه البقية عهداً جديداً، جديداً، يغفر لهم خطاياهم، ويطهرهم من كل نجاستهم، ويعطيهم قلباً جديداً، ويكتب شريعته في قلوبهم، ويسكب روحه عليهم ويسكن فيما بينهم.[10]

ولسوف تصحب هذه المملكة جميع أنواع البركات، لا الروحية فقط بل المادية أيضاً. ولن تكون حرب فيما بعد، فالسيوف تُحوَّل سكك فلاحة، والرماح مناجل، ويجلس الجميع آمنين كلٌّ تحت كرمته وتينته. وتصير الأرض مخصبة ومنتجة على نحوٍ مذهل؛ وتُعطى الحيوانات طبعاً جديداً غير الذي كان لها من قبل؛ وتجدَّد السماوات والأرض؛ ولن يكون مرضٌ بعد، ولا حزنٌ ولا بكاء، ويُبتلع الموت في غمرة الغلبة. أما قديسو العهد القديم الذين ماتوا، فسيقامون من الموت ليشتركوا أيضاً في البركات (إش 26: 19؛ دا 12: 2)؛ والشعوب الوثنية أيضاً ستعترف في

---

[1]- إش 27: 7 وما يلي؛ 54: 7، 8؛ إر 30: 11.
[2]- تث 32: 27؛ إش 43: 25؛ 48: 9؛ حز 36: 22.
[3]- يؤ 2: 11، 31؛ مل 4: 5.
[4]- إش 4: 2؛ إر 23: 5، 6؛ 33: 14 – 17؛ زك 3: 8؛ 6: 12.
[5]- تث 18: 15؛ مز 110؛ إش 11: 2؛ 53: 1 وما يلي؛ زك 5: 1 وما يلي؛ مل 4: 5؛ إلخ...
[6]- إش 7: 14؛ 9: 5؛ إر 23: 6.
[7]- عا 9: 8 – 10؛ هو 2: 3؛ حز 20: 33 وما يلي.
[8]- إش 4: 3؛ 6: 13؛ إر 3: 14؛ صف 3: 20؛ زك 13: 8، 9.
[9]- هو 1: 10؛ 2: 15؛ إش 4: 3؛ 11: 9.
[10]- يؤ2: 28؛ إش 44: 21 وما يلي؛ 43: 25؛ إر 31: 31؛ حز 11: 19؛ 36: 25 وما يلي؛ ومواضع أخرى.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

النهاية أن الرب هو الله، وستفتخر به.[1] وشعب القديسين سيولّى السلطان على جميع ممالك الأرض (دا 7: 14، 27)، ويملك الملك الممسوح، الآتي من بيت داود، من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض.[2]

جميع هذه النبوءات الواردة في العهد القديم لقيت بداءات إتمامها لما ظهر المسيح في الجسد؛ إذ في شخصه ومن خلال عمله تأسس على الأرض ملكوت السماء ذاك الذي طال انتظاره عبر العصور. وبدمه ثبت العهد الجديد والأفضل الذي سوف يقيمه الله مع شعبه في الأيام الأخيرة. وفي يوم الخمسين أرسل روح النعمة والتضرعات ليسكن في الكنيسة ويرشدها إلى جميع الحقّ ويكملها إلى النهاية. إلا أن ما أجملته نبوة العهد القديم في صورة واحدة كبيرة، تفرّق فيما بعد إلى أجزاء شتى. فقد برز إلى الوجود شيء بعد الآخر من قبيل هذه النبوة. وهي لن تتحقق في لحظة واحدة أو يومٍ واحد، بل على مرّ الزمن وفي فترات متعاقبة تمت على أجزاء. وبمزيد من التحديد: يعلّمنا العهد الجديد أن مجيء المسيح الذي توقّعه الأنبياء ينبغي أن نضع فاصلاً بين مجيء أول ومجيء ثانٍ. فبحسب النبوة، ينبغي أن يأتي المسيح لغرض الفداء والدينونة – فداء شعبه ودينونة أعدائه. ولكن عند إتمام هذه النبوة يتبيّن واضحاً أن كلاًّ من هذين الغرضين يقتضي مجيئاً خاصاً من المسيح.

ومهما يكن، فإن المسيح، في أثناء إقامته بالجسد على الأرض، عبَّر مراراً وتكراراً عن حقيقة كونه قد جاء ليطلب ويخلِّص ما قد هلك (لو 19: 10)، وليخدم ويبذل نفسه فديةً عن كثيرين (مت 20: 28)، وليس ليدين العالم بل ليوفِّر له الخلاص.[3] ولكن المسيح، في الوقت عينه، يقول بوضوح وصراحة إنه من طريق النور الذي بنشره يأتي بدينونة وانقسام إلى العالم (يو 3: 19؛ 9: 39) وأنه سوف يعود يوماً ليدين الأحياء والأموات (يو 5: 22، 27 – 29). صحيح أنه ينبغي أن يصلب ويموت، ولكنه بعد ذلك سيقوم من الموت ثم يصعد راجعاً إلى السماء (مت 16: 21؛ يو 6: 62) لكي يأتي في ما بعد ثانيةً ليجمع أمامه كل الشعوب ويجازي كل واحدٍ حسب عمله.[4]

وهكذا يوجد اختلاف كبير بين هذين المجيئين للسيد. ففي المجيء الأول ظهر المسيح في ضعف الجسد، في صورة عبد، ليتألم ويموت عن خطايا شعبه (في 2: 6 – 8)؛ وفي المجيء الثاني سيُظهر ذاته للجميع في قوةٍ ومجد بصفته ملكاً خرج غالباً ولكي يغلب.[5] إلا أن مجيئيّ الرب هذين، هذين، مع ذلك، مترابطان على نحوٍ وثيق. فالأول ممهِّد للثاني، لأنه – بحسب مفهوم الكتاب المقدس وقانون ملكوت السماء الأساسي – لا يمكن لغير الآلام أن تؤدي إلى المجد، ولا لغير الصليب أن يُفضي إلى التاج، ولا لغير الاتضاع أن يؤدي إلى الارتفاع (لو 24: 26).

في المجيء الأول وضع المسيح الأساس، وفي الثاني سيتم بناء الله؛ فالأول هو بداية عمله وسيطاً، والثاني نهاية هذا العمل. فلأن المسيح مخلّص كامل لم يأتِ فقط بإمكانية الخلاص بل أيضاً بحقيقته الواقعية، فلا يمكن ولا يجوز أن يستريح قبل أن ينجز فداء خاصته بدمه، وتجديدهم بروحه، والإتيان بهم إلى حيث هو، ليكونوا هناك معاينين لمجده وشركاء فيه (يو 14: 3؛ 17: 24). ولابد أن يُعطي الحياة الأبدية للذين أعطاه الآب إياهم (يو 6: 39؛ 10: 28)، وأن يحضر كنيسته – وهي بلا دنس ولا غضن ولا شيء من مثل ذلك – إلى الآب (أف 5: 27)، وأن يسلّم المُلك له بعد إتمامه وإكماله كلياً (1كو 15: 23 – 28).

ولما كان كل من المجيء الأول والثاني مترابطين هذا الترابط الوثيق، ولأنه لا يمكن التفكير باحتمال وقوع الأول دون الثاني، فإن الكلمة المقدسة لا تشدّد كثيراً على طول الزمان الواجب أن ينقضي بين الاثنين، ولا على قصره. فالارتباط الوقتي هو في الكتاب المقدس أقل من الارتباط الماديّ كثيراً من حيث الأهمية. والزمن المعترض بين المجيئين غالباً ما يقدَّم بوصفه قصيراً جداً. فمؤمنو العهد الجديد يعيشون في أواخر الدهور (1كو 10: 11)، والأزمنة الأخيرة (1بط 1: 20)، والساعة الأخيرة (1يو 2: 18). وليس لهم إلا زمان يسير يتألمون فيه (1بط 1: 6؛ 5: 10)، لأن اليوم يقترب (عب 10: 25، 37). والمستقبل بات قريباً (يع 5: 8)، والوقت قريب (رؤ 1: 3؛ 22: 10)، والديّان واقفٌ عند الباب (يع 5:

---

[1]- إر 3: 17؛ 4: 2؛ 16: 19؛ حز 17: 24؛ وآيات أخر.
[2]- مز 2: 8؛ 22: 28؛ 72: 8 وما يلي.
[3]- يو 3: 17؛ 12: 47؛ 1يو 4: 14.
[4]- مت 16: 27؛ 24: 30؛ 25: 32؛ ومواضع أخرى.
[5]- مت 24: 30؛ رؤ 6: 2؛ 19: 11.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

9)، والمسيح آتٍ سريعاً (رؤ 3: 11؛ 22: 7، 20). ولم يعدَّه بولس أمراً بعيد الاحتمال أن يحيا هو ومعاصروه ليشهدوا رجوع المسيح (1تس 4: 15؛ 1كو 15: 51).

كلمة الله المقدسة في ذكر هذه الأشياء، لا تقدِّم لنا أية تعليمات محددة بخصوص هذه الفترة الفاصلة، إذ تقول لنا صراحةً في موضع آخر إن اليوم والساعة مخفيان عن البشر والملائكة، وإن الآب جعلهما في سلطانه (مت 24: 36؛ أع 1: 7). فكل محاولة حسابية لتحديد ساعة بدء الأمور الأخيرة إنما هي عقيمة وغير مجدية (أع 1: 7)، لأن يوم الرب سيأتي كلصّ في الليل، في ساعةٍ لا يعلمها البشر.[1] وفي الواقع أن ظهور المسيح لن يتم قبل إكمال البشارة بالملكوت في جميع المسكونة (مت 24: 14) حتى يكون ملكوت السماوات قد خمَّر الكل (مت 13: 33)، وظهور إنسان الخطية علناً (2تس 2: 2 وما يلي). فإن عند الرب معياراً آخر لقياس الوقت يختلف عما لدينا: لأن يوماً واحداً عنده كألف سنة، وألف سنة كيومٍ واحد. وتأنيه الذي يبدو كأنه إرجاء إنما هو تأن من رحمته، لأنه لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يُقبل الجميع إلى التوبة (2بط 3: 8، 9).

لكن ما تريد الكلمة المقدسة أن تعلِّمنا إياه بهذه الأقوال المتنوعة بخصوص الفترة الفاصلة بين مجيء المسيح الأول والثاني، فهو أن كلا المجيئين مرتبط بالآخر ارتباطاً وثيقاً. فالعمل الذي أعطاه الآب للمسيح هو عمل واحد؛ وهذا العمل يمتدّ عبر جميع العصور ويشتمل على تاريخ البشرية بكامله. فقد بُدئ به في الأزل، واستمر عبر الزمن؛ وسوف يكتمل أيضاً في الأبد. وما الفترة الوجيزة التي عاشها المسيح في الجسد على الأرض إلا جزء يسير جداً من الأجيال التي تعيِّن سيداً وملكاً عليها. وما أنجزه خلال تلك الفترة بآلامه وموته، طبقه عملياً في الكنيسة، بواسطة كلمته وروحه، منذ وقت صعوده، وسوف يتمّه في مجيئه الثاني. وبالحقيقة أنه صعد إلى السماء ليكون أقرب ما يكون إلى خاصته، ليكون على الدوام مرتبطاً بهم أوثق ارتباط، ولكي يقترب منهم أكثر فأكثر كل حين. حتى إن الزمن الذي ينصرم بين مجيئي المسيح الأول والثاني إنما هو في الواقع مجيء مستمر من قبل المسيح إلى العالم.

وكما أعلن عن مجيئه في الجسد بكل أنواع الإعلانات والأفعال، في أيام العهد القديم كذلك هو الآن عاكف على الإعداد لرجوعه كي يدين ويميز، دينونة وفصلاً يحدثهما بكلمته وروحه في عالم البشر. فإن مجيء المسيح الذي جُعِل مؤمنو العهد الجديد شهوداً له هو مجيء مستمر. ذلك أنهم يرون ابن الإنسان جالساً عن يمين الله القوي وآتياً على سحاب السماء (مت 26: 64). وهم يرون مجيئه في الكرازة بكلمته وفي عمل روحه (يو 14: 18 – 20؛ 16: 16، 19 وما يلي). فليس صحيحاً أن نقول إن المسيح جاء مرة واحدة إلى الأرض بل بالأحرى إنه يجيء باستمرار، بحيث إنه الآتي والذي سيأتي (عب 10: 37؛ رؤ 1: 4، 8).

لأجل هذه الأسباب يتطلّع مؤمنو العهد الجديد بشوقٍ عظيم إلى رجوع المسيح. مثل ما كان قديسو العهد القديم كذلك أولئك في العهد الجديد كلما فكروا وتكلموا عن نهايتهم الشخصية بالموت. إذ كانت جميع آمالهم موجهة نحو رجوع المسيح وتحقيق ملكوت الله. وقد كانوا مدركين جداً لحقيقة كونهم يحيون في يوم الإتمام، أي في ذلك اليوم الذي صوّرته نبوة العهد القديم بأنه يوم الرب العظيم الشهير، والذي يمتدّ من صعود المسيح إلى رجوعه. وما اقتراب ذلك اليوم، كما فكروا فيه، إلا تعبيرٌ آخر عن اليقينية المطلقة التي بها انتظروه. فإن إيمانهم القوي هو أساس رجائهم غير المتزعزع.

تحدّث المسيح، في أثناء إقامته مع تلاميذه، كثيراً عن الإيمان والمحبة وقليلاً عن الرجاء، لأن ما كان يهم آنذاك هو أن يتركز انتباههم على شخصه وعمله. لكنه تفوّه بوعود كثيرة تختص بقيامته وصعوده، وإرساله الروح القدس، ورجوعه في المجد. وبآلام المسيح وموته تعرّضت آمال التلاميذ للخيبة واليأس حيناً، لكنهم بقيامته ولدوا ثانيةً لرجاء حيّ (1بط 1: 3، 21). إذ ذاك صار المسيح نفسه هو رجاءهم، أي غرض كلِّ آمالهم ومحتواها (1تي 1: 1). فإنه عندما يعود يتمم جميع وعوده ويمنح المعترفين به حقاً الخلاص الكامل والحياة الأبدية. ولذلك يحيا المؤمنون به

[1]- مت 24: 42 – 44؛ 1تس 5: 2، 4؛ 2بط 3: 10؛ رؤ 3: 3؛ 16: 15.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

على الرجاء، وينتظرون دائماً الرجاء المبارك الممهِّد لظهور مجد الرب يسوع المسيح – إلهم ومخلّصهم العظيم (تي 2: 13). وهذا الرجاء تشترك فيه الخليقة التي تئن كلها؛ فإذ هي مُخضَعة للبُطل، تتوق أيضاً لأن تُحرَّر من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله (رو 8: 20، 21).

ولكن مع أن اهتمام مؤمني العهد الجديد منصبّ فعلاً على رجوع المسيح، يقدّم العهد الجديد بعض التفاصيل التي تُلقي ضوءاً ما على مكانة الموت في تقديرهم. وبحسب تعليم الكنيسة الكاثوليكية، أن قلّة من القديسين والشهداء – صورة نسبية – يستطيعون بأعمالهم الصالحة أن يحققوا على الأرض ما يوفر لهم عند الموت أن ينتقلوا مباشرةً إلى السماء. وتبعاً لهذا الرأي، فإن أغلبية المؤمنين الساحقة ينبغي أن يقضوا بعد الموت فترةً في المطهر، تقصر أو تطول، لكي يؤدوا هنالك العقوبات الزمنية التي استحقوها بخطاياهم والتي لم يستطيعوا إكمال تأديتها في أثناء حياتهم على الأرض.

وهكذا يصوِّر المطهر لا مكاناً للتوبة تعطى فيه فرصة الخلاص لغير المؤمنين والأثمة، لأن غير المؤمنين والأثمة يذهبون رأساً إلى الجحيم. وليس هو أيضاً مكاناً للتطهير أو التقديس، لأن المؤمنين الذين يذهبون إليه لا يستطيعون أن يحرزوا فضائل أو استحقاقات جديدة هنالك. بل إنه بالأحرى مكان عقابٍ فقط وليس إلا، فيه يخضع المؤمنون، المباركون من جهة والذين هم نفوس مسكينة من جهة أخرى، لعقاب النار المادية الذي يدوم إلى أن تستوفى عقوباتهم الزمنية. وإذاً، ففضلاً عن الكنيسة المجاهدة على الأرض، والكنيسة الظافرة في السماء توجد – بحسب رأي الكنيسة الكاثوليكية – كنيسة خاملة أو متألمة في المطهر. ويقولون بأن المرء يمكن أن يساعد الذين في المطهر بواسطة الصلوات والأعمال الصالحة والتقشف، وخصوصاً بإقامة الجنازات وتوزيع القربان. وما دام المقيمون في المطهر قد سبقوا المؤمنين وصاروا أقرب إلى الخلاص، فإنهم – مثلهم مثل الملائكة والقديسين الذين في السماء – ممّن يمكن توجيه الدعاء إليهم طلباً للمساعدة والمعونة.

ولأن كثيرين لم يفهموا هذه العقيدة الكاثوليكية حقّ الفهم، فغالباً ما عظّموا أمرها بإسراف واستغلوها لمناصرة استمرار التطهير للمؤمنين بعد الموت. فلم يقدر هؤلاء أن يقبلوا أن المؤمنين الذين ظلوا حتى ساعة موتهم غير كاملين ومعرَّضين لكل شرّ يحرَّرون عند موتهم حالاً من كلّ خطية ويصيرون أهلاً للسماء. وقد سلك آخرون سبيلاً أبعد من هذا أيضاً، إذ طبقوا فكرة التطور على الحياة الآخرة أيضاً، وهم يصوّرون المسألة على هذا النحو: أن جميع الناس دون استثناء، يستمرون في ما وراء القبر بالسير على الخط الذي بدأوه على الأرض، وربما كانوا قد بدأوا في حياة سابقة لحياتهم على الأرض. وعليه لا يكون الموت انقطاعاً لهذه الحياة وعقوبة على الخطية، بل مجرد الانتقال من أحد أنواع الوجود إلى نوعٍ آخر، كالذي يحصل مثلاً عند تحوّل اليرقة إلى فراشة. ويذهبون إلى أن هذا التطور سوف يستمر إلى أن يُوضَع كلُّ شيء في نصابه الصحيح أو يعود إلى اللا شيء.

غير أن كلمة الله المقدسة لا تعرف شيئاً من جميع هذه التعاليم العديمة الرجاء والعزاء. فهي تبيّن في كل موضع منها أن الأرض هي المكان الوحيد للتوبة والتطهير، ولا تذكر في أي موضع أي شيء عن أي تبشير بالإنجيل في ما وراء القبر، لا في (متى 12: 32)، ولا في (1بطرس 3: 18 – 22)، ولا في (1بطرس 4: 6). فالموت، بوصفه عقوبة الخطية، يمثل انقطاعاً كلياً للحياة على الأرض هنا؛ وعند الدينونة الأخيرة لا تولى الفترة الفاصلة أي اعتبار. فالدينونة معنيّة فقط بما حدث في الجسد، خيراً كان أو شرّاً (2كو 5: 10). ولكن الذين يؤمنون بالمسيح لا يعود الموت والدينونة كلاهما يشكّلان لهم أي خوف. لأنه بالشركة مع الله، بربنا يسوع المسيح، لا يعود الموت موتاً بعد. والعهد الذي يقيمه الله مع خاصته بالنعمة، يضمن الخلاص الكامل والحياة الأبدية. فالله ليس إله أموات، بل إله أحياء (مت 22: 32). وكل من آمن بالمسيح ولو مات فسيحيا؛ ومن كان حياً وآمن به فلن يموت إلى الأبد (يو 11: 25، 26)، ولن يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة (يو 5: 24).

ومن هنا أن المؤمنين يُؤخذون عند موتهم فوراً ليكونوا بأرواحهم مع المسيح في السماء. فلو كان التبرير والتقديس من عمل الإنسان، وقد أنجزهما بقوته هو أو بقوة نعمةٍ فائقة سُكِبَت فيه، لما كان ممكناً فهم هذا – أعني إمكانية إنجازه لهذا العمل خلال عمره القصير في هذه الحياة. ومن ثم ينبغي أن الذين يفكرون هكذا يشددون على فكرة وجود مطهرٍ واستمرارٍ للتطهير بعد هذه الحياة. غير أن المسيح قد أنجز كلَّ شيءٍ بخاصته. فهو لم يحمل عنهم عقوبة خطاياهم فقط، ولم يكسب لهم الغفران الكامل لها جميعاً وحسب، بل أتمّ أيضاً الناموس نيابةً عنهم وأنار لهم الحياة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والخلود. فمن يؤمن يُنقَذ حالاً من غضب الله ويصبح وارثاً للحياة الأبدية. في تلك اللحظة بالذات يصير أهلاً للسماء. وإذا تُـرِك على الأرض، فليس ذلك لأنه ينبغي له بعد أن يكمِّل نفسه ويكسب الحياة الأبدية بأعماله؛ بل بالأحرى لأجل الإخوة – لكي يسلكوا في أعمال صالحة أعدها الله (في 1: 24؛ أف 2: 10). حتى أن الآلام التي يجب أن يحتملها مثل هذا الشخص على الأرض غالباً، ليست عقاباً ولا قصاصاً، بل هي تأديب أبوي يؤول إلى البنيان (عب 12: 5 – 11). إنه إكمال لما نقص من شدائد المسيح في جسد المؤمن لأجل جسد المسيح الذي هو الكنيسة، لبنائها وترسيخها في الحقّ (كو 1: 24).

وإذاً، فعلى أساس عمل المسيح الكامل، تنفتح السماء للمؤمنين حالاً عند موتهم وليس عليهم أن يكابدوا بعد أية عقوبات في أي مطهر، لأن المسيح قد أكمل كلَّ شيء وأنجز العمل تماماً. وبحسب ما جاء في الخبر المذكور في (لوقا 16)، فإن لعازر المسكين حُمِل عند موته للحال إلى حضن إبراهيم على أيدي الملائكة، ليتمتع هناك بالغبطة الأبدية في الشركة مع إبراهيم. ولما مات المسيح على الصليب، استودع روح في يديّ الآب، ووعد قُبيل ذلك اللص بأنه في ذلك اليوم بالذات سيكون معه في الفردوس (لو 23: 43، 46). والشهيد المسيحي الأول، استفانوس، بينما كان يُرجَم صرخ إلى الرب يسوع وطلب إليه أن يقبل روحه (أع 7: 59). وبولس على يقين من أنه عندما يُحلُّ من الجسد سيكون مع المسيح ويقيم عند الربّ (2كو 5: 8؛ في 1: 23). وبحسب (رؤيا 6: 8؛ 7: 9؛ ومواضع أخرى) فإن أرواح الشهداء وجميع المخلَّصين في السماء حاضرة أمام عرش الله وأمام الحَمل، مكتسية ثياباً طويلة وبأيديها سعف النخل. فحقاً، طوبى للأموات الذين يموتون في الرب منذ الآن؛ إنهم يستريحون من أتعابهم، وأعمالهم تتبعهم (رؤ 14: 13؛ عب 4: 9)، وهم سيعيشون ويملكون مع المسيح عند رجوعه (رؤ 20: 4، 6).

ومع أن المؤمنين يصبحون عند موتهم في الحال شركاء في السعادة السماوية من حيث نفوسهم، فإن حالتهم ما تزال – بمعنى من المعاني – حالةً تمهيدية وغير مكتملة تماماً. فمع كل هذا، ما تزال أجسادهم راقدة في القبور وعرضةً للفساد هناك؛ إذ ما يزال الجسد والروح منفصلين بعضهما عن بعض ولا يتمتعان مُتّحدين بالسعادة الأبدية. وعليه، فبنظرة شاملة يجد المؤمنون أنفسهم في هذه الفترة المؤقتة ما يزالون في حالة الموت، كحالة يسوع – بعد موته وقبل قيامته، مع أن روحه أُخذَت إلى الفردوس. وتبعاً لهذا، فالمؤمنون الذين في هذه الحالة يُدعون الراقدين في المسيح أو الذين ماتوا فيه،[1] وموتُهم يُدعى رقاداً، أي نوماً (يو 11: 11؛ 1كو 11: 30) ومعاينة للفساد (أع 13: 36). وهذا كُلُّه يقدم البرهان على أن هذه الحالة ليست هي الحالة النهائية بعد. ولما كان المسيح هو المخلِّص إلى التمام، فهو لا يكتفي بفداء النفس، بل سيُجري أيضاً فداء الجسد. وعليه، فإن ملكوت الله يكتمل فقط عندما يكون المسيح قد أبطل كل رئاسة وسيادة وسلطان، وجعل جميع الأعداء تحت قدميه، غلب آخر عدوٍّ – أي الموت (1كو 1: 24 – 26).

فإن في السماء وهكذا على الأرض شوقاً وتوقاً إلى ذلك المستقبل المجيد الذي يتمُّ فيه القضاء المبرم وإحراز النصرة النهائية. فإن نفوس الشهداء في السماء تصرخ بصوتٍ عالٍ: حتى متى – أيها السيد القدوس والحق – لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض (رؤ 6: 10)؟ والروح والعروس على الأرض يقولان: تعال أيها الرب يسوع، نعم، تعال سريعاً (رؤ 22: 17)! وليس ذلك فقط، بل إن المسيح نفسه يُعدَّ لمجيئه الثاني، على الأرض وفي السماء معاً. ففي بيت أبيه يُعِدُّ مكاناً لخاصته، ومتى أعدّه يأتي ثانيةً ويأخذ خاصَّته إليه، حتى حيث يكون هو يكونون هم أيضاً (يو 14: 2، 3). وعلى الأرض يسود ملكاً، بنعمته في الكنيسة وبقوته في العالم، إلى أن يجمع مختاريه ويُخضِع جميع أعدائه (1كو 15: 25). إنه لا يستريح، بل يعمل في كلِّ حين؛ وهو إذ يعمل يعبِّر أيضاً عن حقيقة رجوعه قائلاً: ها أنا آتي سريعاً، وأجرتي معي، لأُجازي كل واحدٍ كما يكون عمله (رؤ 22: 12، 20).

وتاريخ العالم في الحقبة بين صعود المسيح ورجوعه هو مجيء متواصل للمسيح، جمعٌ تدريجي لكنيسته على الأرض، وإخضاع مستمرٌّ لأعدائه. ومع أننا في الغالب لا نرى هذا الأمر ولا نفهمه، فإن المسيح هو بالحقيقة ملك الدهور وسيّد الأزمنة: إنه الألف والياء، البداية والنهاية،

[1]- 1تس 4: 14، 16؛ 1كو 15: 18.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الأول والآخر (رؤ 22: 13). ولأن الآب قد أحبّ الابن، فقد خلق العالم فيه، واختار الكنيسة، ووهب لجميع الذين أعطاه إياهم أن ينظروا مجده ويكونوا معه (يو 17: 24).

إذاً فليس إتمام ملكوت الله نتيجةً لتطور الطبيعة على نحوٍ تدريجي ولا هو حصيلة للجهد البشري. فمع أن ملكوت السماوات يُشبه بزرة خردل وخميرة وحبة حنطة، إلا أنه ينمو دون علم البشر ومساهمتهم (مر4: 27). وربما كان لبولس أن يغرس ولأبلُّوس أن يسقي، ولكن الله وحده هو الذي يُنمي (1كو 3: 6). فلا يعترف الكتاب المقدس بطبيعة لها الاكتفاء الذاتي وإنسانٍ مستقلٍّ بذاته – إذ إن الله هو دائماً من يضبط نظام الكون ويصنع التاريخ. وعندما تقترب الآخرة، على الخصوص، سوف يتدخّل في التاريخ بطريقةٍ فائقة للعادة، وبظهور المسيح يوقف عجلة التاريخ وينقله من الزمن إلى الأبد. ولسوف تكون تلك حادثةً رهيبة عندما يظهر على سحاب السماء المسيح المُرسَل من قبل الآب (أع 3: 20؛ 1تي 6: 15). فكما صعد إلى السماء عند تركه للأرض، هكذا تماماً سيعود من السماء إلى الأرض (في 3: 20). وعند صعوده حجبته سحابةٌ عن أنظار تلاميذه وعلى سُحُب السماء المنتشرة تحته كمركبة نصر عظيمة سيعود إلى الأرض (مت 24: 30؛ رؤ 1: 7). وفي صورة عبدٍ ظهر على الأرض في مجيئه الأول، أما في المجيء الثاني فسيأتي بقوة عظيمة ومجدٍ فائق (مت 24: 30) بوصفه ملك الملوك وربّ الأرباب، راكباً على فرسٍ أبيض، وسيفٌ حادّ يخرج من فمه، تحفُّ به ملائكته وقديسوه.[1] ولسوف يُعلَن قدومه بصوت رئيس ملائكة وبوق ملائكة.[2]

ولكي يعطينا الكتاب المقدس انطباعاً عن الجلال والمجد اللذين بهما سيظهر المسيح، لابد أن يستخدم كلمات وصوراً نستطيع فهمها، الأمر الذي يفعله حقاً. وغالباً ما يون صعباً علينا أن نُجري تمييزاً بين الحقيقة بعينها والصورة التي تُعبِّر عنها. ولكن مما لاشك فيه أن المسيح آتٍ ثانيةً حتماً، المسيح نفسه الذي وُلد من مريم العذراء، والذي تألم في عهد بيلاطس البنطي، ومات ودُفن وقام وصعد إلى السماء؛ سيعود في مجدٍ ليدين الأحياء والأموات. فإن الذي نزل هو الذي صعد أيضاً فوق جميع السماوات، لكي يملأ الكلّ (أف 4: 10). والذي أخلى نفسُه واتضع هو نفسه الذي رفعه الله عالياً، وأعطاه اسماً يفوق كلَّ اسم، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ويعترف كلُّ لسان أن المسيح هو ربٌّ، لمجد الله الآب (في 2: 6 – 11). والذي قدّم مرةً نفسه ذبيحةً ليحمل خطايا كثيرين، سيظهر ثانية بلا خطية للخلاص للذين ينتظرونه (عب 9: 28). أجل، إن هذه الـ"ماران آثا" هي عزاء الكنيسة: فإن الذي أحب الكنيسة منذ الأزل، وأسلم نفسه للموت لأجلها، سيأتي حتماً ليأخذها إليه ويجعلها تشترك في مجده إلى الأبد. والشخص الواحد بعينه هو مخلِّص الكنيسة وقاضيها.

غير أن عزاء المؤمنين هذا يعدّله على نحوٍ لافت الألفيون أنصار العقيدة الألفية المتشددة. فهؤلاء يقسمون مجيء المسيح ثانيةً إلى رجوع أول ورجوع ثانٍ. في الرجوع الأول يُخضِع المسيح القوات المضادة للمسيحية، ويقيّد الشيطان، ويقيم المؤمنين الأموات، ويجمع الكنيسة – خصوصاً كنيسة إسرائيل التائب – ومن ثم يملك على الأمم في هذه الكنيسة وبها. وبعد أن تكون هذه المملكة قد دامت زماناً يطول أو يقصر، والشيطان قد حُلّ، يرجع المسيح أيضاً فيقيم جميع البشر من الموت، وينطق بحكم الدينونة عليهم، ويؤسس على الأرض الجديدة ملكوت الله المكمّل.

بهذا الفصل بين رجوعين في مجيء المسيح ثانيةً، تُرجأ آخرة التاريخ زمناً طويلاً. وعليه، فعندما يعود المسيح على سُحُب السماء، لا تكون آخرة الدهر قد حلّت بعد، بل تعمّ فقط فترة تمهيدية من السيادة والسلطان، والبركات الروحية والمادية: فترةٌ لا يكاد الألفيون المتشددون أنفسهم يستطيعون أن يكوّنوا عنها فكرة محددة، كما يختلفون كثيراً في ما بينهم أيضاً حول طول مدّتها.

والخطأ الأساسي في ابتعاد الألفيين المتشددين للحقّ على هذا النحو إنما يكمن في مفهومٍ خاطئ للعلاقة بين العهد القديم والعهد الجديد. فإن اختيار إبراهيم ونسله لم يكن هدفه جعل بني إسرائيل، في زمن ما من المستقبل، ولا في ملكوت السماء المكمَّل أيضاً، على رأس جميع الأمم، بل

[1]- مت 25: 31؛ 1تس 3: 13؛ رؤ 19: 14.
[2]- مت 24: 31؛ 1كو 15: 52؛ 1تس 4: 16.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بالأحرى مباركة جميع شعوب الأرض في ذاك الذي هو نسل إبراهيم الحقيقي.[1] إذ إن الشعب القديم اختبر لخير البشرية، وليس على حسابها. وعليه، فلما ظهر المسيح على الأرض، بدأت جميع مواعيد العهد القديم تتمُّ في كنيسته. وليست هذه المواعيد، طوال تدبير العهد الجديد، موضوعة جانباً في حالة ركودٍ بانتظار إتمامها، بل إنها تلقى إتمامها على الدوام منذ مجيء المسيح أول مرة حتى عودته. فالمسيح هو في شخصه النبي والكاهن والملك الحقيقي، وعبد الرب الحقيقي؛ ومن حيث ذبيحته الكفارية هو ذبيحة الخطية الحقيقية، والختان الحقيقي، والفصح الحقيقي.[2] ولكن ليس هذا كلَّ ما في الأمر، بل إن كنيسة المسيح هي أيضاً نسل إبراهيم الحقيقي. فإن جميع بركات إبراهيم ومواعيد العهد القديم تُضفى على الكنيسة في المسيح وتُحقق فيها عبر توالي الأجيال.[3]

ولكن كما أن حياة المسيح يمكن أن تُقسم إلى حالة اتضاع وحالة ارتفاع، فكذلك أيضاً كنيسته، وكل مؤمنٍ على الخصوص، لا يمكن أن يُدخل ملكوت المجد إلا بعد الاجتياز في مدرسة الآلام. فليس في المطهر كنيسة متألمة مستقلة – على ما يذهب إليه الكاثوليك – بل إن الكنيسة المتألمة هي عينها الكنيسة المجاهدة هنا على الأرض. والعهد الجديد لا يقدّم لكنيسة المسيح أي أمل بأنها ستتمتع بالسلطة والسيادة خلال التدبير الحالي. بل على العكس، فإن التلميذ ليس أفضل من معلّمه، ولا العبد أفضل من سيده؛ فإذا كانوا قد اضطهدوا المسيح، أفلا يضطهدون أتباعه (يو **15**: **19**، **20**)؟ وفي العالم سيكون لهم ضيق (يو **16**: **33**). ولن تكون لهم الحياة الأبدية إلا في الدهر الآتي (مر **10**: **30**)، لأنهم إن تألموا مع المسيح فسوف يُمجَّدون معه أيضاً (رو **8**: **17**). وفي الواقع أن العهد الجديد يعبّر أكثر من مرة عن فكرة أنه في أواخر الزمان يزداد الشرّ ويستفحل الضلال والارتداد.[4] فالذي يسبق يوم ظهور المسيح هو الارتداد العظيم، واستعلان إنسان الخطية – أي ضدّ المسيح (**2**تس **2**: **3** وما يلي). صحيحٌ أن أنبياء كذبةً وأضداداً للمسيح كثيرين سيمهّدون السبيل أمام ضدِّ المسيح هذا،[5] إلا أنه أخيراً سيظهر هو نفسُه، وسيركّز كل قوته وسلطانه في مملكة شاملة للعالم (الوحش الصاعد من البحر أو الهاوية) في (رؤ **11**: **7**؛ **13**: **1** – **10**)، وستؤيده الديانة الباطلة (الوحش الطالع من الأرض) في (رؤ **13**: **11** – **18**)، ويجعل مركزه في بابل (رؤ **17**: **18**)، ومن ثم يشنّ هجمته الأخيرة واليائسة على المسيح ومملكته.

إلا أن المسيح، بظهوره في المجد (رؤ **19**: **11** – **16**)، يُنهي مرةً وإلى الأبد سلطة الوحش الطالع من البحر وذاك الطالع من الأرض (رؤ **19**: **20**)، ويُخضِع الشيطان أيضاً. ولكن لهذه الحادثة الأخيرة مظهرين: فأولاً، يتم القبض على الشيطان وتقييده باعتباره مُغوي الشعوب المسيحية (رؤ **20**: **1** –**3**؛ قارن **12**: **7** – **11**) ومن ثم يُقيَّد باعتباره مُغوي الأمم الساكنين في أربع زوايا الأرض (رؤ **20**: **7** – **10**). أما في تلك الأثناء، فإن المؤمنين الذين ظلوا أُمناء لشهادة يسوع وكلمة الله، حتى الموت، سوف يعيشون ويملكون مع المسيح في السماء بوصفهم ملوكاً طوال تلك الفترة (وهي فترة معبَّر عنها رمزياً بألف سنة – رؤ **20**: **3**، **4**، **6**، **7**) والتي يكون الشيطان في أثنائها مطروداً من الأمم التي تنتشر فيها الكنيسة ومنهمكاً في تنظيم قوة جديدة ضدّ مملكة المسيح في وسط الشعوب الوثنية.[6] ثم إن القيامة الأولى هي هذا الإحياء والمُلك مع المسيح؛ أما الأموات الآخرون، الذين اتبعوا الوحش وصورته فلا يحيون ولا يملكون، على خلاف أهل القيامة الأولى الذين ليس لهم أن يخافوا الموت الثاني، أي عقاب الجحيم – فهم منذ الآن كهنة لله والمسيح (رؤ **20**: **6**)، وبعد القيامة الأخيرة ودينونة العالم يُصعَدون ليكونوا مواطنين في أورشليم الجديدة.

أما قيامة الأموات فتأتي في إثر ظهور المسيح. ومع أن قيامة الأموات هذه تُنسب عموماً إلى الله (**1**كو **6**: **14**؛ **2**كو **1**: **9**)، فهي بصورة محددة من عمل الابن الذي أعطاه الآب حياة في ذاته (يو **5**: **26**) والذي هو نفسه القيامة والحياة (يو **11**: **25**) والذي أُعطي السلطان على إقامة الموتى من القبور بصوت فمه (يو **5**: **28**، **29**). وهذا كلّه يعلّم بوضوح – هنا وفي مواضع أخرى أيضاً – أنه ستحدث قيامة لجميع البشر، الأشرار والأبرار على السواء.

---

[1]- غل 3: 16؛ تك 12: 3؛ غل 8: 14.
[2]- رو 3: 25؛ 1كو 2: 11؛ ومواضع أخرى.
[3]- رو 9: 25، 26؛ 11: 7؛ 2كو 6: 16 – 18؛ غل 3: 14، 29؛ ومواضع أخرى.
[4]- مت 24: 37 وما يلي؛ لو 17: 26 وما يلي؛ 18: 8.
[5]- مت 7: 5؛ 25: 5، 24؛ 1يو 2: 22؛ 4: 3.
[6]- رؤ 20: 4؛ قارن 2: 26؛ 3: 21.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إلا أن بين القيامتين فرقاً شاسعاً. فإن قيامة الأشرار هي بيّنة على سلطان الرب يسوع المسيح وبرّه؛ أما قيامة الأبرار فهي تجلٍّ لرحمته ونعمته. تلك لا تتعدى إعادة الالتئام بين الروح والجسد وتحصل لأجل الدينونة (يو 5: 29)، وهذه قيامة تؤدي إلى الحياة، وهي إحياءٌ للإنسان بجملته وتجديد للروح والجسد في الشركة مع المسيح وبروحه.[1] ولا يُستنتج من هذا أن القيامتين تتفاوتان من حيث الزمان، أي أن قيامة الأبرار ستسبق قيامة الأشرار بزمن طويل أو قصير؛ بل يُستنتج فعلاً أن طبيعة إحداهما وخصائصها تختلف كثيراً عمّا للأخرى. إنما القيامة الأولى وحدها قيامةٌ مباركة، ولها في قيامة المسيح علتها ويقينيتها. فالمسيح هو الباكورة، البِكرُ من بين الأموات؛ ويأتي بعده الذين هم له، وذلك عند مجيئه (1كو 15: 20 – 23).

وفي تلك القيامة تُحفظ وحدة الشخص، روحاً وجسداً على السواء. أما كيف يمكن ذلك رغم كارثة الموت الرهيبة، فأمرٌ لا نعرفه. من هنا يرفض كثيرون قيامة الجسد ويرون أن النفس تتخذ بعد الموت جسداً آخر، سواءٌ كان بشرياً أو حيوانياً، مادياً ألطف أو أكثف. ولكن هؤلاء القوم، بفعلتهم هذه، ينسون أن المحافظة على وحدة النفس، وإن كان في نوع آخر، تعترضها في الأساس الصعوبات المهولة عينُها. ولذا، يعلِّم كثيرون بخلود النفس فقط بمعنى أن روح الإنسان تظلُّ حيّة، ولكن دون أية محافظة على وحدة إدراكه. غير أن هذا التعليم الخلود بجملته، لأنه إذا كان وعي الذات والذاكرة ينقطعان كلياً عند الموت، فإن الشخص الذي يظل حياً لا يعود هو نفسه ذلك الإنسان الذي سبق أن عاش على الأرض.

على أن وعي الكائن البشري الذاتي هذا يشتمل على امتلاك جسد فضلاً على نفس. فليس الجسد سجناً للروح، بل ينتمي إلى جوهر الإنسان. ولهذا فهو مفديٌّ أيضاً، شأنه شأن النفس، بالمسيح – المخلِّص الكامل. فإن الإنسان بكامله خُلق على صورة الله، والإنسان بكامله أصابه الفساد؛ ولذا فإن الإنسان بكامله افتدي من الخطية والموت بالمسيح، وأُعيد خلقُه حسب صورة الله، وأُدخل إلى ملكوته. غير أن الجسد الذي يناله المؤمنون عند القيامة يماثل الجسد الأرضي في الجوهر فقط، لا في الهيئة الخارجية ولا في الخصائص العارضة ولا في الكمية المادية. فهو ليس جسداً طبيعياً، لكنه جيدٌ حيٌّ وحقيقي. وهو أرفع من مستوى العلاقة الجسدية (مت 22: 30)، والحاجة إلى الطعام والشراب (1كو 6: 13). غير أنه فانٍ وغير فاسد وروحاني وممجَّد (1كو 15: 42 – 44)، وهو مشابهٌ في شكله لجسد المسيح كما كان بعد قيامته (في 3: 21).

وفي أعقاب القيامة تأتي الدينونة طبقاً لما أجراه الله منذ البدء في إقامة فاصل كبير بين نسل المرأة ونسل الحية (تك 3: 15). سرى هذا الفاصل وفي العهد القديم بين كلٍّ من شيث وقايين، وسام ويافث، وبني إسرائيل والأمم؛ وضمن الشعب القديم نفسه سرى الفاصل بين أولاد الموعد وأولاد الجسد.ولما جاء المسيح إلى الأرض ثبّت هذا الفاصل وتحدد، مع أن الغرض من مجيئه الأول لم يكن أن يدين العالم بل أن يوفّر له الخلاص (يو 3: 17). فبكلمته وشخصه أقام حداً وفاصلاً بين الناس (يو 3: 19 – 21). هذه الدينونة مستمرة حتى أيامنا، وتبلغ ذروتها في الدينونة الأخيرة. ففي الحقيقة أن هنالك دينونة تجري عبر تاريخ الشعوب والأجيال والأُسر والأشخاص. ولو كُشفت لنا سرائر قلب الإنسان، لكنّا نعلم المزيد عن هذا وزداد اقتناعاً راسخاً به، غير أن تاريخ البشر ليس هو الدينونة الأخيرة. ولذا يمضي كثير من الإثم بغير عقاب، وكثير من الصلاح بغير ثواب، ولا يمكن لضمائرنا أن تستريح على التدبير الحاضر من هذه الجهة. فإن رأس البشرية وقلبها، العقل والضمير، الفلسفة والدين، وتاريخ العالم بكامله، تستدعي جميعاً دينونة أخيرة، عادلة وحاسمة.

في اتجاه هذه الدينونة، بحسب شهادة الوحي، نحن سائرون. فقد وُضِع للناس أن يموتوا مرة، وبعد ذلك الدينونة (عب 9: 27). ومع أن الله وحده هو المشترع والديّان لجميع البشر،[2] فإن الدينونة الأخيرة – رغم ذلك – يجريها المسيح بصفة خاصة، لأن الآب أُوكل إليه ذلك لأنه ابن الإنسان.[3] ذلك أن دينونة الأحياء والأموات هي إتمام لعمله كوسيط، لكونه آخر خطوة في ارتفاعه. ولسوف يظهر من تلك الدينونة أنه قد أكمل كل ما أعطاه إياه الآب ليعمل، وأنه قد وضع جميع أعداءه تحت قدميه، وقد افتدى كل كنيسته إلى التمام وإلى الأبد.

---

[1]- يو 5: 29؛ رو 8: 8؛ في 3: 21.
[2]- تك 18: 25؛ مز 50: 6؛ إش 33: 22؛ يع 4: 12.
[3]- يو 5: 22؛ أع 10: 42؛ 17: 31؛ رو 14: 9.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ولكن عندما يجري المسيح الدينونة، نعلم أيضاً أية دينونة ستكون: إذ إنها تتصف بالرحمة والعطف، لكنها دينونة عادلة عدالة مطلقة في الوقت نفسه. فإنه يعلم طبيعة الإنسان وكل ما في داخله؛ يعلم سرائر القلب ويلاحظ كل شرّ وارتداد فيه؛ ولكنه يرى أيضاً أصغر بداءة للإيمان والمحبة تكون فيه. وهو لا يدين بحسب المظاهر، ولا يحابي الوجوه، بل يدين حسب الحق والبرّ. وباستعمال الناموس والإنجيل معياراً، سوف يدين أعمال الإنسان (مت 25: 35 وما يلي) وكلمات الإنسان (مت 16: 36) وأفكار الإنسان (رو 2: 16؛ 1كو 4: 5) لأنه لا يبقى أي شيء مخفياً ، وكل شيء سيظهر (مت 6: 4؛ 10: 26). فلجميع الذين يستطيعون أن يقولوا مع بطرس: "أنت تعلم كل شيء، أنت تعرف أني أحبك" ستكون هذه الدينونة مصدر عزاء. أما جميع الذين لم يريدوا أن يملك المسيح عليهم، فستكون لهم باعث خوفٍ ورعبٍ رهيب.

فإن هذه الدينونة تأتي معها بفصلٍ كاملٍ أبديٍ بين إنسان وإنسان. وكما وُجد في الشعب القديم من قالوا: "الرب لن يرى وإله يعقوب لن يلاحظ ذلك"، ومن زادوا قائلين: "كل من يفعل الشرّ فهو صالح في عينيّ الربّ، وهو يُسرّ بهم"؛ أو: "أين إله العدل؟" (مل 2: 17)، فهكذا يوجد اليوم أيضاً من يخدّرون أنفسهم بالقول بأنه لا دينونة أخيرة، وبأن إمكانية التوبة تبقى مفتوحة بعد هذه الحياة، وبعد إنهاء تاريخ العالم أيضاً، وهكذا يصير جميع البشر، وحتى الشياطين أيضاً، شركاء في الخلاص في نهاية المطاف، أو بأن الأشرار الذين يستمرون في تقسية أنفسهم بالخطية سيُلاشَون إلى الأبد.

على أن الضمير والكتاب المقدس كليهما على السواء لابد أن يتوليا دحض هذه الأوهام الباطلة. ففي ليلة الدينونة يكون رجلان نائمين في سرير واحد، فيؤخذ الواحد ويُترك الآخر؛ وامرأتان تطحنان على الرحى، فتؤخذ الواحدة "وتُترك" الأخرى؛ واثنان يعملان في الحقل، فيؤخذ الواحد ويُترك الآخر (لو 17: 34 – 36). أما الأبرار فيمضون إلى حياة أبدية، وأما الأشرار فإلى عذاب أبدي (مت 25: 46). فهنالك سماء مجد، لكن هنالك جهنم أو جحيماً، حيث الدود لا يموت والنار لا تطفأ (مر 9: 44)، وحيث البكاء وصرير الأسنان (مت 8: 12)، وحيث الظلام والفساد والموت إلى الأبد (مت 7: 13؛ 8: 12؛ رؤ 21: 8). إنه ذلك المكان الذي فيه يُعلَن غضب الله بكل هوله.[1]

ومع ذلك فإن العقاب الأبدي الذي سيكابده جميع الأشرار سيشهد فرقاً في الدرجة أو الحدّة والشدة. فالوثنيون الذين لم يعرفوا ناموس موسى لكنهم أخطأوا إلى الناموس الذي كان معروفاً عندهم بالطبيعة، سيهلكون أيضاً بغير ذلك الناموس (رو 2: 12). وستكون حالة سدوم وعمورة، وصور وصيداء، في يوم الدين أكثر احتمالاً من حالة كفرناحوم وأورشليم (مت 10: 15؛ 11: 22، 24). والذين عرفوا إرادة الرب ولم يعملوا بها سيُضربون ضرباً مضاعفاً (لو 12: 47). حتى في الأرواح الشريرة هنالك تمييز في الدرجة من حيث الشرّ (مت 12: 45). وعليه فإن كل واحد سينال جزاءه حسب عمله.[2] ولسوف تكون الدينونة عادلةً إلى التمام بحيث لن يقدر أحد أن ينتقدها من أية ناحية؛ بل سيضطر ضميره الخاص أن يقرّ بها كلها. وكما أن المسيح هنا على الأرض لا يحارب إلا بالأسلحة الروحية، فكذلك في يوم الدينونة سيبرر نفسه، بحكمه وكلمته، في ضمائر جميع البشر.

ونحن نعلم أن المسيح هو الأمين والصادق، وبالعدل يحكم ويحارب، والسيف الحاد الخارج من فمه هو سيف الكلمة (رؤ 19: 11، 15، 21). ولذلك ففي الزمان الأخير، سواء طوعاً أو كرهاً، سوف تجثو كل ركبة باسم يسوع ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو ربّ لمجد الله الآب (في 2: 11). وليس عقاب الأسرار في حدّ ذاته هو الغرض النهائي، بل إن هذا الغرض هو بالأحرى مجد الله الذي يُعلَن على جميع أعدائه في انتصار المسيح عليهم. فالخطاة سيُبادون من الأرض، والأشرار لا يكونون بعد... باركي يا نفسي الرب، هللويا (مز 104: 35)!

وبعد الدينونة الأخيرة وإهلاك الأشرار، يأتي تجديد الكون. وغالباً ما يتكلم الكتاب المقدس عن هذا الأمر بعبارات قوية جداً، فيقول لنا إن السماء والأرض ستزولان كالدخان، وكثوبٍ تبلى كلها، ومن ثم يخلق الله سماوات جديدة وأرض جديدة.[3] صحيح أن السماء والأرض

[1]- رو 2: 8؛ 9: 22؛ عب 10: 31؛ رؤ 6: 16، 17.
[2]- مت 16: 27؛ رو 2: 6؛ رؤ 22: 12.
[3]- مز 102: 27؛ إش 34: 4؛ 51: 6؛ 65: 17؛ 66: 22؛ مت 24: 35؛ عب 1: 11، 12؛ 2بط 3: 10، 12، 13؛ 1يو 2: 17؛ رؤ 21: 1.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الموجودتين حالياً سوف تزولان بهيئتهما الحاضرة (1كو 7: 31)، وإنهما – مثلهما مثل الأرض القديمة التي أُهلكت بالطوفان – ستُحرقان وتُطهّران بالنار (2بط 3: 6، 7، 10). ولكن كما أن الإنسان نفسه يُخلق من جديد في المسيح فعلاً، لكنه لا يُمحق بل يُخلق خلقاً ثانياً إذ ذاك (2كو 5: 17)، وهكذا أيضاً سيُحفظ الكون في جوهره، وإن كان في هيئته سيُغيَّر تغييراً عظيماً جداً بحيث يصحّ أن يدعى سماءً جديدة وأرضاً جديدة. والعالم بجملته يجري أيضاً نحو يوم تجديده العظيم (مت 19: 28).

ومن ثم، ففي هذه الخليقة الجديدة يوطد الله ملكوته. إذ يكون المسيح قد أنجز العمل الذي عُيِّن له بوصفه الوسيط، وقد ساد ملكاً على مدى زمن طويل حتى وضع جميع أعدائه تحت قدميه، وأقام جميع الذين أعطاه الآب إياهم. صحيح أنه بعد ذلك أيضاً سيظل في الأبدية هو رأس الكنيسة، من يعطيهم مجده لينظروه ويملأهم بملئه (يو 17: 24؛ أف 1: 23). إلا أن عمله الفدائي يكون قد أكمل شوطه، ويكون هو قد حقق الملك وسلّمه لله الآب، لكي يخضع هو نفسه – باعتباره الوسيط – لذاك الذي أخضع له كل شيء، كي يكون الله هو الكل في الكل (1كو 15: 24، 28).

هذا الملكوت يشتمل على السماء والأرض، ويصطحب مقداراً وفيراً جداً من البركات الروحية والمادية. فليس العهد القديم فقط، بل العهد الجديد أيضاً، يعلّم أن القديسين سوف يرثون الأرض (مت 5: 5). فإن الخليقة كلَّها سوف تُعتق يوماً من عبودية الفساد إلى حرية أولاد الله المجيدة (رو 8: 21). وأورشليم السماوية التي هي فوق، والتي يُطلق اسمها على مسكن الله مع شعبه، سوف تنزل إلى الأرض (رؤ 21: 2). وفي أورشليم الجديدة هذه، في حضرة الله المباشرة، ليس بعد خطية ولا مرضٌ ولا موت، بل يسود المجد وعدم الفساد أيضاً في العالم المادي.[1] وفي هذا أيضاً صورة جلية للحياة الأبدية، المباركة والمقدسة، التي يشترك فيها جميع مواطني تلك المدينة في شركة مع الله.[2]

وفي هذا الملكوت أيضاً سيكون تفاوت واختلاف ضمن الشركة الواحدة للجميع. فسيكون هنالك صغير وكبير (رؤ 22: 12) وأول وأخير (مت 20: 16). وكل امرئ سينال هناك اسمه الخاص ومكانه الخاص (رؤ 2: 17) وفقاً لأعمال الإيمان والمحبة التي قام بها على الأرض. لأن من يزرع بالشحّ، فبالشحّ أيضاً يحصد؛ ومن يزرع بالبركات، فلسوف يحصد حصاداً وفيراً مباركاً (2كو 9: 6). وفي السماء مكافأة على جميع الاضطهادات التي احتملها أتباع المسيح في سبيله، وعلى كل عمل فعلوه باسمه (مت 5: 12؛ 6: 1، 6، 18). وبمقدار ما كان الشخص أميناً في استخدام الوزنات التي أُعطيت له، ينال في ملكوت الله أجراً أعظم ونصيباً من المُلك (مت 25: 14 وما يلي). حتى كأس الماء البارد التي تُقدَّم باسم المسيح إلى أحد إخوته الأصاغر، لن تنسى يوم الدين. فإنه سوف يتوّج ويجازي الأعمال الصالحة التي جعلها هو بذاته وبقوته تجري على أيدي خاصته. وهكذا يشترك الجميع في البركات عينها، والحياة الأبدية نفسها، والشركة مع الله ذاتها. ولكن في ما بينهم، رغم ذلك، فرقاً في البهاء والمجد. وبمقدار أمانة الكنائس وغيرها، تستلم من الرب الملك تيجاناً ومكافآت مختلفة (رؤ 2، 3). وفي بيت الآب منازل كثيرة جداً (يو 14: 2).

بهذا الفارق في المنزلة والمكانة والمهمة، تغتني شركة القديسين. وكما أن جودة الترنيمة تعززها نوعية الأصوات، وبهاء النور يتضاعف من جراء غنى ألوانه ودرجاته، هكذا أيضاً سيتمجَّد المسيح مرة واحدة في جمهرة قديسيه، وتظهر عظمته العجيبة في الألوف المؤلفة من المؤمنين باسمه. فإن جميع ساكني أورشليم الجديدة سوف يعاينون وجه الله، ويحملون اسمه على جباههم. وهم جميعاً سينشدون عالياً ترنيمة موسى أمام العرش، وكذلك ترنيمة الحمل، وسيخبر كلٌّ منهم، بطريقته الخاصة، بأعمال الله العظيمة: "عظيمة وعجيبة هي أعمالك، أيها الربّ الإله القادر على كل شيء. عادلةٌ وحقٌّ هي طرقك، يا ملك القديسين. من لا يخافك، ويمجّد اسمك؟" (رؤ 15: 3، 4).

لأن منه وبه وله كلَّ الأشياء، له المجد إلى الأبد. آمين.

[1]- 1كو 15: 42 – 44؛ رؤ 7: 16، 17؛ 21: 4.
[2]- 1كو 13: 12؛ 1يو 3: 2؛ رؤ 21: 3؛ 22: 1 – 5.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008